سلسلة نقد العقل التجديدى

فى الإسلام

الكتاب الأول

الفكر السياسى

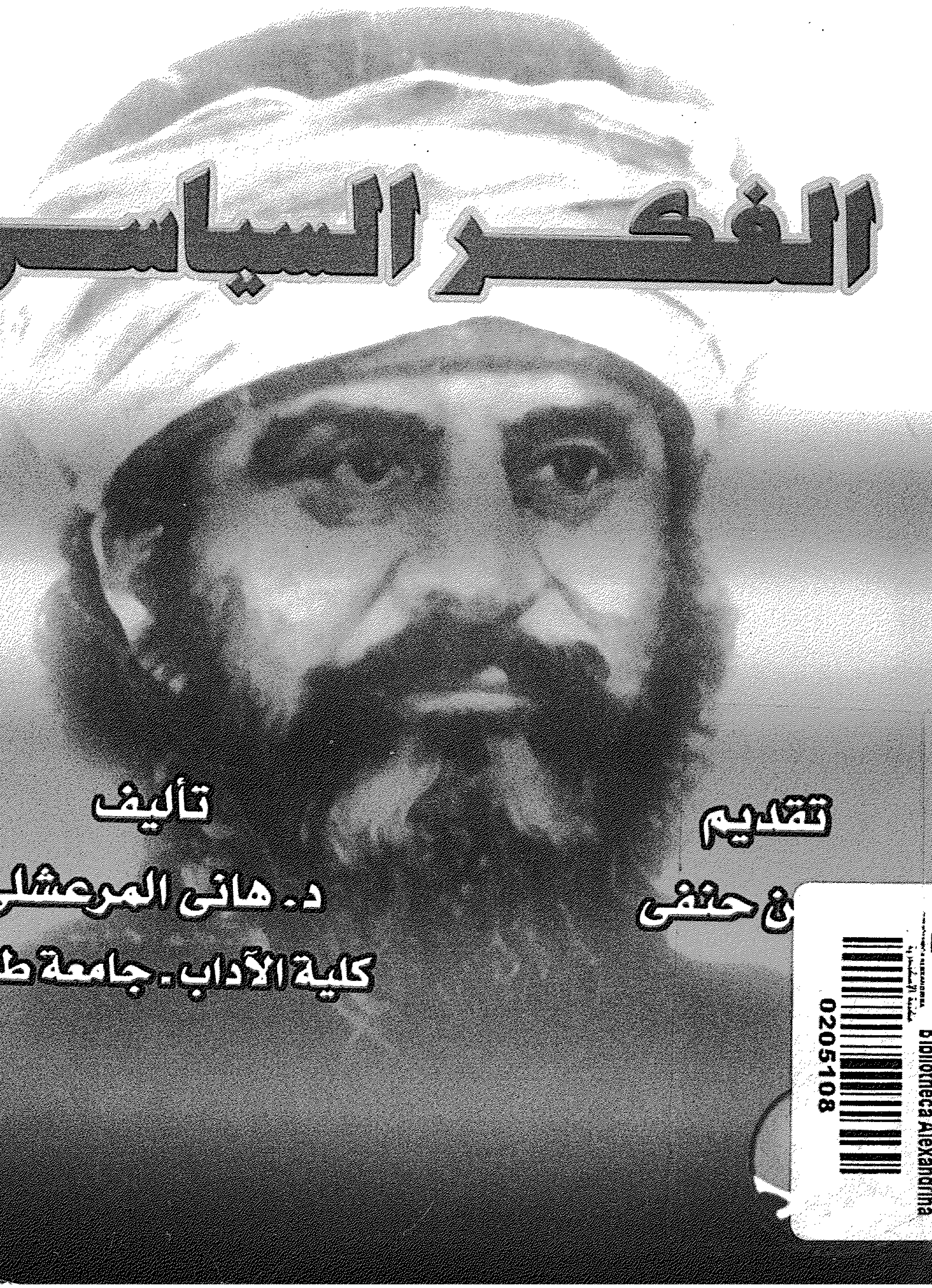

تأليف

د. هانى المرعشلى

كلية الآداب - جامعة طنطا

تقديم

ن حنفى

Bibliotheca Alexandrina

0205108

سلسلة نقد العقل التجديدى
في الإسلام

الكتاب الأول

الفكر السياسى

د. هانى المرعشلى
كلية الآداب - جامعة طنطا

تقديم
الاستاذ الدكتور / حسن حنفى

٢٠٠١
المكتب العلمى للنشر والتوزيع
ص.ب ٢٨٤٠ توزيع الإبراهيمية الاسكندرية

رقم الإيداع ٣٢٠٥/٢٠٠١
الترقيم الدولى 4-048-318-977

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى روح أبى الطاهرة ..

أول من غرس فىّ مكانة العقل العربى

إلـــى الروح العـــذب ..

الشـــاعر مرســـى جميـــل عزيـــز

رائد صياغة الوجدان العربى

الـــى ملتقـــى العقـــل والوجـــدان ..

زوجتى وأبنائى الأحبـــاء

مـــى .. محمـــد .. ســـارة

تقديم

بقلم الدكتور حسن حنفى

جمال الدين الأفغانى هو رائد الحركة الاصلاحية الثورية الحديثة • هكذا كتب على نصبه التذكارى فى كابول • فهو الذى صاغ الاسلام من جديد فى العصر الحديث ، الاسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل • وهو الذى اعاد تفسير الدين باعتباره ثورة • فقد انتهى عصر تفسير الدين كعقائد وشعائر ومؤسسات ونظم • فتلك معركة قد كُسبت من قبل • أما اليوم فالمسلمون فى معركة جديدة هم فيها خاسرون ، الثورة ضد الاستعمار والقصر ، ضد القهر والتخلف • فآفة الشرق امراؤه المستبدون وعلماؤه الجاهلون • لذلك عمل الأفغانى على تكوين ايديولوجية ثورية كان منبرها " العروة الوثقى " وحزب ثورى كان قوامه تلاميذه فى كل مكان يحط به خاصة فى مصر المحروسة ، وجماهير ثورية قادرة على الانقلاب على الحكام فى أفغانستان وايران ومصر والسودان ، فالاصلاح لديه كان ثورة فى مقابل الطهطاوى الذى كان الاصلاح لديه نهضه وشبلى شميل الذى كان الاصلاح لديه علم طبيعى • الاستعمار حرب عدوانية والجهاد حرب عادلة(١) •

وقد نشأ الأفغانى فى عصر ضعفت فيه الخلافة ، وفسد فيه الحكم الاسلامى ، وطمع الاستعمار الغربى والشرقى على حد سواء ، البريطانى

---

(١) جمال الدين الأفغانى : الأعمال الكاملة ، نشر د• محمد عمارة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، الحرب العادلة والحرب العدوانية ، ص ٤٣٦ - ٤٤٢ ، الاستعمار ، ص ٤٤٢ - ٤٥٢

والقيصرى فى تركة الرجل المريض فيما عرف فى ذلك الوقت بالمسألة الشرقية • وكانت هناك تيارات ثلاث • الأول العثمانيون وعلى رأسهم أبو الهدى الصيادى الذى كان فقيها للسلطان ، يود ابقاء الخلافة على ما هى عليه، قهر وتخلف مادامت مصدراً للرزق وسلطة للعلماء • والثانى رد فعل على الأول حزب" تركيا الفتاة " الذى على منواله نشأ حزب " مصر الفتاة " ، للدعوة الى القومية الطورانية والعلمانية والأخذ بأساليب الحداثة ومناهج العصر كما هو الحال فى الغرب ، تقليدا وتبعية له وانهاء لدور الخلافة وتأسيسا للدولة القومية الحديثة • والثالث حزب الاصلاح الذى كان منه الأفغانى وعبدالله النديم ومحمد عبده وكل تلاميذ الأفغانى • وقد كان هدفه تجديد الخلافة واصلاح الامبراطوية العثمانية ، الأخذ بأساليب الحداثة دون ترك الأصالة ، والدخول فى العصر دون التخلى عن الهوية •

كان هذا التيار الثالث يمثل أغلبية المسلمين علماء وجمهورا فى مقابل الفئتين عثمانية وطورانية • على عكس ما هو حادث الآن عن صراع بين السلفيين والعلمانيين ، بين الاخوة الاعداء ، كثرة من الجماهير السلفية وقلة من القادة العلمانيين وغياب التيار الاصلاحى الأفغانى باستثناء دعاة الاسلام المستنير الذى يود تحقيق حلم الأفغانى الأول ، التغير من خلال التواصل حفاظا على التراث والتجديد ، الاصالة والمعاصرة (٢) •

واذا كان سبب تخلف المسلمين هو التجزئة والتعنت والانقسام كان من الطبيعى البحث عن مقومات الوحدة ومستوياتها•ولما كانت مصرواحدةعبرالتاريخ ومهد التوحيد فان وحدة شعب مصر قد تكون ركيزة

---

(٢) المصدر السابق : أبو الهدى الصيادى ص ٥٣٩ - ٥٤٠ الأصالة والتقليد ص ١٨٩-٢٠٣ ، بين الاجداد والأحفاد ص ٢٠٣-٢٠٧ أصالة العرب العلمية ٢١١ - ٢١٨ تراثنا المجيد ص ٢١٨ - ٢١٩ •

وحدة شاملة وأعم • لذلك ارتبط الأفغاني بمصر • وهو واضع شعار " مصر للمصريين" كما أن تلميذه محمد عبده هو الذى حرر برنامج الحزب الوطنى • لذلك لزم تقوية مصر وتحريرها من الاستعمار والقصر ، من التبعية والقهر ، من النهب والبيروقراطية • وهو ما أراده محمد على لمصر ، كما أراده من قبل فراعنه مصر ، وهو ما سار عليه أيضا عبد الناصر فى هذا القرن • مصر المحروسة ، مصر المحمية أحب بلدان الله ، جندها خير أجناد الأرض وشعبها مرابط الى يوم القيامة • لذلك كتب الكندى " فضائل مصر " • وهى مذكورة فى القرآن خمس مرات ، بلدا للطغيان وبلدا للأمان[3] •

ومن مصر تبدأ ستة دوائر : وحدة وادى النيل ، ووحدة مصر والشام ، ووحدة المغرب العربى ، والوحدة العربية ، والوحدة الاسلامية ، والجامعة الشرقية • فالسودان هو الامتداد الطبيعى لمصر ، ووحدة وادى النيل ركيزة الوحدة العربية والتى أصبحت فى هذا القرن دعامة الوحدة الافريقية • والمهدية فى السودان والثورة على الانجليز من تعاليم الأفغانى • لذلك أرادت بريطانيا درءا لمخاطر الثورة جعل الأفغانى ملكا على السودان ! ان احتلال مصر هو احتلال للسودان الشمالى ، واحتلال السودان هو احتلال لمصر الجنوبى ، وتقطيع لوحدة وادى النيل وقضاء على دولة الوحدة فى نواتها الأولى • والقضاء على الاستعمار فى الوادى هو تحقيق لواجب الدين والوطن[4] •

---

(٣) المصدر السابق : مصر ص ٤٦٥ - ٤٧٢ مصر والحكم النيابى ص ٤٧٢-٤٧٥ عن مصر والمصريين وحكم الشرق حتى ٤٧٦--٤٨٠ احتلال مصر ينبه الاذهان ص ٤٨٢ - ٤٨٨ المعتمد البريطانى فى مصر ص ٤٩٢-٤٩٧ •

(٤) المصدر السابق : السودان ص ٤٩٨-٤٩٦ زلزال الانكليز فى السودان ص ٥٠١-٥٠٥ رفض التتويج سلطانا على السودان ص ٥٠٥-٥٠٦ •

ويمكن ان تتحقق دولة الوحدة في وحدة مصر والشام ، وحدة أفريقيا وآسيا ، فالوادي في أفريقيا وسينا في آسيا • وسيناء هي المدخل الشرقي لمصر ، وهي امتداد جنوبي لصحراء الشام • وطالما اتت الغزوات من حدود مصر الشرقية منذ الهكسوس قديما حتى الصهيونية حديثا • فوحدة مصر والشام هي نواة الوحدة ظهر ذلك ايام صلاح الدين لهزيمة الصليبيين ، وفي أول تجربة وحدوية في تاريخ العرب الحديث في ١٩٥٨ - ١٩٦١ في عهد عبد الناصر • وفي سوريا نشأت القومية العربية • وفي دمشق استشهد أوائل القوميين العرب • وهو بر واحد ، بر مصر وبر الشام •

وبالاضافة الى جناحها الشرقي في الشام يمكن لمصر نواه الوحدة أن تتحد مع جناحها الغربي في المغرب العربي ، فهي جزء منه عبر تاريخها الطويل منذ الفتوحات حتى جوهر القائد الى تاريخ مصر الحديث الذي جسدته مساعدات مصر للجزائر في حرب التحرير ولتونس والمغرب من أجل نيل الإستقلال • ففي القاهرة أسس مكتب المغرب العربي ، وعلال الفاسي آخر تلاميذ الأفغاني ، وهي مساحة واحدة عبر الحجيج من المغرب الى الحجاز عبر مصر ، صوفية مصر معظمهم مغاربة • والوطنية والاسلام توأمان دون تدخل القومية بينهما كما هو الحال في الشام •

ويمكن لمصر ان تكون نواة الوحدة العربية ، فقد كانت الأمينة على نشر اللغة ابان الاحتلال الغربي للوطن العربي • وفيها قامت أولى المحاولات لتوحيد مصر والشام ومصر والسودان ومصر والحجاز ابان محمد على ، ومصر والشام في عهد عبد الناصر • موقعها في القلب بين جناحيها المشرق العربي والمغرب العربي • حافظت على التراث العربي الاسلامي من الاندثار • وفيها تم تكوين الموسوعات الكبرى • مصر كعبة العروبة ورائدة التعريب ليست العروبة عرقا أو جنسا بل هي الحامل للدين والثقافة والحضارة • ومن قبل الاسلام دون اللغة مثل الاتراك والفرس فانهم

يأخذون الآداب ويتركون اللسان، العروبة قومية منفتحة على الديمقراطية في الداخل والانسانية في الخارج (٥) ٠

وتستطيع مصر ان تكون مركزا للوحدة الاسلامية ، فيها الازهر الشريف حملت لواء العلم وحفظت التراث الاسلامي ، يقصدها القاصي والداني ٠ فعصبية الدين تجب عصبية الجنس ، والولاء للفكر يتجاوز الولاء للعرق ٠ وقد قام التوحيد بهذه المهمة ، توحيد الشعوب والقبائل والأقوام أمام مبدأ واحد عام شامل يتساوى أمامه الناس جميعا ٠ وهي أمة واحدة بلا مذاهب سنة أو شيعة ٠ فبالوحدة تتأكد سيادة الأمة ، وبالفرقة ينال منهم الاعداء(٦)٠

ولما كانت مصر كوكب الشرق فان الوحدة الكبرى هي الجامعة الشرقية وحدة شعوب الشرق في مقابل الغرب الاستعماري ٠ فالأفغاني من أوائل مؤسسي " ريح الشرق " والاتجاه نحو الشرق ٠ وقد انتشر الاسلام شرقا قدر انتشاره غربا ، وكانت تجارته وكان علمه في الشرق وما زالت آسيا الوسطى مخزونة البشرى الاقتصادي الأول ففي آسيا أربعة أخماس المسلمين ٠ حل المسألة الشرقية في الجامعة الشرقية حيث يصح الرجل المريض ٠ عيب الشرق أحزابه السياسية المتخلفة المتفرقة التابعة لغرب والتي لا ترعى مصالح الأمة ٠ الصراع الحقيقي هو بين الغرب والشرق وقد أضاف اليه جيلنا الصراع بين الشمال والجنوب وسياسة انكلترا في

---

(٥) المصدر السابق : العروبة والتعريب ص ٢١٩-٢٢٠ فعاليات آداب اللسان ص ٢٢٠ - ٢٢٢ بين العرب والاتراك ص ٢٢٢-٢٢٧ الانسانية والقومية والديمقراطية ص ٤٢٧ - ٤٣٠ ٠

(٦) المصدر السابق : عصبية الجنس وعصبية الدين ص ٣١١-٣١٥ أمة واحدة لا سنة ولا شيعة ص ٣٢٤-٣٢٦ الوحدة الاسلامية ص ص ٣٤٠-٣٤٧ الجنسية والديانة الاسلامية ص ٣٤٧-٣٥٢ الوحدة أو السيادة ص ٣٥٢-٣٥٨

الشرق هي سياسة الاستعمار ، الامبراطورية آلتي لا تغيب عنها الشمس ، وسيدة البحار ، قناة السويس وعدن والرجاء الصالح وسنغافورة وهونج كونج ونيويورك (٧)٠

ونظرا للقهر فى العالم الاسلامى من الحكام أصبحت الحرية الفردية والديمقراطية السياسية نموذجا يقدمه الأفغانى للأمة وليس النظام الملكى القاهر ، وليس النظام الجمهورى الفوضى ٠ يفضل الأفغانى النظام الملكى الدستورى الذى يحفظ للسلطة وحدتها وللشعب حقه والنظام الدستورى نظام برلمانى يقوم على تعدد الأحزاب والصحافة الحرة ومسئولية الحكومة أمام البرلمان ٠ ومن هذا الطريق تتحقق الاشتراكية آلتي تمثل العدل للاكثرية وليس عن طريق الفلسفات المادية ٠ والأفغانى هو صاحب مقولة المستبد العادل الذى لا يصلح الشرق الا به ، الدولة القومية آلتي تحقق العدل بين الناس ، السلطة المركزية القادرة على تجنيد الشعب وهو ما تحقق أيام محمد على وعبد الناصر بدلا من الدولة الرخوة والفساد ويدب الفساد الى الدولة من بطانة الملك ورجال الدولة وعلماء السوء (٨) ٠

هذا المشروع الثورى التحررى ساندته أيديولوجية روحية أخلاقية عبر عنها الأفغانى فى الرد على الدهريين نظرا للخطر الذى كانت تمثله المادية فى القرن الماضى على العقائد الدينية والقيم الأخلاقية كما جسدتها نظرية التطور ٠ فوقع الأفغانى فى الخطابة والا نشاء ، وحول قوانين المجتمع والتاريخ الى قوانين اخلاقية روحية ، فاصلاح المجموع فى اصلاح الفرد ، وتغيير الخارج مشروط بتغيير الداخل ٠ الحياء والأمانة والصدق ثلاث خصال يحركن المجتمع والتاريخ ٠ وصنف الاشتراكيين وفلاسفة الثورة

---

(٨) المصدر السابق : العدل ص ٤٠٨ - ٤١٢ الاشتراكية ص ٤١٣-٤١٤ رجال الدولة وبطانة الملك ص ٣٩٦-٤٠١ ٠

الفرنسية فولتير وروسو وموتسكيو فى هذه النزعة . ووصفها بالعلمية واللاأخلاقية واتهمها بالالحاد وإنكار الألوهية . ثم يستند الأفغانى مشروعه الثورى بايدلوجية ثورية . لذلك بدأ مشروعه فى الأفول بداية فشل الثورة العرابية فالسياسة والعلم فى القرآن . والوهم والجبن من أسباب تخلف المسلمين والأمل وطلب المجد طريق التقدم . وعلى المسلمين الصبر والثبات (٩) .

خبا مشروع الأفغانى الى النصف على يد محمد عبده بعد هزيمة العرابيين واحتلال مصر . وخشى محمد عبده من الثورة عن طريق الانقلاب على السلطة وآثر التغير الاجتماعي البطئ عن طريق تعليم اللغة العربية وتطهير الدين من الخرافات واصلاح المحاكم الشرعية ونظم التعليم وتغيير عادات الفلاحين ، واثارة العقول ، والدخول فى العصر بتؤدة وثقة . فلما قامت الثورة الكمالية فى تركيا فى ١٩٢٤ خشى تلميذه رشيد رضا من انتشار العلمانية بعد سقوط الخلافة ونشأة الحركات القومية التجزيئية كوريث لوحدة الأمة فارتد سلفيا بعد ان كان اصلاحيا . وخبا مشروع الأفغانى مرة أخرى الى النصف . ولما أراد حسن البنا ، وهو تلميذ رشيد رضا فى دار العلوم ، اعادة نشر المنار فى ١٩٣٥-١٩٣٦ وتحقيق حلم الأفغانى بانشاء حزب ثورى يحقق مشروعه الاصلاحى والذى لم يستطع الأفغانى تأسيسه نظرا لمطاردة السلطات له وعدم استقراره فى بلد واحد ، أنشأ حسن البنا جماعة الاخوان المسلمين لتحقيق هذا الحلم . ثم اصطدمت الجماعة فى ١٩٥٤ بالثورة المصرية صراعا على السلطة وانتهت الجماعة تحت الأرض

---

(٩) المصدر السابق : رسالة الرد على الدهريين ص ١٢٧-١٨١ النشوء والارتقاء ص ٢٤٩-٢٥٤ الوهم ص ٣٦٤-٣٧٠ الجبن ص ٣٧٠-٣٧٥ الأمل وطلب المجد ص ٣٨٨-٣٩٤ الصبر والثبات ص ٣٩٤-٣٩٦ .

وخرجت فى السبعينات وحتى الآن غاضبة تريد الثأر والانتقام من الثورة وأصبح معالم فى الطريق هو الوريث للرد على الدهريين .

هذا ما حاوله .. هذا الكتاب " جمال الدين الأفغانى " أن يعرضه فى فصوله الثلاث . الأول " مدخل الى فكر جمال الدين الأفغانى " لعرض عصره وتياراته واثارة قضية اصل الأفغانى ، وهى قضية أثارها الاستشراق بدافع عرقى قومى - فلا يهم اذا كان الأفغانى فارسيا أم أفغانيا ، بل هو مسلم ينتمى الى الأمة الاسلامية التى تتجاوز رابطتها العرق والقوم والشعب والأصل . والفصل الثانى " فكرة الجامعة الاسلامية عن مستويات الوحدة ومركزها مصر . والفصل الثالث " الحرية والديمقراطية " النموذج الذى آثره الأفغانى لاعادة بناء الأمة من الداخل .

فللمؤلف منا كل تحية ، راجين له الاستمرار فى سلسلة " التجديد فى الفكر الاسلامى المعاصر " . فنحن جزء منه وهو جزء منا . ولعل مزيدا من البحث فيه يصبح فيما بعد تأكيدا على أهمية دراسة الماضى فى الحاضر وخلق نوع جديد من المفكرين الباحثين ، والاساتذة الملتزمين بقضايا الفكر والوطن .

مقدمة

بصدد موضوع الدراسة :

يكتسب موضوع التجديد في الفكر الاسلامي اهميته القصوى في عصرنا الحاضر من عدة نواح :

– فهو من ناحية يوضح تلك المحاولة الدئوبة المتواصلة لآخر الاديان الكتابية لتجديد فهم البشر له على النحو الذى يجعل حياتهم المعاصرة بتفاصيلها المتعددة والمتغيرة تجد تنظيمها الأمثل في إطاره ، وذلك تأسيسا على ما يعبر عنه الدكتور محمد اقبال خير تعبير من ان الاسلام كان آخر الاديان لانه جعل التحكيم للعقل، ولم يجعله لتقاليد الاسلاف ٠ وكذلك تأسيسا على ان الديانتين الكتابيتين الاخريتين – اليهودية والمسيحية – قد تحدد نطاق سيطرتهما الخاص عبر تطور تاريخى طويل ، بحيث انه لم يعد هناك من مجال للحديث عن التجديد فيهما بالمعنى الذى نتحدث فيه عن التجديد في الاسلام ٠

– ومن ناحية اخرى لانه يوضح إلى أى مدى يمكن للاسلام – بوصفه نظاما إعتقاديا لجل سكان العالم الاسلامى في وقتنا الراهن وبوصفه تلك النظام الحاكم للقيم والافكار وشتى مناحى الحياة قبل إسترخاء قبضته على المجتمع الاسلامي في أوائل القرن العشرين ، وإضمحلال قوته الفعالة في الحياة الاجتماعية والسياسية – ان يعيد تقديم نفسه كحل لمشكلات الحياة المعاصرة فكريا وعمليا إزاء الحلول الاخرى المستقاة من الفكرة اللادينية ، والتى أفلحت في أن تنحى الاسلام كقوة منظمة قادرة على ممارسة تأثير مباشر على المجتمع والدولة ، سواء تمثلت تلك الحلول في الأخذ بالفكرة الليبرالية منذ مطلع القرن الحالى أو في الأخذ بالفكرة الاشتراكية في النصف الثانى منه ٠

- ومن ناحية ثالثة لان هناك خلافا جوهريا حول مفهوم التجديد يتجاوز في شدته ذلك الخلاف الذى وقع بين المدارس الكلامية بعضها البعض وبين المدارس الفقهية بعضها البعض ، أو بين المتكلمين والفقهاء أو بين أهل السنة ومعتزلة الشيعة ، ليس لأنه ينتج عنه تبادل الإتهامات بالكفر والخروج عن دائرة الشرع - فقد حدث هذا من قبل - ولكن لأن أحد المفاهيم الحديثة للتجديد يثير الشك فى فعالية الاسلام ذاته - كنظام شامل - ما لم يتبنى الأسس الفكرية المدينة الغربية الحديثة .وبذا ، فان الامر يتعدى نطاق الاختلاف فى إطار الاسلام مهما تعددت الاتهامات بالتكفير ، ومهما تعددت الاعتقادات بخصوص طبيعة الفرقة الناجية وفقا للحديث الشريف عن ان الفرقة الناجية بعد إنقسام المسلمين هى من هى على مذهبه - صلوات الله وسلامه عليه - وأصحابه . ان الامر يتعدى نطاق هذا الى الاختلاف حول الاختيار بين الاسلام نفسه باجتهاداتنا المختلفة داخل إطاره وبين نظام فكرى آخر خارج إطاره .

والنقطة الاخيرة فى غاية الاهمية لانها تمثل لب فكرة التجديد ، إذ أنه على ضوئها يتحدد مدى فعالية التصور المقترح للاسلام ازاء الشعوب الاسلامية وازاء المدنية الغربية ، وبالتالى مدى نجاح فكرة تنظيمه الدينى الحياة فى عصر اللادينية .

وبالرغم من إعترافنا بعظمة الجهود آلتي بذلت لتذليل الصعوبات أمام دارس الفكر الاسلامى قديمه وحديثه ، فأنه لأمر شائك فى مناخ فكرى أسهمت في سيادته عناصر متعددة غير اسلامية ، ان يسعى الباحث بوضوح منهجى لكى يحلل ويقارن بين مناهج الاجتهاد والتجديد المختلفة حتى يميز الخبيث من الطيب ، خاصة إذا كان للخبيث أنصاره الاقوياء ، واذا كانت حركة نشر التراث الاسلامى قد وقعت فريسة لحركة الإستشراق الاجنبى منذ بدأ المستشرقون يرسون منذ منتصف القرن السابع عشر قواعد اسلوب معين

فى تناول التراث الفكرى للأمة الاسلامية ، يهدف الى تصوير ذلك التراث على انه يحمل فى كافة مجالاته ما يؤكد إتصاف الفكر الاسلامى بالتعبية والعفوية كخصائص جوهرية للعقل العربى من ناحية ، وللتعاليم الدينيه الاسلامية من ناحية أخرى .

والنتيجة هى حدوث خلط وتشوش للمفاهيم يستلزم جهدا منهاجيا شاقة لازالته وتوضيح غموضه .

- ويكتسب التجديد أهميته أخيرا لأن قضية التجديد تثير قضية التفاعل بين الثقافات المختلفة ، بحيث ان المتحرج من ذلك التفاعل يقذف به الى فريق الجامدين ، بينما يرحب بالمتحمس له ، بوصفه مؤمنا بوحدة الحضارة العالمية ، وهى الحضارة الغربية بالطبع .

كما ان موضوع التجديد فى الفكر الاسلامى ، تنبع اهميته من انه بمثابة القلب فى أية محاولة للإحياء الاسلامى .

فعلى المستوى الفكرى إرتبط إزدهار الاسلام والدولة الاسلامية بالنشاط التجديدى العظيم الذى تمثل فى " الاجتهاد " ، وعلى العكس إرتبط إضمحلال قوة الدولة الاسلامية باغلاق باب الاجتهاد ، وتحول النشاط الفكرى للامة الى الشرح وشرح الشرح على المتون .

ويأتى إسم " جمال الدين الأفغانى " على رأس رواد التجديد فى القرن التاسع عشر الميلادى ، الذى يمثل ذروة الفترة الإنتقالية للفكر الاسلامى كرد على التحدى الاوروبى الغربى المبتدئ بحملة بونابرت ١٧٩٨م وما تلاها من إزدياد النفوذ الاوروبى فى أرجاء الدولة العثمانية ، على النحو الذى أدى إلى إضمحلالها وإنهاء الخلافة الاسلامية ذاتها بعد ذلك بنحو قرن وربع قرن .

لهذا عولنا على ان نجعل من جمال الدين موضوعاً لدراسة مستفيضة ومتعمقة ، فى محاولة لسبر أغوار العقل النهضوى العربى باعتبار جمال

الدين أحد أسس هذا العقل وجذوره ، ورائد لمدرسة قائمة بذاتها فى مجال التجديد فى الفكر الاسلامى المعاصر ، ويكفى أن الأستاذ الإمام " محمد عبده - وهو من هو مقاماً ومكانة - أحد تلاميذه النجباء ٠

وقد خصصنا الدراسة الحالية حول الفلسفة السياسية لجمال الدين ، على أن نقوم فى دراسة تالية بدراسة فكره الفلسفى والاصلاحى ٠

ماهو الهدف الاساسى أمام جمال الدين الأفغانى والذى عبر عنه بفكره وحركته ؟

يمكن القول ان ذلك الهدف كان هو النهوض بالشرق بصفة اساسية كمقابل للغرب ، ولتحقيق هذا الهدف سعى الافغانى لانقاذ امم الشرق من ثباتها على الفهم السلفى الجامد للدين الذى ادى فى رأيه الى تخلفها ، ومن ثم الى خضوعها للاستعمار الغربى ، ولذا فان السعى نحو تطوير أو تحديث الدين كان وسيلته الى تحريك الشرق كى يقاوم الاستعمار ومن ثم ازدوج فى الافغانى تحديث الدين على مستوى الفكر ومقاومة الاستعمار على مستوى الحركة سعيا وراء هدفه الاساسى ٠

والسؤال هو : هل أن مقاومة الاستعمار كانت تكتسب فعاليتها مع تطوير الدين الاسلامى ليتقبل أساسيات الفكر الغربى ، الامر الذى كان يعنى تبعية امم الشرق فى نهاية الامر للغرب أو تحقيق عكس ما كان الافغانى يرمى اليه ؟ ٠

هذا ما حاولت الدراسة الكشف عنه ٠

ومن ازدواجية الفكر والحركة هذه فى جمال الدين الافغانى ، رأت الدراسة أنه ينبغى الفصل بين كافة الجوانب المختلفة فى شخصيته ، ودراسة كل جانب على حده ، وذلك على النحو التالى :

بدأت الدراسة بفصل تمهيدى ، يوضح إشكالية سيرة جمال الدين الافغانى من حيث غموض أصله ، وذلك ليكون بمثابة " مفتاح الشخصية " الذى نلج به عالمه المتشابك •

يلى ذلك باب فى فلسفة السياسة ، وخصصناه لدراسة الفكر السياسى لجمال الدين ، مؤكدين على الاهمية القصوى للجانب السياسى فيه ، والذى هو بمثابة اللب من كافة افكاره واعماله •

وجاء هذا الباب فى فصلين • الاول تناول فكرة الوحدة والتكتل الاسلامى ، والتى اطلق عليها البعض اسم " الجامعة الاسلامية " عارضا لنشأة الفكرة ، ثم تقييم الدارسين لها لدى جمال الدين الافغانى ، ثم قام الباحث بدراسة الفكرة بنفسه ، مستندا الى نصوص جديدة ، بعضها لم ينشر من قبل، وبعضها لم يستند اليه الباحثون ، محاولا إثبات جانب جديد فى جمال الدين ، وهو الجانب القومى العربى •

وجاء الفصل الثانى ليتناول فكرتى " الحرية •• والديموقراطية " لدى جمال الدين ، من حيث المعنى والاستخدام ، فى محاولة لقراءة أفكاره السياسية على ضوء الفلسفات السياسية السائدة قبل ، وإبان القرن التاسع عشر •

هذا وقد ذيلنا الدراسة بملحق يحتوى على النصوص والمقالات التى استعنا بها لتوضيح رأينا وللإستدلال على مواقف جمال الدين ، بلسان جمال الدين ذاته ، وليس بغيره ، وذلك عونا لمن أراد الإطلاع على النصوص كاملة فى صورة كاملة ، لا جزئية مقتطعة •

وخلال ذلك كله حاولت الدراسة إكتشاف الخيط الفكرى الواحد ، الذى ينظم أفكار جمال الدين كلها فى عقد واحد •

بصدد المنهـــــج :

اعتمدت الدراسة " المنهج التحليلـى التاريخى المقارن " كأفضل منهج إرتأته صالحا لمثل هذه الدراسة ، وذلك تفاديا للبس الذى قد ينشأ من الغوص فى مباحث متعددة الكم ، متنوعة الكيف ، مما قد يجعل بالتالى التصدى لمثل هذا البحث عمل شاق لكثرة الكتب والدراسات السابقة ، فربما كان الافغانى حسن الحظ إذ ظفر بجهد الباحثين ، وتوفر عليه النظر والبحث باللغات العربية والاوروبية •

إلا أن الافغانى – كما رأت الدراسة – لم يحظ بدراسة شاملة ومتكاملة تتناوله كحقيقة كلية ، أيا كان الحكم عليها ، بدلا من توفره بهذا الشكل المحير، كحقائق جزئية متعددة تؤدى كل منها لحكم يصدق بقدر إقترابه من إحداها ، ويكذب بقدر إبتعاده عن الحقائق الاخرى •

لقد حفلت معظم الدراسات والابحاث كما رأتها الدراسة ، بالقصور ، الناشئ عن الغموض والضعف وإضطراب الحقائق وتضارب الأحكام •

ويعود جزء كبير من ضعف العرض والإضطراب الفكرى ، إلى قلة الجهد المبذول من الدارسين لجمعها وتنقيحها وربط بعضها ببعض فى سياق معقول ، تتوفر فيه شرائط القرينة التاريخية والعرض المنطقى ، وهو ما حاولت الدراسة تلافيه وتجنبه •

لذلك حاول الباحث دائما ، أن يسلك مسلك الباحث عن الحقيقة ؛ المتحدث بلسان غيره ، لا مسلك المتحرك بدوافع جاهزة ومسبقة ، الذى يحاكم ويصدر احكامه •

ويأمل الباحث من خلال ذلك كله ، أن يكون قد أفلح فى تجنب تلك

المخاطرة آلتي تواجه من يتصدى لموضوع كثير الورود ، لما يترتب على ذلك من زهد الناس فى القراءة لوفرة ما قرأوا ، أو نفورهم لغثى ما رأوا ، ومن هنا فلابد لن يضيف الدارس الجديد جديدا ، أو يكشف عن شئ كان معمى ، وأن يجلى أمر كان فى حاجة الى بيان وإعراب •

نسأل الله العون والتوفيق ، وله الحمد والشكر من قبل ومن بعد •

دكتور

هانى عبد الوهاب المرعشلى

فصل تمهيدي

المدخل إلى فكر جمال الدين الافغانى

المبحث الأول : تمهيد عام

المبحث الثانى : السيرة : مشكلة •• وحل •

حقيقة عصره :

بنظرة عامة على القرن الثالث عشر الهجرى - التاسع الميلادى - ، وهو العهد الذى نشأ فيه جمال الدين وظهر نجمه ، نجد أنفسنا إزاء معطيات كانت بمثابة إرهاصات أدت بالضرورة إلى ظهور جمال الدين بدعوته ، كنتيجة لازمة عنها ورد فعل لها .

ومعطيات العصر فى هذا الآن هى :

أ - حالة أوروبا .

ب - حالة الدولة العثمانية .

جـ - حالة الشرق عامة ، كنتيجة للحالتين السابقتين .

وسنحاول ، بإيجاز، الحديث عن كل من هذه المعطيات بقدر الامكان، لأنه ليس من طبيعة بحثنا هنا الخوض فى هذه الأمور التاريخية، الا بقدر ما تخدم موضوع بحثنا الأصلى .

(أ) أوروبـــــــا :

كان لتوجيه الفلسفة نحو الوجهة العملية فى أوروبا أثره فى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى - الثامن عشر الميلادى - ، فلقد جد الجد وتحققت أحلام "روجر بيكون" فى الفلسفة ، فوصلت البحوث الفلسفية العملية إلى قوة البخار وقوة الكهرباء فى هذا القرن ، وقد كان لهاتين القوتين أثرهما فى قوة أوروبا وعظمتها .

وإبان القرن الثالث عشر الهجرى - التاسع عشر الميلادى - ، كان التقدم العلمى فى أوروبا يسير جنباً إلى جنب مع التقدم السياسى ، فأدى تقدمها العلمى إلى اختراعات جديدة غير التي ظهرت فى القرن السابق ، فظهر فى أوروبا اختراع التليفون (المسرة) ، والفونوغراف (حاكى الصوت) ، وغيرهما من الاختراعات ، إلى أن توصلت إلى اكتشاف القنبلة الذرية وغيرها من الاختراعات النووية .

ومن وجهة أخرى فقد بلغت أوروبا غاية عظمتها فى القرن الثالث عشر الهجرى – التاسع عشر الميلادى – ، حتى صارت فيه هى المتسلطة على أمور العالم والمهيمنة على مقاليده ، تصرفها وتديرها كما تشاء سياستها وعلى وفق مصلحتها ، وقد لمعت فى هذا العهد دول كثيرة مثل إنجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وأيطاليا وروسيا ، ولولا تنافسها على حكم العالم لتم لها التسلط عليه بأجمعه .

(ب) الدولة العثمانية :

كانت معاهدة (كارلو فوتسى) آلتي تمت بين الدولة العثمانية والتركية من جهة ، والنمسا وروسيا والبندقية وبولونيا من جهة أخرى سنة ١١١٠هـ = ١٦٩٩م، عقب الحرب آلتي قامت بينهم على عهد السلطان العثمانى مصطفى الثانى (١١٠٦ هـ – ١١١٥هـ = ١٦٩٥-١٧٠٣ م) ، بداية لظهور ما عرف باسم (المسألة الشرقية) آلتي تقوم أساساً على أساس الاستيلاء على البلاد الإسلامية بأسم الاستعمار السياسى ، والتستر خلفه للقضاء على الدين الاسلامى ، الذى يقف حجر عثرة فى سبيل هذا الاستعمار .

وما أن حل القرن الثالث عشر الهجرى ، حتى كانت الدولة العثمانية تعرف بين دول أوروبا بأسم (الرجل المريض) ، وكانت تلك الدول قد اتفقت على تقسيمها فى القرن السابق ، إلا أن أطماعها فيها قد تضاربت فى هذا القرن ، فصارت كل دولة منها تنتزع ما يمكنها انتزاعه منها فى غفلة الدول الأوربية الأخرى ، وقد كان لتضارب هذه الأطماع وإصطراعها فضل بقاء هذه الدولة فى هذا القرن ، وإن كانت قد بقيت مريضة لا يرجى شفاؤها [1] ، لأن أوروبا عملت

---

(١) عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الاسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر الهجرى ١٠٠هـ – ١٣٧٠هـ، الطبعة الثانية ، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، القاهرة ، ١٩٦٢م ، ص ٤٤٦ .

على إبقائها كذلك ، عن طريق شغلها بالحروب المتوالية ، وإثارة الفتن الداخلية فيها .

فى هذا القرن فقدت الدولة العثمانية أكبر أملاكها فى أوروبا ، كما فقدت الجزائر فى المغرب باستيلاء فرنسا عليها سنة ١٢٤٦هـ=١٨٣٠م، والتى كانت قد استولت على مصر أيضا سنة ١٢١٣هـ=١٧٩٨م، ولم تتمكن السلطنة العثمانية من إخراجها منها إلآ بعد ثلاث سنوات بمساعدة انجلترا ، إلا أنها استولت بعد ذلك على تونس سنة ١٢٩٨هـ=١٨٨٠م ، وبعقد معاهدة باريس سنة ١٨٥٦م آلتي انتهت بها حرب القرم ، أصبحت تلك الدولة كأنها تحت حماية إنجلترا ، وصار سفير إنجلترا فى الأستانة كأنه الحاكم الفعلى للدولة العلية وما يتبعها من ولايات[١].

(جـ) الشـرق :

الاستعمار الأوروبى فى قمة عنفوانه وجبروته ، وأمم الشرق إما خاضعة له، أو هى محط هدفه ومقصده[٢] ففى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تغزو افريقية ، كانت بريطانيا تعمل على أن تطأ اقدامها جنوب جزيرة العرب ، فاحتلت عدن سنة ١٨٣٩ ، ثم أخذت تبسط نفوذها على مر السنين فى المناطق القريبة والنائية، بحيث لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى مدت شراكها إلى الكثير من الأصقاع الجنوبية من شبه جزيرة العرب ، وكانت تحتل الهند ، وتدبر لبلاد المكائد الافغان .

وفى ذات الوقت كانت معظم جزائر الهند الشرقية (أندونيسيا) خاضعة للاحتلال الهولندى وسلطانه الغاشم . ومصر كانت تكتنفها المطامع الاستعمارية

---

(١) محمد ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط فى التاريخ الحديث . ط٢ ، مكتبة الشباب بالقاهرة ، ١٩٦٥، ص ١٤٢ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : جمال الدين الأفغانى ، باعث نهضة الشرق ١٨٣٨-١٨٩٧، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦١، ص١١ .

وتلاحقها من كل فج ، فبريطانيا لم تزل تحاول تعويض إحقاقها في حملة فريزر سنة ١٨٠٧م لاحتلال مصر ، وفرنسا تنافسها في بسط النفوذ السياسي والاقتصادي على مصر ، وقد انتزعت في عام ١٨٥٤م امتياز حق حفر قناة السويس . وكان " اسماعيل " والى مصر وقتئذ قد ساق البلاد سوقاً إلى الخراب المدمر ، فباع موارد البلاد ثمناً للربا، وأغرقها في الديون . [١]

وإيران لم تزل منذ القرن الماضي ، موضع نزاع بين الدول الاستعمارية ، فكانت روسيا وإنجلترا تتصارعان على التدخل في شئونها ، ووضع اليد على مواردها .

الإطار العام لظهور جمال الدين

بداية من القرن الثامن عشر الميلادي إلى أخريات القرن التاسع عشر تكالبت العوامل السابقة بما واكبها من عوامل ممهدة ووسائل معينة ، وما ترتب على ذلك من نتائج ، لكي تبرز لنا العصر الذي نشأ جمال الدين في ربوعه ، عصراً متميزاً بسماته .

فلقد كان عصر جمال الدين هو عصر ازدهار الاستعمار ، أو عصر الغارة الأوروبية على العالم الإسلامي ، بداية من دخول التأثيرات الحضارية الأوروبية إلى البلاد الإسلامية ، لاسيما بعد الحملة الفرنسية [٢] ، واستعمار الغرب لهذه البلاد ، إلى عملية الهجوم على الإسلام باستخدام البعثات التبشيرية المسيحية ، وتغريب التعليم .

كان هدف الاستعمار الغربي في الشرق الاسلامي هو إضعاف المسلمين في إسلامهم بالذات ، وانحصرت سياسته في توجيه الفكر الإسلامي ذاته نحو تحقيق

---

(١) محمد ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط في التاريخ الحديث ، مرجع سابق ، ص ١٤٢ .

(2) A History of Muslim Philosophy, with short accounts of other disciplines and the Modern Renaizzanve in Moslim Lands, Edited and introduced by:M.M. Sharif, No 1, Two. OTTO Harroswitz. Wiesbaden, P. 1482

هذه العاية ، إلا أن هدا التوجيه شر ـ فعل مباشر له ـ جوبه بتيار مقاوم يعترض طريقه ٠

وبذا يكون الاستعمار الغربى – دون أن يدرى – بسياسته ، قد ولد أمامنا اتجاهين متضادين ، على النحو التالى[1] :

(أ) الاتجاه الأول :

اتجاه ممالئ للاستعمار ، يتمثل التوجيه الاستعمارى لإضعاف المسلمين ودحر الإسلام ٠ وقد برز هذا الاتجاه فى تيارين :

التيار الأول :

قيام بعض مفكرى الإسلام بحركة تقدمية فى الإسلام ، تبغى تقرير سلطة المستعمر وتثبيت ولايته على المسلمين ، بسند من وجهة النظر الإسلامية بما يؤدى إلى عدم تحديه ومعارضته ، سواء فى مباشرة سلطاته على المسلمين ، أو إدخاله ما يسميه بنظم الإصلاح الحديثة بينهم ٠

ويمثل هذا التيار : حركة السيد أحمد خان بالهند ، وما تفرع عنها من القاديانية ، ثم الأحمدية ٠

التيار الثانى :

يهدف إلى إبراز الخلافات المذهبية ، والفجوات بين طوائف المسلمين وشعوبهم من الوجهة الشعوبية أو الجغرافية أو السياسية (نظم الحكم) ، مع القيام بعرض الإسلام وشرح مبادئه بصورة مشوهة تنحرف بها عن أهدافها الأصلية ٠ وقد قام بتلك المهمة خير قيام بعض من المستشرقين ٠

(ب) الاتجاه الثانى :

اتجاه إسلامى فكرى مقاوم للاستعمار الغربى ، كرد فعل عاجل مباشرة ، فى مظهره السياسى ، وفيما يستبطنه من عداء للإسلام ومحاولة إضعافه ، وما كان

---

(1) د٠ محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ٠ ط٦، دار الفكر – بيروت ١٩٧٣ ، ص ص ٣٥ – ٣٦ ٠

من توجيهه للفكر الإسلامى نفسه ، عن طريق بعض مفكرى المسلمين ، لتحقيق غايته ، كما رأينا على النحو السابق •

ولقد كان هذا الاتجاه وليد العصر بإرهاصاته وظروفه آلتي كانت تحتم ظهور هذا الاتجاه بممثليه • كان الشرق الإسلامى فى ذلك الوقت يرزح تحت نير شعورين قويين فى وقت واحد •

أما أولهما : فهو الشعور بالانحطاط الداخلى سياسياً ، وعلمياً • حقيقة أن الدولة العثمانية قد ظلت باقية فى هذا القرن ، إلآ أن فضل بقائها إنما يرجع إلى صراع الدول الأوروبية فيهما بينها من أجل تحقيق أطماعها فى انتزاعها ، وبرغم بقائها إلا أنها قد بقيت كما هى " الرجل المريض " الذى لا يرجى له شفاء، لأن أعداءها من دول اوروبا قد عملوا على بقائها مريضة ، وذلك بشغلها بحروبهم المتوالية ، وبإثارة الفتن الداخلية فى أرجائها ، مستغلين فى ذلك ما حصلوا عليه من امتيازات فى بلادها خلال القرون السابقة ، تلك الامتيازات آلتي تمكنوا بها من استمالة بعض أهلها إليهم ، ممن كان لهم موقف يزيد من سقم الرجل المريض ، ولا سيما الطوائف المسيحية بموالاتهم لأوروبا ، وهو موقف لا نجد له تفسيراً مقنعاً ، فالبعض [1] يلتمس العذر لهذه الطوائف فى أنها كانت مرتعاً لدسائس الأوروبيين ، فكانوا يستغلونها بأسم الدين ، بينما هى تجهل إنهم مستعمرون سياسيون يريدون إعادة استعباد اليونان والرومان لبلادهم ، غير مفرقين فى إستعبادهم لها بين مسلم ومسيحى من أبناء تلك البلاد• فالعذر هنا ملتمس لتلك الطوائف بأسم الدين •

إلا أن بعض الدارسين المتخصصين يوردون رأيا آخر [2] ، فيرى أن معاهدة برلين آلتي أنهت أزمة ١٨٧٥-١٨٧٨م ، أظهرت أن الامبراطورية العثمانية لم تعد ممسكة بزمام مصيرها ومصير كل ولاياتها • وقد جاء الاحتلال

---

(١) مثل : عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٤٤٦ •

2) Houran Abbert, Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939, Oxford University Parss, 1967, P 103.

الفرنسي لتونس سنة ١٨٨١م ، والانجليزي لمصر سنة ١٨٨٢م ، ليكشف عما خفي من حقيقة ذلك الواقع المر • " وبذا تحول الفكر السياسي للشرق الأدنى ، منذ ذلك الوقت ، تحولاً جذرياً • نعم ، كانت حسنات الوجود الأوروبي ، في نظر بعض نصارى الشرق الأدنى ، تفوق سيئاته • إذ لم تكن السيطرة الأوروبية لتتعارض مع نظريتهم العامة في الحياة ، ناهيك بما علقوا على هذه السيطرة من آمال النفوذ والثقافة لطوائفهم والفلاح لأنفسهم •"

فالعذر هنا يرجع إلى توحد وجهة النظر بين هذه الطوائف وبين أوروبا ، بالإضافة إلى أطماعهم الشخصية التي يعولون على أوروبا في تحقيقها •

وبقدر هذا الانحطاط السياسي ، انحط العلم بين المسلمين في هذا القرن ، وصار علماً قديماً باقياً لا جدوى فيه ، ولا يناسب العصر الحديث ، بعد أن مضى عليه قرنان ودخل في الثالث ، ومع هذا ظل جامداً كما هو لجمود أهله عليه جموداً شديداً ، حتى أنهم كانوا لا يعرفون غيره علماً ، وكان أهل الأزهر يؤمنون بهذا القول المشهور (لا علم إلا أزهري) (١) ، فالعلم هو علم الأزهر فقط ، ولا تمتاز علينا أوروبا إلا بالصناعة فقط •

أما الشعور الثاني : فقد نجم عن الأول ، وهو الشعور بالخطر الداخلي أولاً ، والذي يتمثل في الانحطاط الداخلي بنوعيه – والذي يمهد للخطر الخارجي ثانياً – والمتمثل في الاستعمار الأوروبي • فلقد صارت الدولة العلية كلها تحت حماية انجلترا • أكثر من هذا كانت روح الانبهار والإعجاب بالمستعمرين تسري بين الشعوب الإسلامية ، وظهرت دعوة قوية إلى اتباع الغربيين (٢) •

ومن ثم كان على المسلمين الدفاع عن أرضهم ضد المستعمر ، وعن عقيدتهم ضد الغزو الفكري الأجنبي • ولذا نشأت الحاجة إلى تطويع التراث وابتداع أساليب جديدة للحياة للتغلب على ضعفهم الذي كشفه الاستعمار الغربي •

---

(١) الصعيدي : المجددون في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٤٤٩ •

(٢) محمد ضياء الدين الريس : الشرق الاوسط في التاريخ الحديث ، مرجع سابق، ص ١٤١ •

كانت قضية الانحطاط الداخلي قد شغلت عقول المسلمين دوما ، أما الآن فقد اقترنت بها قضية جديدة هى قضية البقاء ، المطروحة على الشكل الآتى :

كيف يمكن للدول الإسلامية مقاومة الخطر الخارجى الجديد ؟ (١)

عندما أيقن المسلمون فى هذا القرن بأن ما حل بهم من النكبات هو بسبب تقدم أوروبا عليهم فى علومها وأنظمتها الحديثة ، رأى الذين شعروا منهم بالخطر المحدق بهم ، أنه لابد لهم من تقليد أوروبا فى علومها وأنظمتها آلتي نهضت بها، وهذه الأنظمة بعضها يرجع الى نظام الحكم ، وبعضها يرجع إلى نظام الحرب ، وبعضها يرجع الى غير ذلك من الأنظمة (٢) .

أما الذين لم يشعروا بهذا الخطر ، فلم يذهبوا إلى تقليد أوروبا فيما جد عندها من علم وأنظمة ، بل رأوا أن الخطر الحقيقى إنما يكمن فى تقليد أوروبا ، لأن هذا التقليد يؤدى إلى ضياع الدين والدولة ، ويصير بالأمة الإسلامية إلى حالة التبعية لأوروبا .

ومن هنا برزت من جديد الدعوة إلى التجديد ، فلقد كان المسلمون بحاجة الى مجددين آخرين ، بخلاف السابقين يدركون مدى ما وصلت اليه أوروبا فى مدنيتها المتقدمة ، ومقدار حاجة المسلمين إلى اللحاق بها ، بعد اتساع الشقة بينها وبينهم .

وقد حفل هذا القرن بالمجددين وبدعواتهم ، لأنه امتاز على غيره من القرون السابقة ، بكثرة من تنبه فيه من المسلمين إلى تأخر المسلمين عن غيرهم، وإلى ضرورة السعى لإصلاحهم (٣) :

هؤلاء المجددين فى هذا القرن ، الثالث عشر الهجرى = التاسع عشر الميلادى ، منهم مجددون مدنيون مثل : السيد أحمد خان ، ومدحت باشا ، وخير الدين التونسى ، ومنهم مجددون من المتفقهة والمتصوفة : كالشوكاني اليمنى ،

---

(1) Hourani, Albert Arabic Thought Op. Cit., P. 104

(٢) عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام ، مرجع سابق ص ٤٥٩

(٣) نفس المرجع ، ص ٤٧٠ .

والقاضي الأنصاري ... وغيرهم ممن تأثروا بنزعة ابن تيمية في التجديد، ومجددون مثل : محمد بن علي السنوسي ، والأمير عبد القادر الجزائري ، وهما من المتصوفة .

ومنهم مجددون جمعوا بين التفقه في الدين والدنيا ، وسعوا في الإصلاح الديني والمدني ، مثل جمال الدين ، ومحمد عبده . وفي نفس هذا القرن ظهر ميرزا علي ، المعروف بالباب ، وتبعه في دعواه طائفتا البابية والبهائية [1] .

وهكذا تزامن الانحطاط الداخلي سياسياً وعلمياً ، مع خطر الاستعمار الخارجي وما أتى به من ألوان الغزو الفكري الأوروبي ، وظهرت دعوة قوية إلى اتباع الغربيين ، وكان هناك عاملان على رأس هذه الدعوة ، هما السلطان عبد الحميد في تركيا ، والخديو إسماعيل في مصر .

وكانت رسالة جمال الدين هي منع الشعوب من الوقوع في هذا الشرك[2].

السيرة :

من المعتاد لدى الباحثين عند تناول سيرة المفكرين الذين هم بصدد دراستهم، ان يمروا سريعاً على ذلك الجزء من الدراسة باعتباره من الأمور التي ليست لها أهمية كبيرة في تحديد المسار الفكري للشخصية موضع الدراسة . فهذا المسار يعتمد في تحديده على دراسة التطور الفكري ذاته .

ومن المعتاد أيضاً ألا يثير الجزء الخاص بالسيرة في أية دراسة ، أية مشكلات علمية ، لأنه يتعلق بحقائق تقريرية غير مختلف عليها .

غير أن الأمر في حالة السيد جمال الدين يختلف . فبالرغم من أننا هنا إزاء شخصية تاريخية بارزة ، ومن المفترض الا يثير أمر سيرتها جدلاً ، الا اننا نجد على العكس من ذلك ، أن دارسي جمال الدين - عرباً وغير عرب - قد اختلفوا إزاء حقيقة نسبة إلى فريقين ..

---

(١) الصعيدي : المجددون في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٤٧١ .

(٢) محمد ضياء الدين الريس : الشرق الاوسط في التاريخ الحديث ، مرجع سابق ص١٤١

فريق يرى أنه ينتسب إلى أفغانستان ، والآخر يدافع عن انتسابه الى إيران .

ونلاحظ هنا أن أغلب الدارسين يقرر انتسابه لبلاد الأفغان ، أو لإيران ، ولا يتوقف كثيراً لبيان الدوافع آلتي حدت به الى ترجيح احدى وجهتى النظر على الآخرى ، او لايذكر شيئا بالمرة عن الطبيعة الخلافية للمسألة .

ونحن لا نزعم أننا توصلنا إلى حسم المشكلة ، وإنما نعرض الحجج المتعارضة بصددها ، مفترضين أنها مسألة جديرة بالتحقيق ، ومختلفين فى هذا مع عديد من الدارسين الذين يغفلون أهمية هذا الموضوع .

وأهمية الموضوع من وجهة نظرنا تتلخص فى أن الباحثين استندوا فى تقييمهم لفكر جمال الدين ، ضمن ما استندوا إلى تحديد واضح لسيرته .

فيمكن القول على وجه الاجمال إن الدارسين الذين أبدوا وتعاطفوا مع أفكار جمال الدين ، قالوا بأنه أفغانى الأصل ، ولد فى قرية (أسعد آباد) من أعمال كابول ببلاد الأفغانستان ، وإنه سنى حنفى المذهب ، لأن القول بأفغانيته يجعله منتسباً إلى مذهب أهل السنة ، مما حدا بأحد المستشرين إلى نعته بانه كان سنياً وصوفياً فى آن معاً [1] . على حين أن الذين وقفوا موقف العداء من أفكار ومواقف جمال الدين قد قالوا بأنه إيرانى الأصل ، ومن ثم فهو شيعى المذهب ، وإن كان هذا لا يمنع من وجود دراسات تقرر الأصل الشيعى لجمال الدين ، دون ان تناصبه العداء [2] .

وكما قلنا فإنه ليس من همنا هنا أن نحسم الخلاف بين الفريقين لصالح أحدهما ، أو أن نوفق بينهما على نحو ما حاول البعض أن يفعل ، ويجعل من

---

1) Smith, W.C. Islam in Modern History, Princeton Univeresity Press,Primecton, New Jersey, 1957, P. 48 .

(٢) أنظر فى تفصيل هذا :

ميرزا لطف الله خان : جمال الدين الأسد آبادى المعروف بالافغانى : التعريف به وبآثاره . ترجمة الدكتور عبد النعيم محمد حسنين . ط١ ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٧٣ .

جمال الدين أفغانياً وايرانيا فى آن معا [١] . بل نكتفى بالقول بأن مسألة أصله لم تحسم بعد ، على نحو ما ذهبت اليه بعض الدراسات المعاصرة [٢] .

ففى حقيقة الأمر يمكن القول إن تقرير أى من الأصلين ، الأفغانى أو الايرانى ، لجمال الدين ، لا يلزم عنه ، بغض النظر عن بواعث أغلب دراسيه - أكثر من جلاء وجه الحقيقة ، إحقاقا لامانة البحث العلمى ونزاهته . ولا يلزم عن ذلك القول بأن جمال الدين كان سنياً أو شيعياً .

فالحق أن دراسة فكر الرجل - على نحو ما سوف يبين فى الفصول التالية لا تشير إلى شئ من هذا القبيل ، فجمال الدين كان فوق المذاهب والفرق .

وبالرغم من أن محمد عبده يقرر أن مذهبه - أى جمال الدين - كان (حنيفياً) ، إلا أنه انتهى به الأمر إلى أن أصبح مجتهداً لا يقلد مذهباً من المذاهب(٣) ويقرر الفرد بلنت أن جمال الدين " كان يوحى الشجاعة بجرأته وينقد المذاهب المسلم بها حتى مذهب أبى حنيفة ؛ فيقبل الناس نقده بما لم يمكن أن يتيسر لرجل غيره " (٤) .

فمنهج الباحث إذن هو بيان حجج القائلين بسنية جمال الدين ، والقائلين بشيعيته ، ثم - بالاستناد إلى أقواله - توضيح أنه لم يكن من جماعة أهل السنة، ولم يكن كذلك من أهل الشيعة ، ليكون ذلك بمثابة مدخل صحيح لدراسة فكر

---

(١) " ذهب شيخ إيرانى درس فى الأزهر إلى أن والد السيد جمال الدين كان إيرانيا وضابطا فى الجيش الإيرانى ، ثم رأت حكومته أن تبعث به فى بعثة رسمية إلى حدود بلاد الأفغان ، فأعجبته هذه البلاد ، فارتضاها مقاما له ، وينى بأن ... كرائم الامر فيها ورزق منها بالسيد جمال الدين " .

انظر محمود قاسم : جمال الدين الافغانى : حياته وفلسفته . مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٠ .

2) Sharif, M M., "Ed". A History of Muslim Philosophy, Otto Harroswitz, Wiesbaden. Nolume Two, P. 1484.

(٣) محمود ابو رية : جمال الدين الافغانى ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧١، ص ٤٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

جمال الدين .

يمكن القول إن الرأى الشائع بخصوص سيرة السيد جمال الدين هو الرأى القائل بسنيته تأسيسا على انتمائه لبلاد الأفغان ، ولعل أبرز القائلين بهذا الرأى : عبد القادر المغربى ، الذى يذكر أنه كتب مقالاً فى : (جمال الدين ، أهو افغانى أم أيرانى) ، تتلخص حججه فى أن الشك فى أفغانية جمال الدين :" يورثنا الشك فى كثير من أخبار رجال التاريخ الأقدمين ونسبتهم ." [1] وأن لجمال الدين كتاباً في تاريخ الأفغان أسماه : (البيان فى تاريخ الأفغان) ، وهذا الكتاب حافل بمقاطع كثيرة " يستأنس بها على أن السيد كان افغانياً سنياً ، لا إيرانياً شيعياً ".[2] ويؤيد هذا الرأى الشيخ محمد عبده فى ترجمته لجمال الدين [3] ، اذ يقرر أنه ولد فى بلاد الأفغان فى قرية أسعد آباد " فى خطة " كنر " من أعمال كابل ببلاد الأفغان ، وأن مذهبه كان حنيفياً جنفياً ، وهو وإن لم يكن فى عقيدته مقلداً ، لكنه لم يخالف السنة الصحيحة .. [4]

---

(١) عبد القادر المغربى : جمال الدين الافغانى : ذكريات واحاديث ، ط٢ ، سلسلة أقرأ ، دار المعارف بمصر ، بدون تاريخ ، ص ٢٨ .

(٢) وينقل المغربى فقرة من الكتاب المذكور بعاليه تؤيد ما يقول : " وجميع الأفغانيين سنيون متذهبون بمذهب أبى حنيفة ، لا يتساهلون رجالاً ونساءً ، حضريين وبدويين فى الصلاة والصوم سوى طائفة (نورى) فانهم متوغلون فى التشيع ولهم محاربات شديدة مع جيرانهم السنيين ولا يبالون الصلاة والصوم ، وإنما يهتمون بأمر مأتم الحسين (رضى اله عنه) فى العشر الاول من محرم ويضربون ظهورهم واكتافهم مكشوفة بالسلاسل ." ويعقب المغربى قائلاً : إنه لو كان الافغانى إيرانيا لكانت لهجته فى التحدث عن سنية الأفغانيين وتشيع بعض طوائفهم غير هذه اللهجة . " نفس المرجع ، ص ١٩٢ .

(٣) أنظر : محمد عبده ، الشيخ : الثائر الإسلامى جمال الدين الأفغانى ، كتاب الهلال ، القاهرة ، اكتوبر ١٩٧١ .

(٤) نفس المرجع ، ص ص ١٧ - ٢٨ .

ويعزو الدكتور محمود قاسم الشك في أفغانية جمال الدين إلى الروح المذهبية التي سادت في الخلاف بين أهل السنة وأهل الشيعة [1] .

ومن الدارسين الذين يذهبون إلى الرأى نفسه ، من يذهب إلى آماد أبعد في تقييم فكر جمال الدين استناداً إلى تقرير حقيقة نسبه ، فيذهب الدكتور محمد عمارة إلى أن جمال الدين وإن كان قد ولد في بلاد الأفغان ، إلا أن نسبه يعود به إلى أصول عربية ، إذ يرتفع به النسب إلى السيد علي الترمذى ، ثم يرتقى إلى الإمام الحسين بن على ، رضى الله عنهما ، وهو النسب الذى لم يحفظ فقط لجمال الدين صورة العربى الأصيل من ناحية الشكل ، وإنما جعله فكراً وعملاً منتمياً ومنحازاً إلى جانب الحضارة العربية واللسان العربى بوصفهما أبرز ملامح الحضارة الإسلامية التي عاش لها وأعطاها من عقله وجهده الشئ الكثير[2] .

وسوف نرى أن مسألة الأصل العربى لجمال الدين تستخدم من ناحية أخرى لتدعم موقف القائلين بشيعيته . ومن المهم هنا أن نوضح أن الكتاب الذين قالوا بأفغانية جمال الدين [3] ، وقفوا جميعهم على اختلاف دوافعهم موقف المؤيد

---

(1) يذكر محمود قاسم أن السبب في الرواية القائلة بأن جمال الدين إيرانى ربما يرجع إلى ما ذكره (محمد حسن خان) الملقب باعتماد الدين في كتابه المعروف باسم (المآثر والآثار) من أن جمال الدين نشأ في قرية " أسد أباد " من أعمال إيران ، وأن له مقاماً عالياً في العلوم القديمة والحديثة يفتخر به أهل إيران .. ويرد الأمر في جملته إلى الرغبة في التفاخر بجمال الدين . أنظر :

محمود قاسم : جمال الدين الأفغانى ، مرجع سابق ، ص ص ٩ - ١١ .

راجع أيضاً : عبد القادر المغربى ، مرجع سابق ص ص : ٨٦ - ٨٨ .

(2) محمد عمارة : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ص ١١ - ١٣ .

(3) أنظر في تفصيل هذا الموقف ، علاوة على ما ذكرنا من دراسات ، : محمد المخزومي: خاطرات جمال الدين الافغانى الحسينى ، دار الفكر الحديث ، لبنان ط٢ ، ١٩٦٥، عباس محمود العقاد : على الأثير ، دار الفكر العربى بالقاهرة ، د . ت .

لأفكار جمال الدين بوصفه داعية لليقظة ومحارباً للاستعمار ، بل ودافعوا عن هذا لأنهم يعلمون أن الشك فى حقيقة نسب جمال الدين ربما يدفع الى الشك فى حقيقة دوافعه ٠

وثمة لفيف آخر من الباحثين [١] يستند إلى أدلة أخرى للقول بأن السيد جمال الدين كان إيرانيا ومن ثم شيعياً [٢] ولعل أوفى عرض لتلك الأدلة نجده فى تلك الدراسة التي قدم لها الدكتور عبد النعيم محمد حسنين للترجمة التي كتبها ابن أخت السيد جمال الدين عنه ، تلك الترجمة التي استند إليها بعض الباحثين مثل الدكتور محمد محمد حسين [٣] ٠

---

(١) أنظر فى تفصيل ذلك الدراسات الآتية :

ميرزا لطف الله خان : جمال الدين الأسد آبادى ، مرجع سابق ٠ محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، بيروت دار الفتح ، ط ٢ ، ١٩٧٣ ، كارل بركلمان : تاريخ الشعوب الأسلامية ، بيروت ، دار العلم للملايين ٠٠

Albert Howrani, Arabic Thought ......; Op. Cit.

محمد جبريل : هذه الأعمال الناقصة للأفغانى ، مقال فى مجلة الموقف العربى ، العدد ٢٠ ، ٢١ ، ديسمبر / يناير ١٩٧٩ ٠

فتحى الرملى : البركان الثائر ، دار الثقافة العامة بالقاهرة ، ط١، ١٩٦٦ ٠

(٢) غير أن هناك بعض الدارسين مثل : محمد صبيح ، يرى أنه إيرانى وسنى فى آن معاً ، فالسيد جمال الدين بالرغم من أنه من أبناء إيران " فضل ان ينتسب إلى بلد مجاور له فيه جهاد ٠٠٠، حتى لا يظن أحد أنه شيعى بنسبته إلى إيران ، وهو سنى ٠٠٠ " ٠

أنظر : فتحى الرملى : البركان الثائر ، مرجع سابق ، المقدمة ، ص ٨ ٠

(٣) فالدكتور محمد محمد حسين ، رأى شامل فيما يتعلق بسيرة واهداف جمال الدين ٠ وقد بسط هذا الرأى فى أهم دراساته ، وسنعرضه بتفصيل عند تقييم أفكار جمال الدين ٠ أنظر محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، مرجع سابق،ص ص ٧٥-٩٠

ومن ناحية أخرى يستند بعض الباحثين إلى دراسة مستفيضة ومهمة قامت بها باحثة أمريكية هي الدكتورة / نيكي كيدي بجامعة كاليفورنيا [1]، مما يذكـــر بصددها أنها تحتوى على معلومات تهز المتوارث مما كتبه المؤرخون عن السيد جمال الدين ، حيث ثبت أنه من مواليد إيران وليس افغانستان ، وأنـه كان شيعياً وليس سنياً ، وان لقب الحسيني الذى أضافه إلى اسمه ، أراد ان ينتسب بـه إلـــى آل البيت دون أن يرتكز فى ذلك الى الحقيقة •

وتتخلص حجج إيرانية جمال الدين ومن ثم شيعته فى وجود عائلة جمال الدين فى إيران ، وانعدام أى أثر لها فى افغانستان [2] ، وإن نشأته وأسلوب تحصيله يرجحان أنه شيعى إيرانى ، لا سنى أفغانى [3] • لأن ثقافة جمال الدين الفلسفية وتوسعه فى دراسة المنطق وعلم الكلام إلى جانب دراسة الفقه وعلم الأصول هى الدراسة الشيعية التقليدية ألتي تنمى ملكة الجدل وقوة الاستدلال • بينما تتبع الدراسة السنية طريقاً آخر يقوم على دراسة الفقه والأصول والحديث

---

(١) راجع على وجه الخصوص : فتحى الرملى : مرجع سابق ؛ ومحمد جبريل : مرجع سابق • والواقع أن الدكتورة كيدى كتبت كتابين عن جمال الدين ، ولكن المعنى هنا هو اولهما وهو:

Keddie, N.R., An Islamic Response to Imperialism, Political and Religious Writings of Sayyid Jamal ad-din " Al-Afghani," Berkeley and los Angeles University of Califorina Press, 1968 .

(٢) يذكر عبد النعيم حسنين أنه زار شخصياً أسد اباد القريبة من همدان بإيران وحتى تقطن عائلة جمال الدين فى حى من أحيائها يدعى " سيداء " ويرى بالإضافة إلى ذلك أن اسم والد جمال الدين (صفدر) أى ممزق الصفوف لا يوجد له مسمى فى افغانستان أو أى بلد سنى آخر ، فهو لا يوجد إلا بين الشيعة •

أنظر : ميرزا لطف الله خان ، مرجع سابق ، المقدمة ، ص ص ١١ - ١٤ •

(٣) ويؤيد حورانى هذه الفكرة عندما يذكر أنه يمكن الاستدلال على ذلك من مؤلفات جمال الدين وخطبه ألتي تنم عن معرفة أكيدة بتراث الفلسفة الإسلامية ، لا سيما فلسفة ابن سينا ألتي بقيت تعاليمها حية فى المدارس الشيعية بأكثر مما بقيت حية فى مدارس الإسلام السنى •

أنظر : Hourani, A., Arabic Thought., Op. Cit. P. 10

والتفسير واللغة والأدب " ، (١) وإن جمال الدين اهتم بـإيران مركـزاً رئيسـياً للجامعة الإسلامية وكان يتحدث الفارسية باللهجة الإيرانية ، وكان أسـلوب كتابتـه بالفارسية أسلوباً إيرانياً خالصاً (٢) .

وكل هذا يدل على انتمائه لايران .

ولكن لماذا انتسب جمال الدين إلى أفغانستان دون غيرها من البلاد ؟ يجيب كارل بركلمان عن هذا السؤال بقوله إن جمال الدين آثر لأسباب سياسية أن ينسب نفسه إلى أفغانستان ، البلاد آلتي قضى فيها شبابه (٣) ويزيد الدكتور عبد النعيم حسنين الإجابة تفصيلاً بقوله إن الظروف يسرت لجمال الدين الانتساب إلى الافغان ، حيث رحل إلى افغانستان فى بداية تجواله فى العالم الاسلامى ، ولقب أثناء إقامته فى هذه البلاد بالإفغانى ، وقد وجد جمال الدين أن انتسابه إلى أفغانستان ييسر مهمته فى دول العالم الإسلامى السنية ، حيث يدخل إليها بصفته عالماً سنياً، أنه كان يكفى أن يعرف الناس فى العالم الإسلامى السنى أن جمال الدين إيرانى شيعى ، فلا يلتفت إليه أحد . بل لقد حقق له انتسابه إلى الأفغان نفعاً آخر إذ جعله بعيداً عن متناول ممثلى إيران فى الخارج (٤) .

وكان من السهل أن تروج أفغانيته بين الناس فى البلاد آلتي نزلها ، لأن افغانستان لم يكن لها تمثيل دبلوماسى خارجى فى ذلك الوقت ، وكان للإنجليز نفوذ كبير فيها وكان يرعون اتباعها فى الخارج (٥) .

---

(١) محمد محمد حسين : مرجع سابق ، ص ٧٧ .

(٢) يورد عبد النعيم حسنين عدة شواهد من حياة جمال الدين تدلل على ما يقول ، مثل دوره المتكرر فى تحريك الأحداث الايرانية (الغاء امتياز التبغ – حادث اغتيال الشاه ناصر الدين)

(٣) كارل بركلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، الترجمة العربية ، ط٤ ، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٦١٧ .

(٤) ولم يكن يعتمد على إيران فى صيانة حقوقه ورعاية شئونه ، لعدم ثقته فى حمايتها لرعاياها فى الخارج .

راجع الملحقات فى : ميرزا لطف الله خان : مرجع سابق ص ص ١٥٩ – ١٦٠

(٥) محمد محمد حسين : مرجع سابق ، ص ٧٧ .

من هذا العرض يتضح لنا أن شقة الخلاف بين الفريقين متسعة ، وأن مسألة السيرة أصبحت تتخذ مدخلاً لترجيح وجهة نظر أو أخرى بخصوص فكر جمال الدين كما رأينا عند بعض الباحثين الذين يربطون بين نسب جمال الدين الأفغانى وميله للعرب (١) . أو الذين يستدلون بنسبه نفسه على ايرانيته ومن ثم شيعيته(٢).

ويهمنا هنا ان نوضح أن جمال الدين نفسه كان حريصاً على تأكيد انتمائه لأفغانستان ، غير أنه لم يكن يرى نفعاً لرواية سيرته (٣)

وحقيقة الأمر أيا كان الأمر فى القول فى أصل جمال الدين ، إيرانيا كان أم افغانياً ، إن جمال الدين بأفكاره وموافقة كان فوق الإنتساب لمذهب بعينه ، فلم

---

(١) انظر الصفحات السابقة من الدراسة ، خاصة ص ص ٣٩ - ٤٦

(٢) يقول عبد النعيم حسنين ، إن حرص جمال الدين على أن يوقع باسم (جمال الدين الحسينى) يرجح أنه شيعى ايرانى ، لأن لقب (الحسينى له معنى خاص عند الشيعة الإيرانيين لشدة تعلقهم بآل البيت ولا سيما الحسين بن على ، الذى كان جمال الدين يعد نفسه من نسله •

أنظر : ميرزا لطف الله خان : مرجع سابق ، ص ٣٦ •

(٣) فقد أجاب على سؤال محمد المخزومى له عن ترجمة حاله : " أى نفع لمن يذكر أننى ولدت سنة ١٢٥٤ هـ ، وعمرت أكثر من نصف عصر ، وأضطررت لترك بلادى " الأفغان " مضطربة تتلاعب بها الأهوال والأغراض ، وأكرهت على مبارحة الهند ، وأجبرت على الابتعاد عن مصر ، أو إن شئت قل نفيت منها ، ومن الآستانة ، ومن أكثر عواصم الأرض• كل هذه الاحوال - خاطرات - لا تسرنى وليس فيها أدنى فائدة للقوم " •

أنظر : محمد المخزومى : خاطرات ••• ، مرجع سابق ، ص ٥ •

وقارن : ميرزا لطف الله خان : مرجع سابق ، ص ٢٦ •

حيث قرر عبد النعيم حسنين ، أن السلطان عبد الحميد تأكد أن جمال الدين ايرانى شيعى بعد أن وصلته عريضة من أهل أسد أباد بهمدان تؤكد هذه الحقيقة ، وأن جمال الدين لم يستطع أن ينفى عن نفسه ذلك ، ولو كان افغانياً حقيقة لسارع بتكذيب ما جاء فى العريضة •

نعثر له على ما يدل على تمذهبه بمذهب أهل السنة ، أو مذهب أهل الشيعـــــة ، وإنما عثرنا على دعوته إلى التقريب بين هذين المذهبين ، فقرر جمال الدين أن الخلاف بين المذاهب هو أمر سهل وجوده جهل الأمة وسفه الملوك الطامعين فـى توسيع ممالكهم ، وأن التمسك بقضايا خلافية مضى أمرهـا وانقضـى مـع أمـه قد خلت ، ليس فيها إلا محض الضرر وتفكيك عرى الوحدة الاسلامية (١) .

فجمال الدين إذن كان حريصاً على الدعوة إلى تجاوز الخلافات المذهبية ، وحدث أن سأله أحد علماء السنة : ما عقيدته ؟ فأجاب : إنى مسلم .

فسأله ثانية : من أى المذاهب أنت ؟ فأجاب إنى لم أعرف فى أئمة المذاهب شخصاً اعظم منى ، حتى أسلك طريقته .

ولما كرر عليه السؤال ، أجاب : انى اوافق بعضهم فـى أمر واخـالفهم فى امور (٢) .

خلاصة القول إن جمال الدين كانت له دعوة أخرى ، غير دعـوى التمذهب يختلف فيها مع أهل تلك المذاهب . فليـس من معنـى إذن لمحاولـة التدليل علـى سنيته أو شيعيته ، إذ أن المدخل الصحيح لدراسـة فكر جمـال الديـن هـو مدخل التجديد واعلاء شأن العقل فى فهم الاسلام .

---

(١) راجع مقالة جمال الدين بنصها فى : محمد باشا المخزومى : خاطرات ، مرجع سابق ، ص ص ١١٢ - ١١٤ .

(٢) انظر : الملحقات، فى : ميرزا لطف الله خان : مرجع سابق ، ص ص ١٩٧ - ١٩٨

الباب الأول

الفكر السياسي

لدى

جمال الدين

الفصل الأول

أسس دعوة جمال الدين وأهدافها

الوحدة ، والجامعة الإسلامية

- الجامعة الإسلامية
- مدخل

١ – جمال الدين والوحدة الإسلامية : آراء الباحثين

- الاتجاه الأول
- الاتجاه الثانى
- الاتجاه الثالث

- تعقيب على هذه الاتجاهات

٢ – آراء جمال الدين فى الوحدة الإسلامية ، وتمهيد للفكرة المحورية لديه

٣ – الفكرة المحورية لدى جمال الدين

- تمهيد
- نص ينشر لأول مرة
- العروة الوثقى
- الرد على " ارنست رينان "
- الخاطرات
- المقالة الفارسية
- خاتمــة

الجامعة الإسلامية

مدخـــل :

نود منذ البداية أن نوضح صعوبة طرق موضوع فكرة التكتل الإسلامى كما تبدت لجمال الدين ، إذ قد يبدو أن الأمر هين ، ميسـور التنـاول لكثرة ما تناولـه الكتاب ودبجوا فيه من صفحـات ، ولكن هـذا هـو عيـن الخطـأ الـذى نرمـى إلـى محاولة توضيحه فى بحثنا هـذا هـادفين - بقدر الإمكـان - إلـى جـلاء الغموض الذى يكتنف تلك الفكرة ، كما يكتنف العديد من أفكار جمال الدين ، بل يكتنفه هـو ذاته كما رأينا من سيرته • وقد أودت بنا المعاناة الطويلـة بيـن هـذا العدد الكبير من الأقلام آلتي تناولت هذه الفكرة - سواء لدى جمـال الديـن بصفـة خاصـة ، أم بصفة عامة - إلى تقدير مدى وعورة المسلك بينهـا جميعـاً ، خاصـةً إذا وضعنـا فى الاعتبار تباين المنطلق الأيديولوجى لتناول كلٍ منهم •

لهذا قامت الدراسة - وربما لأول مرة - بتحليل كافة الكتابات آلتي أطلعت عليها ، وتصنيفها فى اتجاهـات محـددة بـالذات ، لا نعنـى تصنيفهـا أيديولوجيـاً ، حتى لا نقذف بأنفسنا فى منعطفات فكرية نحن فى غنىً عنها الآن ، وإنما نعنـى تصنيفها بصدد موقفها تجاه فكرة التكتل الاسلامى لدى جمال الدين بـالذات ، من حيث تفسيرها •

إلا أنه لابد وأن يكون ثمة انطباع عام نكون قد خرجنا بـه مـن تلك الرحلـة الشاقة بين تلك الآراء المبعثرة بعيداً عن متناولنـا حينـاً ، والمتنـاثرة بيـن طيـات بحوث التاريخ ، والسياسة حيناً آخر •

لذلك عولت الدراسة على تحديد هذا الانطبـاع العـام الـذى تكـون لديهـا عن فكر جمال الدين بهذا الصدد أولاً ، ثم نعرج على التعرض لآراء الباحثين فى هذا الجانب كما تراءت لنا مصنفة فى اتجاهات تيسر عملية الإطلاع عليها ورصدهـا

كل في إطاره المحدد ، ثم نردف ذلك بتحديد فكرة جمال الدين كما تراءى لنا تفسير اتجاهه بصددها .

والواقع أن تفسيرنا هذا ربما كان متخفياً في ثنايا الطابع العام الذى حددناه لحديثنا عن هذا الأمر .. قلنا آنفا إننا نرمي إلى محاولة كشف الغموض الذى لا يكتنف فكر جمال الدين بشأن فكرة الاتحاد الإسلامي فحسب ، بل وكل افكاره ، بل وهو ذاته بدءاً من سيرته ..وهذا يؤدى بنا إلى أول سمة من السمات الفكرية للرجل وهى سمة الغموض .. أما عن السمة الثانية وهى التناقض ، فإنك لملاقيها أينما جلت ببصرت في حياة الرجل وفكره ، فتكاد الفكرة العامة عن جمال الدين أنه قد لا تكون له فلسفة متكاملة مترابطة ، بل قد تكون بعض أفكاره متناقضة مع بعضها الآخر [1] ، وأما بشأن موضوع بحثنا الحالى فيوصف فكره بعدم الوضوح في العلاقة ما بين (الجامعة الإسلامية) و (الوحدة الإسلامية) وما بين (القومية) وتكوين المجتمعات على أساس قومى حديث ، ومن ثم جاء فكره حاوياً لكثير من التعبيرات والأحكام التي تبدو متناقضة بعضها البعض الآخر ، غير منسجمة في سلك واحد ، ولا هي صادرة من منطلق فكرى كامل الحسم والوضوح [2] ، ومن ثم جاء فكره متسماً بالازدواج والخلط [3] .

والسمة الثالثة في الإطار الفكرى لجمال الدين ، هى موقع الدين لديه ، فالدين عنده لم يكن غاية ، بل كان وسيلة ، فلم يكن اهتمامه بالآسلام كعقيدة لذاته، وانما انصب اهتمامه على استغلال سطوته ونفوذه الروحى لدى الأفراد.

---

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى : أفكار جمال الدين الأفغاني السياسية (دراسة) فى " المجلة التاريخية المصرية " ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان التاسع والعاشر ، ١٩٦٠ - ١٩٦٢ ، ص ٢٣١ .

(٢) محمد عمارة : الأعمال الكاملة للأفغاني ، ج١ : الله .. والعالم .. والإنسان ، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩، ص:٧٢ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

فالرجل لم يكن يستخدم الآمر الدينى إلا فى نطاق الإطار الشرقى بمفهومه السياسى ، ولخدمة هذا الإطار •

ويتضح هذا أكثر عند كلامنا عن فكره السياسى والقومى الذى هولب دعواه وعقيدته • وربما ثار اعتراض على هذا المفهوم لموقع الدين فى فكر جمال الدين، يسانده هذا الركام من نصوص الرجل ومقالاته فى التعرض للدين وأهميته، إلا أننا نبادر بالرد على هذا الاعتراض مقدماً ، مؤكدين على ملاحظتين، •••

أولهما : إن الفكرة القومية هى لحمة فكر الرجل وسداه •

وعلى الرغم من أن ثمة تيارا معارضاً لذلك ممن يسلكون الرجل فى سلك الداعين للجامعة الإسلامية بالمفهوم الدينى ، بل وينسبون له الدعوة إلى وحدة العالم الإسلامى فى ظل دولة إسلامية واحدة ، وبذا يتصدرون به رأس القائمة المعارضة للتيار القومى •• يقابل هذا من ناحية أخرى تيار معارض لذلك ، معتبراً جمال الدين من الدعاة القوميين ، زاعماً أن فكر الرجل فى الفترة الأولى شابه ازدواج الفكرة القومية بالآمر الدينى ، ثم نضج فكره القومى بعدئذ فظهر جلياً لديه وبذا يضعونه على رأس قائمة رواد الفكر القومى العربى ••

إلا أننا نعتقد أن كلا الرأيين فيه من الصحة فقط بقدر وجود تلك النصوص المقتطعة من سياق مقالاته وأحاديثه ، كل خدمة لدعواه •

على ان كلتا الدعوتين قد شابهما القصور عن معاناة تتبع فكر الرجل بعناية وتروى ، ومن هنا كان التسرع فى عرض فكره ، كل من وجهة نظره •

وهذا ما حاولت الدراسة أن تتلافاه واضعة نصب أعينها أن يكون حسم هذا الأمر فى تتبع التطور الفكرى للرجل من بدايته لنهايته فى سياق فكرى واحد ، يقوى حيناً ويضعف حيناً ، إلا أنه بمثابة الخيط الفكرى الواحد الذى ينتظم فكر الرجل بأجمعه حيال فكرة التكتل الإسلامى ، مبرزين بقدر ما أتاحته لنا

المصادر، والمقدرة التحليلية ، أن الرجل لم يسبح إلا فى التيار القومى منذ البداية وحتى النهاية ٠

الملحوظة الثانية : إننا نتفق مع المعترضين على أساس تبدى الأمر الدينى لدى الرجل ، ولكن مع تحفظ مهم إلا وهو تحديد الباعث لاعتماد الرجل على هذا الأمر فى تلك الفترة من فكره ٠٠

ونعتقد أن الدافع لذلك هو حالة العالم الإسلامى فى تلك الآونة وما كانت تصطبغ به الأمور من صبغة دينية قوية لم يكن ثمة من يجرؤ على التصدى لها دونما مجازفة ٠

ويوضح الدكتور / محمد محمد حسين [١] تغلب النزعة الإسلامية على العصبية الجنسية والرابطة القومية فى مصر حتى أوائل القرن العشرين بأكثر من دليل ٠ فالمصريون لا يجدون غضاضة فى الاعتراف بسلطة الخليفة التركى ٠ وإبان قيام عرابى بثورته لم يخطر بباله أن يخلع طاعة الخليفة أو يخرج عليها، فهو يعرض عليه خطواته ، مستمدا منه السلطة فى كل ما يفعل [٢] وبرنامج الحزب الوطنى الأول – كما جاء فى مقدمته آلتي وصفها المستر بلنت ، يعترف بسلطة الباب العالى وإن جلالة السلطان عبد الحميد هو مولاهم وخليفة الله فى الأرض وإمام المسلمين [٣] ، وقد كانت كل خطب العرابيين تدور حول الحرص على الدفاع عن الدين الإسلامى [٤] ، وتشير بعض الدراسات التاريخية إلى هذا أيضا متسائلة : مالذى دفع الشعوب الإسلامية فى تلك الفترة إلى التجمع تحت راية الخلافة العثمانية والتمسك بفكرة الجامعة الإسلامية ؟

---

(١) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط ٣، ١٩٧٢ ، ص ص : ١٧ – ١٩ ٠

(٢) مذكرات عرابى ، ١ : ص : ٧١ ، ٢٢٢ ٠

(٣) المرجع السابق ، ص : ١١٧ ٠

(٤) سليم نقاش : مصر للمصريين ،جـ٥،ص ص : ١٩٤ – ١٩٨ ٠

الجواب فى كلمة واحدة ... الدين (١) .

بل إن المسألة الشرقية ، وهى أحد أهم العوامل فى تاريخ تلك الفترة ، على الرغم من إنها قد مرت بمراحل متعددة إلا أنها فى تلك الفترة كانت ملونة بلون دينى يكاد يكون امتداداً للنزاع الصليبى فى العصور الوسطى ، وقد ساعد على تجمع الشعوب الإسلامية حول راية الخلافة العثمانية ما كان يبدو بوضوح من مطامع الدول الأوروبية فى هذه الشعوب جميعاً (٢) . فكانت روسيا لا تنقطع عن إثارة الفتن بين دول البلقان وتأليبهم على الحكم التركى ومدهم بالسلاح بدعوى التخلص من حكم المسلمين (٣) . وكانت العرائض تنهال على الملكة فيكتوريا طالبة انقاذ المسيحيين من مذابح المسلمين (٤) ، وكان جلاد ستون زعيم حزب الأحرار بانجلترا يلقى الخطب الرنانة ويؤلف الرسائل المطولة ، ناسباً إلى تركيا اضطهاد المسيحيين مشيراً إلى السلطان عبد الحميد بقوله " الشيطان " و " عدو المسيح" (٥) ، بل وبلغ الأمر من تعصب احد كتاب فرنسا أن اقترح حلاً للمسألة الإسلامية ، القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول الكريم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر فى باريس (٦) .

كانت هذه واحدة وأما الثانية فهى عمل جمال الدين بجريدة العروة الوثقى المنسوب تأسيسها إليه ، وهى على خلاف ما هو شائع .

---

(١) أنظر : خليل عبد الحميد عبد العال : دراسات فى تاريخ الدول الإسلامية الحديثة والمعاصرة ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ، ص ص ٧٣ - ٧٥ .

(٢) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

(٣) انظر فى تفصيل ذلك : عبد الحميد ظل الله على الأرض، ص ص ٧٢-٧٣
- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٤١،
- الأمير شكيب ارسلان : صداقة أربعين عاماً ، ص ٢٧٤ .

(٤) عبد الحميد ظل الله ، ص ٧٤ .

(٥) عبد الحميد ظل الله ، ص ٨٤ - تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٣٩

(٦) الشيخ رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ١ ، ص ٨٠١ .

فلقد كانت فى مصر جمعية وطنية تألفت من خيار القوم ، اسمها جمعية العروة الوثقى فكلفته - أى جمال الدين - بأن ينشئ جريدة تدعو المسلمين إلى الوحدة الإسلامية تحت لواء الخلافة العظمى ، وكلف صديقه " محمد عبده " أن يقوم على تحريرها ففعل [١] وبذا نشأت الجريدة ، والمهم فيما نحن بصدده ، أنه من المعروف أنه كان وراء الجريدة جمعية سرية منبثة فى جميع الأقطار الإسلامية ، وضع لها يمين يقسمها كل من يدخل فيها ويتعهد بأن يبذل ما فى وسعه لاحياء الأخوة الإسلامية وانزالها منزلة البنوة والابوة الصحيحتين ، وألا يقدم إلا ما قدمه الدين وألا يؤخر إلا ما يؤخره الدين ، ولا يسعى قدماً واحدة يتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان او كلياً ، وأن يطلب الوسائل لتقوية الإسلام عقلاً وقدرة ، وأن يوسع معرفته بالعالم الإسلامى من كل نواحيه بقدر ما يستطيع [٢] .

وواضح فى هذا القسم موقع الدين كركيزة أساسية . فمن كل هذا كان لابد أن يعمد الرجل إلى اللجوء للدين كقوة جذب لا يستهان بها فى تلك الآونة كما رأينا .

---

(١) محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى ، مرجع سابق ، ص ٢٤ .

(٢) انظر : أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، ط١ ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٩ ، ص : ٨٠ .

- أحمد عبد الرحيم مصطفى : أفكار جمال الدين الأفغانى السياسية ، مرجع سابق ،: ٢٢٤

يقول " جب " Gibb مما نلاحظه أن دعوة جمال الدين إلى الجامعة الإسلامية متعددة الجوانب متشعبة النواحي" . [1] وربما كان في مضمون تلك العبارة ما يوجز مدى انطباق السمات الفكرية العامة التي حددناها سابقاً لفكر جمال الدين ، وبالتالي ما يبرر تعدد التفسيرات لفكر جمال الدين إزاء موضوع التكتل الإسلامي .

فإننا لنجد أنفسنا بعد تحليل وتصنيف هذا الكم الهائل من دراسات تعرضت لجمال الدين ومحاولة تأويل فكرة الاتحاد لديه ، إزاء ثلاثة اتجاهات رئيسية تفرعت عن فكرة جمال الدين هذه :

(١) الاتجاه الأول :

اتجاه أسلامي ، ويعد من الآراء الشائعة في محافل الفكر والأدب في مختلف الأقطار العربية ، بل وبعض الأقطار الغربية ، ولا يكتفي هذا الاتجاه بالذهاب إلى أن جمال الدين قد دعا إلى جامعة إسلامية ، بل وأكثر من ذلك بدعوى أنه فوق ذلك قد دعا لدولة اسلامية واحدة ، تنتظم في لوائها كافة الدول الإسلامية .

كتب جرجي زيدان في أوائل هذا القرن ، يقول عن جمال الدين :

" يؤخذ من مجمل أقواله ، أن الغرض الذي كانت تصبو نحوه أعماله ، والمحور الذي كانت تدور عليه آماله ، توحيد كلمة الإسلام ، وجمع شتات المسلمين في سائر أقطار العالم في حوزة دولة واحدة إسلامية تحت ظل الخلافة العظمى " [2] .

---

1) Gibb, H. A. R.; Modern Trends in Islam, Chicago, 1947, P. 30 .

(٢) جرجي زيدان : مشاهير الشرق ، دار الهلال ، د ت جـ٢ ص ٦١ .

وفى النصف الثانى من هذا القرن ، يطالعنا الدكتور عبد اللطيف حمزة استاذ الصحافة بجامعة القاهرة – بمقال تحت عنوان " الجامعة الإسلامية والجامعة العربية " يقول فيه عن جمال الدين : " اقترنت فكرة الجامعة الإسلامية بظهور جمال الدين الأفغانى ، الذى يقول المؤرخون إنه جاء يبشر بدولة إسلامية عريقة فى ظل خلافة عثمانية " (١) .

وخلال نصف القرن الذى مضى بين كتاب جرجى زيدان وبين مقالة الدكتور عبد اللطيف حمزة ، بل وبعد ذلك وحتى اليوم ، نشرت مئات ومئات من الكتب والمقالات ، آلتي تكرر وتردد هذه الرواية بشتى المناسبات ، ومختلف العبارات .

ففى رأى الدكتور أحمد أمين ، أن غرض جمال الدين فى الحياة كان إنهاض الدول الإسلامية من ضعفها ، وتبصرة شعوبها بحقوقها وربط هذه الدول كلها برباط واحد مع الخلافة فى الأستانة (٢) .

ويرى الدكتور محمد البهى ، أن حركة جمال الدين حركة إسلامية ، وإن سماها البعض شرقية (٣) .

ولا تخلو الكتابات الأوروبية من مثل هذه الدعوة ، فيؤيدها عديد من كبار مفكريهم المهتمين بالمسألة الإسلامية والعربية ، من أمثال تشارلز آدامز (٤) ، وكانتويل سميث (٥) ، وبراون (٦) ، ولوثروب ستودارد (٧) ، وجولدزيهر الذى يقرر صراحة إن جمال الدين بقلمه ولسانه كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة الإسلامية .

---

(١) جريدة الأهرام فى ٣١/٥/١٩٥٦ .

(٢) أحمد أمين : زعماء الإصلاح ، مرجع سابق ، ص ص٢٩١-٢٩٣ .

(٣) محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث ، مرجع سابق ، ص ٨٢ .

(4) C.C. Adams., : Islam and Modernism in Egypt, London 1933, P.P.14-15

(5) W. C. Smith., : Islam in Modern History, P. 48.

(6) Browne, E.G., The Persian Revolution. Cambridge, 191 Op. 8.

(٧) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، تعريب عجاج نويهض ، وتعليق الأمير شكيب أرسلان ، مصر ، ١٩٢٥، جـ١، ص ص١٣٧-١٣٨ .

الاتجاه الثانـــى :

أما الاتجاه الثانى فيرى أن السيد جمال الدين دعا لجامعة شرقية وليس لجامعة اسلامية .. فجمال الدين كان رائداً للحركة آلتي ترمى إلى تحقيق ما يمكن تسميته " الجامعة الشرقية " (١) .

فهو قد رأى فى الشرق تخلفاً ناشئاً عن ضعف الإرادة وانحلال القومية وتفرق الكلمة والاستسلام للخمول ، بينما رأى فى الغرب - فى ذات الوقت - تقدماً مادياً عقلياً ، وروح تعصب على الشرق ، وعدواناً على بلاده ، وسعياً إلى إذلال شعوبه ، بحجة عجز الشرق عن أن يكون قواماً على شئون نفسه ، فسعى سعياً حثيثاً الى جمع شتات الشرق ، وتوحيد كلمتهم ، وإيقاظ هممهم ، للذود عن كيانهم ، والخلاص من الخطر المحدق بهم .

وعلى ذلك كانت دعوته هى تحقيق " الجامعة الشرقية " لتقف أمام تكتل نصف الكرة الغربى ، وتحرشه بالنصف الشرقى ، والتحفز للانقضاض عليه كالاخطبوط الذى يمد له الف ذراع من الدسائل والمناورات ، فى الهند ، كما فى مصر ، كما فى أفغانستان وايران (٢) .

وقد رأى السبيل إلى ذلك أن يسعى كل ملك أو أمير فى الشرق إلى ترقية شعبه ، وتحصينه بالحكم الدستورى ، ووقفه على أسرار التقدم الغربى ، وتقويته للتحالف على الاتحاد مع الأمم الشرقية الأخرى ، لتلتقى جهود الجميع عند الغرض المشترك ، وهو التحرر السياسى .

ومن المؤيدين من ينحون بهذا الاتجاه نحواً آخر ، فيذهبون إلى أن جمال الدين قد قام أولاً باثبات حرية الفرد فى النضال وتحرره من قيود النظم السياسية

---

(١) عثمان امين : رواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى ، المكتبة الثقافية (٤٦) ، دار القلم بالقاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٣٣ .

(٢) فتحى الرملى : البركان الثائر ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

والعقائد الدينية ، ثم دعا بعد ذلك لتحرير الأرض [1] ولا يتم تحرير الأرض إلا بالكفاح المسلح [2] . وهنا يحصرون سعى جمال الدين لهذا الهدف فى ثلاث أطوار منتهياً إلى " الجامعة الشرقية " وهى نهاية المطاف ، فلا يتم الكفاح المسلح إلا بعد تحقيق الوحدة بين العرب أو بين المسلمين أو بين دول الشرق ، ويرضى الأفغانى فى النهاية بوحدة دول الشرق حتى لا تقوم الوحدة على تعصب للجنس أو الدين [3] .

وعلى أساس من " مقولة النضال " كركيزة ، يتم تأويل فكرة جمال الدين ، على أنها جامعة شرقية تحولت الآن إلى وحدة العالم الثالث !!؟!

فبعد مائة عام تصبح الجامعة الشرقية آلتي دعا إليها جمال الدين فى مواجهة دول الغرب وحدة النضال العالمى فى مواجهة الاستعمار العالمى ، خاصة وقد ظهرت دول العالم الثالث آلتي لا تنتسب إلى الشرق أو الى الغرب والتى تجسد وحدة هذا النضال العالمى [4] .

وعلى ذلك يقرر أصحاب هذا الاتجاه ، عدم نسبة القول بالجامعة الإسلامية لجمال الدين وإثبات مناداته وسعيه لتحقيق الجامعة الشرقية ، فالزعم بأن " السيد " كان يسعى لاقامة " الجامعة الإسلامية زعم خاطئ - فى رأيهم - وإنما تولد هذا الزعم نتيجة اللبس في تتبع خطوته الواسعة العريضة ، فى كفاحه من أجل " الجامعة الشرقية " [5] . تلك الخطوات آلتي توالت فى مراحل ثلاث متتابعة ، تغيا السيد جمال الدين من خلالها تحرير الأرض بالكفاح المسلح الذى لا يتم الا بالوحدة بين العرب ، أو بين المسلمين أو بين دول الشرق . إلا أن السيد يرضى

---

(١) حسن حنفى حسنين : قضايا معاصرة ، ج١: فى فكرنا المعاصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص : ١٠٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص : ١٠٨ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٤) نفس المرجع ، ص ١١٠ .

(٥) فتحى الرملى ، مرجع سابق ، ص ١٨ - ١٩ .

فى النهاية بوحدة دول الشرق حتى يجتمع [illegible] على أساس من التعصب لجنس أو الدين [١] .

فلم تكن الجامعة آلتي ينشدها جمال الدين هى " الجامعة الإسلامية " كما خيل إلى بعض السياسيين الغربيين ، وإنما هى فى صحيحها " الجامعة الشرقية "[٢] ، وبذا كانت الدعوة إلى وحدة شرقية عامة ، تكفل لأمم الشرق سيادتها وحريتها ، هى خلاصة المذهب السياسى لجمال الدين ، الذى كان الهم الأكبر له هو الشرق [٣] .

(٣) الاتجاه الثالث :

وثمة أراء متعددة ، هى وإن ظهر التباين بينها للوهلة الأولى ، إلا أنه فى الواقع اختلاف فى الدرجة لا فى النوع ، أو هو اختلاف أبناء المعسكر الواحد، فجلهم ينضوون تحت لواء الإطار القومى فى التناول والتفسير ، لذلك عمدنا إلى جمعهم فى حوزة اتجاه واحد ... وأول ما يجابهنا هنا ، رأى منفرد ، ويكاد لا يمثله إلا شخص واحد ، لكن لا يعوزه الثقل والوزن فى الميدان السياسى والقومى ، هو المفكر العربى (ابو خلدون ساطع الحصرى) ، الذى يرى أن جمال الدين صاحب اتجاه قومى واضح انتهى إليه تفكيره آخر الأمر ، أما فيما يختص بالوحدة الإسلامية ففى رأيه أن مقالات العروة الوثقى – وهى آلتي يستند إليها جل المفكرين العارضين لفكر جمال الدين – يتبين منها أن كل ما يطلبه جمال الدين لا يتعدى حدود التعارف ، والتعاضد والاتفاق ، وتبادل السفراء[٤] .

وإننا نستطيع أن نؤكد أنه لا يوجد فى العروة الوثقى أى بحث يؤيد مزاعم

---

(١) حسن حنفى ، مرجع سابق ، ص ١٠٩ .

(٢) عثمان أمين ، مرجع سابق ، ص ٣٨

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٥ .

(٤) أبو خلدون ساطع الحصرى : ماهى القومية ، ط ١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ٢١٥ .

القائلين بأن جمال الدين كان يدعو إلى " توحيد البلاد الإسلامية تحت راية دولة واحدة " .

من وجهة نظر أخرى ، يبرز رأى آخر يؤل فكر السيد جمال الدين تأويلاً آخر ، فيرى فى فكرة " التضامن " هدفاً ومعنى فى ذات الوقت لفكرة الجامعة الإسلامية لديه .. ففى دراسة حديثة ومهمة له ، يأتى " حورانى " وهو واحد من أبرز المشتغلين بالمسألة العربية فى شقيها الفكرى والسياسى على الصعيد العالمى ، فيذهب إلى أن جمال الدين قد عمل على إعادة بناء الأمة. وكانت الدعوة إلى هذه الوحدة تكمن فى جميع ما كتبه السيد [١] ، فهو يهيب بالمسلمين، صداً للخطر المشترك المهدد لهم ، ودفاعاً عن القيم الخاصة بهم ، أن يسموا على الفروق فى العقيدة والخصومات التقليدية ، وأن لا يسمحوا للاختلافات الطائفية أن تقيم حواجز سياسية فيما بينهم ، حتى لقد راودته فكرة المصالحة العامة بين الطائفتين السنية والشيعية تمهيداً للوحدة بينهما [٢] .

وفى رأيه أن جمال الدين لم ير إمكان أو ضرورة فرض سيطرة احد الحكام المسلمين على الحكام الآخرين ، وليس من دليل على أنه يفكر بانشاء دولة إسلامية واحدة ، أو يبعث خلافة العصور الأولى الموحدة [٣] . وعندما كان جمال الدين يتحدث عن الوحدة الإسلامية ، لم يكن يعنى فقط التعاون بين الزعماء الدينيين والسياسيين ، بل كان يعنى أيضاً تضامن الأمة ، والشعور بالمسئولية لدى كل من أبنائها تجاه الآخرين وتجاه المجموع ، والرغبة فى العيش معا فى المجتمع الواحد والعمل معاً لخيره [٤] .

وهنا يبدو حورانى أعمق فهماً من فهم الحصرى ، بمقارنة كلامه هذا ، بتعليق الحصرى على أفكار جمال الدين عن الوحدة الإسلامية [٥] . إذ بينما يرى الحصرى أن فكرة الوحدة عند جمال الدين مؤداها مجرد الاتفاق وتبادل

---

(1) Hourani, Op. Cit., P. 115
(2) Ibid. P. 116 .
(3) Loc. Cit.
(4) Hourani, Op. Cit., P. 117 .

(٥) الحصرى ، مرجع سابق ، ص ص : ٢٠٩ - ٢١٧ .

السفارات، يرى حوراني أنها تعني تضامن الأمة ، فالتعصب بمعنى التضامن ، هو القوة ألتي تحافظ على وحدة المجتمع ، وهذه الوحدة إنما تتفكك بدونه [1] .
كما تؤكد إحدى الدراسات التاريخية الحديثة ، أن الجامعة الإسلامية إنما قامت على أساس التضامن الإسلامي [2] .

وباقتراب متزايد من الإطار القومي ، تنضم إحدى الدراسات إلى هذا الرأي مؤيدة فكرة التضامن كتفسير لمحتوى دعوة الوحدة الإسلامية لدى السيد جمال الدين [3] . فتذهب إلى أن العداء للاستعمار ، والنضال الذى لا هوادة فيه ضد الاستعمار الإنجليزى بالذات ، قد كان القسمة الأولى فى حياة جمال الدين ونشاطه وفكره ، وهذا العداء للاستعمار والكفاح المقدس ضده ، قد جعل جمال الدين يستخدم فى هذه المعركة أسلحة أساء البعض من الباحثين تقييمها والحكم على صلاحيتها ، وخاصة فى عصرنا هذا الذى نضج فيه الفكر القومي العربى ، وتأكدت فيه القسمة التقدمية وسط الحركة الفكرية في وطننا العربي الكبير .. وفى مقدمة هذه الأسلحة ألتي حارب بها جمال الدين الاستعمار الغربى ، والتى أسئ تفسيرها وتقييمها سلاح " الجامعة الإسلامية " .

والدراسة أميل للاعتقاد بأن جمال الدين قد ظلم ظلماً كبيراً من قبل كل الذين عابوا عليه استخدامه هذا السلاح فى حربه ضد الاستعمار ، كما أنه قد ظلم كذلك من قبل بعض الذين هللوا وكبروا لاستخدامه هذا السلاح .
أى أن الصواب قد جانب المؤيدين والرافضين على السواء ، ولكن على ضوء مفهوم محدد ، تحاكم اليه الدراسة تلك الآراء ، لتؤكد مفهومها هذا .. فهى ترى أن الذين هللوا وكبروا لرفع الافغانى علم الجامعة الإسلامية قد انطلقوا إلـــى

---

(1) Op. Cit. P. 118.

(2) خليل عبد العال ، مرجع سابق ، ص ٧٣

(3) محمد عمارة : ملف خاص عن الافغانى .. مفكرا ومناضلا ، مجلة الطليعة ، العدد ٤ ، ابريل ١٩٦٩ ، ص ص ١٢١ -١٤٨، وخاصة ص ص ١٢٦ - ١٣١ .

موقفهم هذا من فوق أرض فكرية تعادى الحركة القومية عموماً وحركة القومية العربية على وجه الخصوص ، وهم قد حسبوا أن السيد جمال الدين يظاهرهم فى محاولاتهم الفكرية الرامية إلى تقديم الأسلام من زواياه العالمية فقط ، متغافلين تلك الملامح القومية التي تبدى بها الإسلام منذ نشأته بين العرب ، والتى جعلت عالميته تمتزج بالواقع القومى لكل شعب من الشعوب التي دانت به ، بحيث لم تعد هناك حوائل بين أن يكون له جانب عالمي ولكنه يتبدى فى إطار قومى لدى كل قومية من القوميات ، بحيث تصبح هذه القوميات المتعددة التي يدين أصحابها بالاسلام أشبه ما تكون بالجزر وسط محيط من التضامن الأخوى الذى تحكمه العقيدة الإسلامية السمحة ، مما ينفى التناقض المدعى بين القومية وبين العقيدة الملية الإسلامية .

وتؤكد الدراسة بالإضافة الى ذلك ، على أن أصحاب هذا الموقف الرجعى والمحافظ ، قد خلطوا ما بين فكرة الجامعة الإسلامية " عند جمال الدين وبين دعوتهم الوحدة السياسية بين كل الدول التي تدين بالإسلام ، لأنهم لم يفرقوا ما بين التضامن وبين الوحدة أو الاتحاد ، وحيث لم يبصروا هم ذلك الفرق الجوهرى ، أو تعمدوا عدم رؤيته ، تجعل الدراسة جمال الدين نفسه ، يرد عليهم فى خاتمة إحدى مقالات العروة الوثقى المتعلقة بموضوع الوحدة الإسلامية كما يتبين من عنوانها ، بما يفيد – فى رأى الدراسة – أنه إنما يدعو الى التضامن ووحدة النضال ، فهو هنا يرى أن للتمايز القومى مقتضيات يجب أن تراعى وتثمر جزراً " من المجتمعات القومية فى داخل هذا الثوب الفضفاض المتمثل فى وحدة الاعتقاد ، حيث يظل " كل ذى ملك على ملكه " قائماً بواجبه حيال الآخرين " تضامناً " لا " وحدة " أو " اتحاداً " كما فهم ذلك البعض فأشاعه عن جمال الدين (١) .

على أن الفكرة ذاتها تتمثل تمثيلاً آخر فى رأى البعض بما يجعلها مجرد تحالف .. فيرى بعض الدارسين أن أساس فكرة الجامعة الإسلامية كما عبـــر

---

(١) محمد عمارة ، الاعمال الكاملة ، ط١ ، ١٩٦٨، مرجع سابق ، ص ٤٧ .

عنها جمال الدين فى العروة الوثقى تحت عنوان الوحدة الإسلامية ، هو ضرورة توحيد العالم الإسلامى فى حلف دفاعى كبير من أجل حماية نفسه ضد الفناء[١].

كما تؤيد دراسة تاريخية حديثة هذا الاتجاه زاعمة بأن الجامعة الإسلامية كانت وسيلة العروة الوثقى لانقاذ مصر والشرق من الاستعمار الأوروبى .

ولم تكن دعوة العروة الوثقى للجامعة الإسلامية تستهدف - على العكس مما اشتهر عن جمال الدين - بتوحيد المسلمين كلهم فى دولة واحدة ، ولأن تجتمع كلمتهم على خليفة واحد يسيطر على العالم الإسلامى .. وإنما كان مقصد جمال الدين من هذه الدعوة - كما تمثل فى مقالات الجريدة - تقوية عناصر كل دولة من الدول الإسلامية حتى تلحق بالدول الاوروبية فى العزة والمنعة ، على أن ينشأ بينهما جميعاً ما يمكن أن نسميه " حلفاً مقدساً دفاعيا " " يسعى فيه كل ملك على ملكه لحفظ الآخر ما استطاع [٢] .

ونختتم الاتجاهات برأى متفرد ، خير من يمثله هو " خدورى " ونورده استكمالاً لوجهات النظر المختلفة أولاً ، ولأن صاحبه لا يمكننا التغاضى عن مكانته أو المرور على آرائه مر الكرام ، بغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه.

يرى " خدورى " أن التحدى الغربى أدى إلى نشوء تيار يدافع عن الاسلام ضد منتقديه من الاوروبيين ويهاجم المفكرين الذين يدعون إلى تبنى الأفكار الأوروبية ، وقد عرف هذا الاتجاه بأسم اتجاه الوحدة الإسلامية [٣] .

ويرى " خدورى " أن دعاة هذا الاتجاه قد اخفقوا فى تقديم أية أفكار إصلاحية بناءة تتعدى حدود المفهوم الغامض عن الوحدة الإسلامية وإعادة بناء النظام الإسلامى .. ويرى كذلك أن حركة الوحدة الإسلامية ربما كانت لتظل

---

(1) Sharif, Op. Cit., P. 1487.

(٢) عبد العظيم محمد رمضان : تطور الحركة الوطنية فى مصر من ١٩١٨ الى ١٩٣٦ ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨، ص ص ٣٠ - ٣١ .

(3) Khaddurie, Majid, Political Trends in the Arab World (Baltimore. the Johns Hopkins Press, 1970. p 56

سلبية ورجعية لولا أنها تلقت دفعة إيجابية على يد جمال الدين [1] .ثم يحدد بعد ذلك أهداف جمال الدين ، بما قد يوحى بنفي وجود فكرة الوحدة الإسلامية من بين هذه الأهداف ، فيقول بأن عدم رضا جمال الدين عن التقدم البطيء الذى تحقق في ظل الحكام المسلمين جعله لم يحفل من فكرة الالتجاء لأساليب العنف من أجل تحقيق أهدافه .. كان هدف جمال الدين تحرير المسلمين من الكبت الداخلى ومن الانتهاكات الأجنبية في الخارج ، لكن لم يكن هدفه لا توحيد البلاد الإسلامية تحت إمرة حاكم واحد (كما يظن بعض كتاب سيرته) ولا استعادة مجد قوة الإسلام بإثارة الحمية الدينية وحدها " [2] .

تعقيب على هذه الاتجاهات :

على أننا لا يمكننا الانتقال من هذه الآراء قبل ان نذيلها بما قد يثور تجاهها من اعتراضات وخاصة الاتجاه الأول ، أو بما قد ثار فعلاً من انتقادات .. وربما لم ينل كل من الاتجاه الثانى والثالث من الاهتمام قدر ما ناله الاتجاه الأول الذى حظى بالنصيب الأكبر من المناقشات .

فعلى الرغم من كون هذا الاتجاه ممثلاً للرأى الغالب ، وشيوعه فى أوساط الكتاب والمفكرين حتى الآن ، إلا أن ثمة اعتراضات وجيهة لا يسلم منها هذا الرأى وأصحابه ، فينفى البعض عن جمال الدين البته مناداته بالجامعة الإسلامية إطلاقاً ، استناداً إلى عديد من الاعتبارات ، نجمل أهمها فيما يلى :

١ - تذكر بعض الدراسات [٣] أن الكتاب المعروفين بتخصصهم فى الشئون الاسلامية انفردوا بالكتابة عن السيد جمال الدين ، لمجرد زيه (العمة والكاكوله)، ولكن الملاحظة آلتي لا غنى عنها هنا - كما تقول الدراسة - هى أنهم - كما هى لازمة من لوازم المترجمين الذين يتعرضون لنماذج من البطولة التاريخية فيكتبون عن أنفسهم دون شعور ...

---

(1) Loc. Cit.
(2) Ibid. P. 57 .

(٣) فتحى الرملى : البركان الثائر ، مرجع سابق ، ص ١٩ .

هؤلاء أسرفوا في رسم صورهم الشخصية ، من خلال الصور التي التقطوها في اللاوعي للسيد الأفغاني ••• والملامح النفسية له على وجه الخصوص من ذلك التصور الخطير لما زعموه من أن " السيد " كان يسعى لاقامة " الجامعة الإسلامية " ، وهو تفسير أقل ما يقال فيه أنه غير صحيح، وإنما جاء نتيجة اللبس في تتبع خطواته الواسعة العريضة ، في كفاحه من أجل الجامعة الشرقية ، وقد جاء ذكرها على لسانه صراحة ، والعكس فإنه لم يذكر الجامعة الإسلامية إطلاقاً ، ولكن الأكذوبة – لكثرة ما ترددت – جازت بعد حين على الذين نشروها أنفسهم •••

٢ – حقيقة كان السيد جمال الدين يتحدث دائماً عن المسلمين ، ويكثر من مخاطبتهم بالذات ، ويتوجه إليهم بنداءاته ، ولكن كان ذلك في الوقت الذي كانت فيه كلمة مسلم تعني كلمة " المصري " وكان الزعيم عرابي أيضاً يقول " المسلمين " ويعني بها المصريين ، بل وكان الأجانب يفطنون ذلك ، فما بالك وجمال الدين يخاطب كل أهالي الشرق ، وأغلبيتهم العظمى من المسلمين ••• ؟

فكانت كلمة مسلم تعني المضطهد •• المغلوب على أمره •• الواقع في براثن المستعمرين ، وهذا هو ما جعل المؤرخين يجانبهم الصواب ، ويخطئهم التوفيق ، حتى ينسبوا إليه فكرة الجامعة الإسلامية ، التي لم تخطر أبداً على باله•••

٣ – كيف تخطر له فكرة الجامعة الإسلامية وهو صاحب الآراء المشهورة في ضرورة توحيد الأديان ؟ ••• وكان ينادي ابتداءً بتوحيد كل المذاهب الإسلامية بما فيها المذهب الشيعي ••• فهل يعقل أن مثل هذا الرجل الذي اتسع عقله للجامعة الإنسانية ، وللجامعة الشرقية كبداية ••• هل يعقل أن يعود فيضيق هذا العقل حتى لا يتسع لغير الدعوة للجامعة الإسلامية ، والتي من الممكن أن يكون رد الفعل الطبيعي لها جامعة مسيحية أو جامعة

يونية أو جامعة يهودية ! ثم ينقسم العالم من جديد إلى صراع أكثر تعصباً وغباوة وإن اتخذ أشكالاً دينية ؟!

٤ – ربما يكون جمال الدين قد لمح مرة الى فكرة الجامعة العربية ، ولكن الجامعة الإسلامية هذه لم تمت اليه بصلة مطلقا ، بل كانت هناك عناصر خبيثة ، وبالذات عناصر اجنبية مشبوهة ، وغير مخلصة في غيرتها على الاسلام ، وهي آلتي أرادت ان تستخدم اسمه المدوى في العالم الاسلامي ، فتنفخ ذلك المشروع الاستعماري ، اذ كيف تقوم جامعة ، شعوبها محتلة ، الا ان يكون ذلك بإرادة المحتل وتشجيعه لغرض في نفسه ؟!

٥ – ما أكثر ما نقرأ في كتب المستشرقين ، انجليز كانوا او فرنسيين او امريكان، كيف كان جمال الدين اعظم من دعا الى الجامعة الاسلامية ، في الوقت الذى قال فيه الفيلسوف رينان – وهو رجل غير سياسي – ان " السيد " كان من أعظم الملحدين ! لنعرف ان ذئاب الاستعمار كانوا يحاولون اصطياد الرجل أو سحله ! او لعلهم كانوا يحاولون تزوير بصماته او وضعها بالاكراه على مشروع " الجامعة الاسلامية " ! ويجمعون لذلك شهودا – ربما بحسن نية – من أمثال الشيخ رشيد رضا ، او الامير شكيب أرسلان !

٦ – من منطلق وصف رينان السالف الذكر ، تسترسل الدراسة في دحض نسبة فكرة الجامعة الاسلامية لجمال الدين ، بل وتحاول اكثر من ذلك التشكيك في عقيدته ذاتها قائلة [١] .. ومع ذلك فما حاجتنا الى كل هذا التدليل على براءته من نسبة الجامعة الاسلامية اليه ، والذين يصفونه بصفة واحدة يصرون عليها هي انه " فيلسوف الاسلام " لا يعرفون كيف يعللون الصداقة

---

(١) فتحي الرملي ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

الحميمة ألتي ربطت بينه وبين أديب اسحق ، وسليم النقاش والبستاني – المسيحيين – ويعقوب بن صنوع الصحفي الاسرائيلي ! ولا يعرفون كيف يعللون الصداقة ألتي ربطت بينه وبين رجل يعتنق الدين البهائي هو رضا أقا خان ؟

٧ – ونفس هؤلاء الكتاب لا يعرفون كيف يعللون لماذا كان اسبق الساعين للانضمام الى جمعية " مصر الفتاة " سنة ١٨٧٤ ، وكانت تضم اساسا طائفة من اليهود ، كما يقول الشيخ محمدعبده نفسه ؟؟: ولا يعرفون كيف يعللون الصداقة ألتي جمعت بينه وبين الملحد " ميرزا محمد باقر " حتى قبل أن يعود إلى الإسلام؟ ولا يعرفون كيف يعللون لماذا كان الصديق الذى وثق فيه فى لحظة الموت ، والذى مات على صدره هو اليونانى المتمصر " جورج كوتش " أحد أمناء أسراره ، بل واحد مترجمى حياته !

وهكذا تحاول تلك الدراسة بشدة نفى نسبة الجامعة الإسلامية لفكر جمال الدين مستخدمه شتى الوسائل ، حتى التشكيك فيه هو ذاته وفى عقيدته ... إذن فقد كان مرادها ينصب على فكرة الجامعة الإسلامية ذاتها ، ومحاولة هدمها من أساسها .. على ان ثمة آراء أخرى تقر بفكرة الجامعة الإسلامية ولا تنكرها، ولكن مع تحفظات تختص بتأويل تلك الفكرة ، وجل اعتراضها ينصب على نفى غائية الجامعة الإسلامية نحو توحيد الدول الإسلامية فى حوزة " دولة واحدة " تحت راية الخلافة العظمى ...، فليس من دليل على أن جمال الدين يفكر بانشاء دولة اسلامية واحدة ، أو يبعث خلافة العصور الأولى الموحدة [1].فيرى البعض أن مقالات العروة الوثقى تستنهض همم الشرقيين عموماً ، والمسلمين خصوصاً ، للتخلص من الحكم الأجنبى ... ، ولكنها لا تدعو إلى " اتحاد " بين الدول الإسلامية . كما نستطيع أن نؤكد – فى رأيها – إنه لا يوجد فى العروة الوثقى أى بحث يؤيد مزاعم القائلين بأن جمال الدين كان يدعو الى " توحيد البلاد

(1) Khadduzie, Op Cit. P 116

الإسلامية تحت راية دولة واحدة [١] . كما ذهب بعض الدراسات المعاصرة نفس المذهب ، فلقد كانت وسيلة " العروة الوثقى " الكبرى لانقاذ مصر والشرق من الإستعمار الأوروبي هى " الجامعة الإسلامية " . والجامعة الإسلامية آلتي دعت إليها " العروة الوثقى " لم تكن تستهدف - بعكس ما اشتهر عن جمال الدين - أن يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة ، وأن تجمع كلمتهم على خليفة واحد يسيطر على العالم الإسلامى ... وإنما كان مقصد جمال الدين من هذه الدعوة - كما تمثل فى مقالات الجريدة - تقوية عناصر كل دولة من الدول الإسلامية حتى تلحق بالدول الأوروبية فى العزة والمنعة [٢] .

وكلا الرأيين السابقين يستند إلى سند قديم موثوق به ، فالرأى الثانى يستشهد على مذهبه بمقالة " الوحدة الإسلامية " الواردة فى العروة الوثقى ، ثم يدعم رأيه اكثر بأن الشيخ " رشيد رضا " يؤكد على ذلك [٣] .. والرأى الأول بعد أن يؤكد على أن العروة الوثقى لا تدعو إلى اتحاد بين الدول الإسلامية ، وأنه لا يوجد فيها أى بحث يؤيد دعوة جمال الدين إلى " توحيد البلاد الإسلامية تحت راية دولة واحدة " . يتساءل قائلاً :

ولكن هنا يخطر على البال هذا السؤال : ألا يمكن أن يكون جمال الدين قد دعا إلى ذلك بعد نشر العروة الوثقى ؟

ثم ، أفلا يمكن أن يكون قد فعل ذلك بصورة شفهية ، فى اجتماعات سرية ؟ إن هذا الإحتمال ، يحملنا على إستقصاء الأمر من كتابات المتصلين به إتصالاً مباشراً ، ثم يسند قوله بالاستشهاد بالشيخ رشيد رضا [٤]

فماذا يقول الشيخ رشيد رضا فى التأكيد على ذلك ، أو عدمه :

---

(١) ساطع الحصرى ، مرجع سابق ، ص ٢١٥

(٢) عبد العظيم محمد رمضان : تطور الحركة الوطنية فى مصر ، مرجع سابق ، ص ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٣١ .

(٤) ساطع الحصرى ، ما هى القومية ، مرجع سابق ص ص ٢١٥-٢١٦ .

إننا إذا راجعنا " تاريخ الإمـام محمد عبده " - الذى ألفه الشيخ رشيد رضـا - صاحب المنار - وقفنا فيه على العبارات التالية :

" أما ما اشتهر عن السيد جمال الدين من كونه يريد بالجامعـة الإسلامية أن يكون المسلمين كلهم دولة واحدة ، فلم أره فى شئ مـن العروة الوثقـى ، ولا فـى غيرها مما كان يرويه عنه الاستاذ الإمام ، وهو أعلم النـاس بمقـاصده وأعمالـه ، بل قال فى المقالة ألتي وضع لها عنـوان " الوحدة الإسـلامية " ألتـي نشرت فـى العدد التاسع من العروة الوثقى " لا ألتمس بقولـى هذا أن يكـون مـالك الأمـر فـى الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما كان عسيراً • ولكن أرجو أن يكـون سـلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين ، وكـل ذى ملـك علـى ملكـه يسـعى بجهـده لحفظ الآخر ما استطاع - فإن حياته بحياته - وبقاءه ببقائه ، إلا أن هذا بعد كونه أساسا لدينهم تقضى به الضرورة ، وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات " [1] •

ومن المعلوم أن الشيخ رشيد رضـا كان من أخص تلاميذ الإمام محمد عبده وأعز أصدقائه ، وأهم مؤرخى حياته وجامعى آرائه •

فيستند الحصرى إلى ذلك ، مؤكداً أن النص الصريح الوارد فى كتابه الآنف الذكر فى هذا المضمار ، لايترك أدنـى مجـال للشـك فـى أن ربط فكرة " وحدة البلاد الإسلامية " بتعاليم السيد جمال الدين ، من الأخطـاء الشـائعة ألتـي لا تتفق مع حقائق الأمور بوجه من الوجوه • ثم يستطرد مبرراً شيوع هذا الرأى قائلاً :

ولا شك فى أن هذه الرواية تولدت من رغبة البعض فى استغلال شهـــرة جمال الدين فى تأييد الفكرة ألتي تروق لهـم ، ومـن اعتيـاد معظـم كتـاب التـاريخ ومحررى الصحف - فى بلادنا - على الاعتماد على كل " ما كتب وشاع " دون الاهتمام بالرجوع الى " الأصول " للتثبت من صحة الرواية والنقل ••

وأما الاتجاه الثانى بمن يمثلونه ، والاتجاه الثالث بما يتضمنه من آراء شتى ، فلا يمكننا الاتفاق معها فى كل وجهات النظر ، لاعتبارات شتى ستتضح فيما بعد لدى كلا منا على الفكرة المحورية فى فكر جمال الدين كما نراها نحن •

---

(1) الشيخ رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ، جـ1 ، ص 307 •

تعددت الآراء والاتجاهات بصدد تفسير فكره الجامعة الإسلامية لـــــدى جمال الدين ، كما رأينا سالفاً ، ألا أنها فى رأينا تتصف بالقصور ، وتعوزها الدقة والدلالة الكافية المقنعة •• فعلى الرغم من أن لكل اتجاه ، بل رأى ، حججه وقرائنه من نصوص جمال الدين نفسه ، إلا أن العيب الكبير والنقص يشوبها من حيث أنها كلها تتسم بالنظرة الجزئية آلتي تفتقر إلى الشمول والإحاطة اللازمين لعلمية الرأى ودقته ، تلك النظرة آلتي تنعكس سواء فى اقتطاع النص من سياق كلى ، مما قد يؤدى إلى تأويل المعنى وإعتسافه ، أو فى الاقتصار على منبع واحد كمصدر رئيسى لأفكار جمال الدين ، وهنا يفتقد الفكر المسار الزمنى المتصل ، بما يوضح وجود بداية ونهاية يربطهما خيط فكرى واحد ، يوفر للأفكار المتعددة الوحدة العضوية ••

وقبل الانتقال إلى تفصيل الفكرة المحورية لدى جمال الدين فى رأينا ، نرى لزاماً علينا أن نوضح بعض الشئ آراء جمال الدين فى الوحدة الإسلامية كما وردت فى نصوصه ، مع تبيان آراء الدارسين المختلفة وتأويلاتهم وتعليقاتهم عليها ، وذلك أداء منا لواجب الأمانة العلمية ، وإنصافاً لأصحاب تلك الآراء – بغض النظر عن مدى موافقتنا لهم – ، وكذلك حتى نربأ بأنفسنا عن وصمة التعسف ، أو الإنضواء فى زمرة الغالبية ، آلتي تستغل شهرة جمال الدين فى تأييد الفكرة آلتي تروق لهم ••

على أنه يجدر بنا توضيح بعض الملاحظات بصدد هذا الامر ••

١ – إننا على العكس من معظم الدارسين ، الذين سمحوا لأنفسهم بالاستشهاد بمقالات جمال الدين ، أو بعبارات منها ، كيفما اتفق فى كل مناسبة ، دونما اعتبار لتاريخ هذا النص من حيث الأسبقية الزمانية فى الورود ، فنرى نقداً لفكرة حديثه قائم على الاستشهاد بفكرة وردت قبلها وسبقتها فى الورود ، نقول على العكس من هؤلاء ومنهجهم هذا ، سنورد النصوص بحسب تسلسلها الزمنى فى الكتابة أو القول ••

٢ - إننا سنلحق كل نص بأهم التعليقات التي عقب بها عليه ، لا نقول كل التعليقات ، وإنما أهمها والممثلة لكافة الاتجاهات ، حتى تتبين تأويلات كل نص على حده ..

٣ - إن معظم الدراسات قد جعلت جل اعتمادها على جريدة العروة الوثقى ومقالاتها التي تعبر عن فكرة الوحدة الإسلامية ، باعتبارها المصدر الأساسي لأفكار جمال الدين ، وقليلون منهم ، هؤلاء الذين استندوا لمصادر أخرى ، كرده على رينان أو أقواله في الخاطرات ...

ولنفصل الآن ما أوجزناه :

باستعراض الاتجاهات والآراء نرى - كما قلنا آنفا - أن جلها يعتمد العروة الوثقى سنداً له ، وبالتحديد نرى أن كل ما اعتمد عليه جميعهم ، ينحصر في مقالات خمسة ، بالذات دون غيرها ، بوصفها المتضمنة لأفكار الجامعة الاسلامية ، لذا نتناولها كل منهم كالآتي :

(١) فاتحة الجريدة :

ونتناول بالتوضيح نقطتين : لماذا صدرت الجريدة ، والجريدة ومنهجها[١]. وثمة عبارة واحدة بالذات في تلك المقالة تتصل اتصالاً وثيقا بفكرة الجامعة الإسلامية ، تأتي في غضون حديث جمال الدين عن سوء حالة مصر وأثر ذلك على المسلمين ، وهي على الوجه التالي :

" ... ، إن الخطر الذي ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم ولن تزال آلامه تستفزهم مادام الجرح نغاراً . وما هذا بغريب على المسلمين فإن روابطهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة مادام القرآن يتلى بينهم وفي آياته مالا يذهب على أفهام قارئيه فلن يستطيع الدهر أن يذلهم ..." [٢] .

---

(١) العروة الوثقى ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ص ١ - ٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٥

وجل الآراء تتفق على أن جمال الدين هنا إنما يشير إلى وحدة المسلمين ، وأن الرابطة القوية التي تربط بينهم رابطتهم الملية، أي الدين ، وهي رابطة تتفوق في قوتها على الجنسية واللغة .

والجدير بالملاحظة أنه حتى تلك الآراء التي تعارض ورود فكرة الجامعة الإسلامية لدى جمال الدين على أساس من المعتقد الديني ، تذهب نفس المذهب بصدد تلك العبارة ، وعلى رأس تلك الآراء الحصري [١] ، ومحمد عماره [٢].

٢) الجنسية والديانة الاسلامية :[٣]

وهي المقالة الأولى من العروة الوثقى ، يبدأها بقوله : " إن استقراء حال الأفراد في كل أمة ، واستطلاع أهوائها يثبت لجلي النظر ودقيقة وجود تعصب للجنس ونعرة عليه ، عند الأغلب منهم " [٤] .

ثم استطرد في مقارنته بين الجنس والدين ، ويمكننا إيجاز الخطوط العامة للمقالة فيما يلي :

" ظن كثير من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية " إلا إن البحث في الأمر يدل على أنه من الملكات العارضة على الأنفس " الناتجة عن ضرورات الحياة الاجتماعية " [٥] " صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر ، فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقاباً طوالاً إلى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة ، حتى وصلوا إلى الإجناس ، فتوزعوا أمما كالهندي والإنكليزي والروسي والتركماني ونحو ذلك ، ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادراً على حيازة منافعه وحفظ حقوقه من تعدى القبيل الآخر [٦]

---

(١) ساطع الحصري ، مرجع سابق ، ص ٢٢١

(٢) محمد عمارة ، الاعمال الكاملة ، ط ، ١٩٦٨ ، ص ص ٤٤ - ٤٥ .

(٣) جريدة العروة الوثقى ، مرجع سابق ، ص ص ٩ - ١٢ .

(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٩ .

(٥) نفس المكان السابق .

(٦) نفس المكان

ولكن الديانة الإسلامية تغنى عن هذا النوع من العصبة ، لأنها تقضى بالاعتماد على " حاكم تتصاغر لديه القوى ، وتتضاءل لعظمته القدرة ، وتخضع لسلطته النفوس بالطبع " (١) " هذا هو السر فى إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ، ورفضهم أى نوع من أنواع العصبات ، ماعدا عصبيتهم الإسلامية • فإن المتدين بالدين الإسلامى متى رسخ فيه اعتقاده ، يلهو عن جنسه وشعبه ، وينلفت عن الرابطة الخاصة إلى الرابطة العامة ، وهى علاقة المعتقد"(٢) •

" بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة ممقوتة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم ، والمتعصب لها ملوم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

" ليس منا من مات على عصبية " • والأحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا "[٣] •

" ••• هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن ، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس ، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين[٤] •

تلك هى الخطوط العامة لأفكار المقالة ، وقد رأى البعض منها إنها واحدة من مجموعة المقالات آلتي كتبتها العروة الوثقى سنة ١٨٨٤ فى الحث على اتحاد كلمة المسلمين [٥] إلا أن بعض الدارسين لاحظ من هذه المقالة أن جمال الدين لا ينكر أهمية الرابطة الجنسية فى حياة الأمم بوجه عام ، إلا أنه ينفى الحاجة اليها، بالنسبة للمسلمين ، حتى أنه يعتبر اللجوء إليها مخالفاً للشريعة الإسلامية ، مخالفة صريحة [٦] •

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠

(٢) نفس المكان •

(٣) نفس المكان

(٤) المرجع السابق ، ص ١١ •

(٥) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ، مرجع سابق مجـ١، ص ٢٠ •

(٦) ساطع الحصرى ، مرجع سابق ، ص ٢٢١ •

كما تذهب بعض الدراسات إلى أن عبارات المقالة تتحدث عن غناء الإسلام عن القومية (الجنسية) " والتى استغلها البعض بحسن نية أو بسوئها ، ليجعلوا من فكر جمال الدين حكما يقضى " بعداء الإسلام للقومية " ، ناسين أو متناسين الفرق الجوهرى بين " الغناء " و " العداء " ؟!

وأن للمسلمين بديلاً يفضل الجنسية ، أى القومية ، ومن ثم فإن فيه الغناء عنها ، إلا وهو اتحادهم فى الملة والاعتقاد فى ظل حكم " مثالى " هو أشبه ما يكون بحكم " المدن الفاضلة " فجمال الدين هنا ، كما ترى الدراسة إنما يصور حالة ربما كانت أليق من حيث مثاليتها وسموها بعصر لازلنا نحن فى انتظاره بل نتمناه لأبنائنا وأحفادنا (١) .

٣) انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك :

يصدر جمال الدين هذه المقالة بالآية الكريمة التالية :

" واعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا "

ومن أهم أقواله فيها (٢) :

" المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة ، مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ولايتهم من البلدان . وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين فى الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد فيهم ، إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام (٣) .

" المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة ، وما يفرض عليه الإيمان ، وهو هاتف الحق الذى بقى من الهامات دينه ، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين فى هذه الأيام بعضهم فى غفلة

---

(١) محمد عمارة : الاعمال الكاملة ، ط١ ، ١٩٦٨، ص ص ٤٢-٤٤ .

(٢) العروة الوثقى ، مرجع سابق ، صص ٣٠ - ٣٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٠ .

عما يلم بالبعض الآخر ، ولا يألمون لما يألم له بعضهم [1] " .

" لم يبق من جامعة بين المسلمين فى الأغلب إلا العقيدة الدينية ، مجردة عما يتبعها من الأعمال ، وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل ، فالعلماء ، وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها ، لا تواصل بينهم ولا تراسل .. " [2]

" ... بل العلماء من أهل قطر واحد ، لا ارتباط بينهم ، ولا صلة تجمعهم، إلا ما يكون من أفراد العامة لدواع خاصة ، من صداقة او قرابة بين أحدهم والآخر . أما فى هيئتهم الكلية ، فلا وحدة لهم ، بل لا أنساب بينهم . وكل ينظر إلى نفسه ، ولا يتجاوزها ، كأنه كون برأسه " [3] .

" كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء ، كذلك بين الأفراد والسلاطين من المسلمين . أليس من العجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين فى مراكش ، ولا لمراكش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين فى المشرق " [4].

" هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال : لا علاقة بين قوم منهم وقوم ، ولا بلد وبلد ، إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم ... وهذا النوع من الإحساس ، هو الداعى إلى الأسف وانقباض الصدور . إذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبى عن ملته ، ولكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاضدته " [5] .

---

(1) المرجع السابق ، ص ٣١ .

(2) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(3) نفس المكان .

(4) نفس المكان السابق .

(5) نفس المكان .

ويستدل البعض مما سبق - ومن كل ما ورد فى هذه المقالة - على أن جل ما يطلبه جمال الدين ويدعو إليه ، لايتعدى حدود التعارف ، والتعاضد والاتفاق وتبادل السفراء ، وهذا هو مفهوم الوحدة لديه (١) .

٤) التعصــــب :

يتحدث الافغانى فى هذه المقالة عن التعصب للجنس ، والتعصب للدين (٢) وهى من المقالات المسهبة ، ومما جاء فى أفكارها :

" التعصب قيام بالعصبية ، والعصبية من المصادر النسبية ، نسبة إلى العصبة . وهى قوم الرجل الذين يعززون قوته ويدفعون عنه الضيم والعداء .

فالتعصب وصف للنفس الإنسانية ، تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها، والذود عن حقه ، ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس فى معلوماتها ومعارفها ". (٣) .

" هذا الوصف هو الذى شكل الله به الشعوب ، وأقام بناء الأمم . وهو عقد الربط فى كل أمة ، بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد ، وينشئها بتقدير الله خلقاً واحداً ، كبدن تألف من أجزاء وعناصر ، تديره روح واحده ، فتكون كشخص يمتاز فى أطواره وشئونه وسعادته وشقائه عن سائر الأشخاص " .

" التعصب روح كلى مهبطه هيئة الأمة وصورتها ، وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعره ، فإذا ألم بأحد المشاعر مالا يلائمه من أجنبى عنه انفعل الروح الكلى ، وجاشت طبيعته لدفعه ، فهو لهذا مثار الحمية العامة ، ومسعر النعرة الجنسية . هذا هو الذى يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر ، أو يؤول بها إلى سوء عاقبــــة ..وإن

---

(١) ساطع الحصرى ، مرجع سابق ، ص ٢١٥ .

(٢) العروة الوثقى ، مرجع سابق ، ص ص ٣٩ - ٤٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٠

استقامة الطباع ورسوخ الفضيلة فى أمة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها ، يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حى ، لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ، ولا يرى القدمان فى تطرفهما انحطاطاً فى رتبة الوجود ، وإنما كل يؤدى وظائفه لحفظ البدن وبقائه " (١) .

وهكذا يمضى جمال الدين فى الاسهاب فى وصف أهمية التعصب ، والنعرة الجنسية ، ثم يتكلم عن الاعتدال والإفراط والتفريط فى التعصب ، مشيراً إلى مغبة الإفراط فيه الذى هو " مذمة تبعث على الجور والاعتداء ، فيقول : " هذا الحد من الافراط فى التعصب هو الممقوت على لسان الشارع صلى الله عليه وسلم فى قوله : " ليس منا من دعا إلى عصبية " (٢) .

ثم ينتقل جمال الدين إلى الحديث عن التعصب الدينى قائلاً :

" التعصب كما يطلق ويراد منه النعرة على الجنس ، - ومرجعها رابطة النسب والاجتماع فى منبت واحد - ، كذلك توسع أهل العرف فيه ، فأطلقوه على الملتحمين بصلة الدين ، لمناصرة بعضهم بعضاً • والمتنطعون من مقلدة الإفرنج يخصون هذا النوع منه بالمقت ، ويرمونه بالتعس • ولا تخال مذهبهم هذا مذهب العقل • فإن لحمة يصير بها المتفرقون الى وحدة ، تنبعث عنها قوة لدفع الغائلات ، وكسب الكمالات ، لا يختلف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو النسب ، وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين فى أقوام مختلفة من البشر ، وعن كل منهما صدرت فى العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الإنسانى ، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ، ومعاونته على حاجات معيشته ، وبين ما صدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب"(٣) .

وبعد هذه العبارات يعود جمال الدين إلى بيان أهمية الدين والرابطة الدينية

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠ •

(٢) المرجع السابق ص ٤١ •

(٣) المرجع السابق ص ٤٢ •

بين المسلمين بتفصيل وإسهاب ، ثم يختتم مقالته بخطاب " يقول فيه : " فيا أيتها الأمة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها ، ودماؤكم فلا تريقوها ، وأرواحكم فلا تزهقوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت ، هذه هي روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ولا يستهوينكم الترهات ، ولا تدهشكم زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها العربي بالتركي ، والفارسي بالهندي ، والمصري بالمغربي ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى أن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وإن تناءت دياره ، وتقاصت أقطاره [1] .

يرى البعض أن جمال الدين في هذه المقالة إنما يرد على من يمجدون التعصب الوطني ويحطون من شأن العصبية الدينية ، فيرميهم بالغفلة وبأنهم أبواق المستعمر الذي يحاول توهين العصبية الدينية ليقطع الرابطة التي تجمع بين شعوبها ، ويدلل على كذب المستعمرين وتدليسهم بأنهم أكثر الناس عصبية للدين في كل ما تجرى عليه سياستهم [2] .

بينما يرى البعض الآخر ، أن جمال الدين يرى في رده عليهم ، وجوب إضافة التعصب الاعتقادي المعتدل إلى التعصب الجنسي (القومي) ومزاملته له في نفس الطريق ولذات الغايات والأهداف [3] .

إلا أن بعض الدراسات ترى أن جمال الدين بعد أن نفى الحاجة إلى الرابطة الجنسية بالنسبة للمسلمين ، واعتبار اللجوء اليها مخالفاً للشريعة الإسلامية مخالفة صريحة ، قد خفف إلى حد ما قطعية هذه الاحكام في تلك المقالة ، وتوسع في إبراز أهمية " الرابطة الجنسية " في حياة الأمم [4] بل إن تلك المقالة قد أوصلتها

---

(1) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(2) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ،مرجع سابق،جـ١ ،ص ٢١ .

(3) محمد عمارة ،الأعمال الكاملة،ط١،١٩٨٦ ،مرجع سابق، ص ٤٦ .

(4) ساطع الحصري ، مرجع سابق ، ص ٢٢١ .

إلى محاذاة " الرابطة الدينية " [1] .

٥) الوحدة الاسلامية :

نشرت هذه المقالة بالعدد التاسع من العروة الوثقى [2] ، يصدر جمال الدين المقالة بالآية الكريمة التالية :

" وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " .

ثم يذكر كيف " أظلت راية الإسلام ما بين نقطة الغرب الإقصى إلى توفكانى على حدود الصين ، فى عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الأستواء " ، ويصف ماكان للمسلمين من مكانة علمية فى الحكم والعلم والعمران . وبعد ذلك يشرح كيف " وقفوا فى سيرهم ، بل تأخروا عن غيرهم ، فى المعارف والصنائع ، بعد أن كانوا فيها أساتذة العالم . وأخذت ممالكهم تنقص أطرافها وتتمزق حواشيها ، مع أن دينهم يرسم عليهم أن يدينوا لسلطة من يخالفهم بل الركن الأعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبى عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذى شوكة فى شوكته " . ثم يتساءل " هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون ؟ وهل غفلوا عن تكفل الله لهم بإظهار شأنهم على سائر الشئون ، ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن أن الله اشترى منهم ، لاعلاء كلمتهم – أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؟ " [3] .

فيجيب على هذه الأسئلة بقوله :

" لا ، لا . إن العقائد الإسلامية مالكة لقلوب المسلمين ، حاكمة إرادتهم ، وسواء فى العقائد الدينية والفضائل الشرعية ، عامتهم وخاصتهم " . [4] ثم يبحث عن أسباب الضعف الذى اعترى المسلمين ، فيرى أن أعظم هذه الاسباب هو" تخالف طلاب الملك " فيقول :

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(٢) العروة الوثقى ، مرجع سابق ، ص ص ٦٧ – ٧٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ص ٦٨ – ٦٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٩ .

" نعم يوجد للتقصير في إنماء العلوم ، والضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم . لأنا بينا أن لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم ، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة ، والسلاطين في جنس واحد ، مع تباين الأغراض وتعارض الغايات " (١) .

وبعد الإفاضة في هذا ، ينتقل بحديثه إلى الأحوال الحاضرة ، فيقول : " الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الإسلامية من أشد أركان الديانة المحمدية ، والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين ، لا يحتاجون فيه إلى استاذ يعلم ، ولا كيف يثبت ، ولا رسائل تنشر " (٢) ثم يستمر قائلاً : " إن رعاة المسلمين ، فضلا عن علمائهم ، تتصاعد زفراتهم وتفيض أعينهم من الدمع حزناً وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء وتضافر الأهواء ، ولولا وجود الغواة من الامراء ، ذوى المطامع في السلطة بينهم ، لاجتمع شرقيهم بغربيهم وشماليهم بجنوبيهم ، ولبى جميعهم نداء واحداً . أن المسلمين لا يحتاجون في صيانة حقوقهم إلا إلى تنبه أفكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع ، واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه ، وارتباط قلوبهم الناشئ عن الإحساس بما يطرأ على الملة من الاخطار (٣) ، وبعد توسعه في هذا الموضوع ، يخاطب المسلمين قائلاً : " أيا بقية الرجال ، ويا خلف الأبطال ، ويا نسل الاقيال ، هل ولى بكم الزمان ؟ هل مضى وقت التدارك ؟ هل آن أوان اليأس ؟

" لا ، لا ، معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم – أن من أدرنة إلى بيشاور دولاً إسلامية ، متصلة الأراضي ، متحدة العقيدة ، يجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن الخمسين مليوناً ، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة . أليس لهم أن يتفقوا على الذب والإقدام كما اتفق عليهم سائر الأمم ؟ ولو اتفقوا ، وليس ذلك بدع منهم ، فالإتفاق من أصول دينهم . هل أصاب الخدر مشاعرهم ،

---

(١) المرجع السابق ، ٦٩ .

(٢) نفسه ، ص ٧٠

(٣) نفسه ، ص ص ٧٠ – ٧١ .

فلا يحسون بحاجات بعضهم بعضا ؟ أليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله فى قوله (إنما المؤمنون أخوة) ، فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب " (١) .

ويسترسل بعد ذلك مباشرة ، لتوضيح مقصده قائلاً :

" لا التمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما كان عسيراً ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته ، وبقائه فى بقائه ، إلا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم تقضى به الضرورة ، وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات" (٢) .

يرى البعض أن هذه المقالة تساعد المسلمين على الشعور برابطتهم الإسلامية وتغذى إحساسهم بالخطر الذى يهدد شعوبها أمام غول الاستعمار الغربى المتربص بها ، لذا فهى كتبت فى الحث على اتحاد كلمة المسلمين (٣) .

هذا بينما يذهب البعض الآخر إلى أن هدف المقالة كان تقوية عناصر كل دولة من الدول الإسلامية حتى تلحق بالدول الأوروبية فى العزة والمنعة ، على أن ينشأ بينها جميعا ما يمكن ان نسميه " حلفاً مقدساً دفاعياً " (٤) .

ومن وجهة نظر أخرى فالمقالة تتحدث عن غناء الإسلام عن الجنسية – أى القومية – لا عن عدائه لها (٥) ، كما أن جمال الدين فى تلك المقالة يتعرض لقضية الوحدة وبناء الدولة ، فيبدو سياسياً وحكيماً وواقعياً ، يعطى لعوامل الوحدة الاعتقادية حقها ، ولا ينكر أثر التمايز القومى بين الذين يعتنقون الإسلام ، فهو هنا يرى للعوامل الخاصة بوحدة العقيدة ثماراً يجب أن ترعى ويستفاد منهـــا ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٧١ – ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٣) محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية، مرجع سابق،ج١ص ص١٩–٢١

(٤) عبد العظيم محمد رمضان : تطور الحركة الوطنية فى مصر ، مرجع سابق، ص ص ٣٠ – ٣١ .

(٥) محمد عمارة : الاعمال الكاملة ، ط١ ، ١٩٦٨ ، مرجع سابق ، ص ص ٤٢ – ٤٣ .

وهى خاصة بالجانب الروحى المنبعث من سلطان القرآن ووحدة الدين ، وأن التمايز القومى مقتضيات يجب أن تراعى وتثمر " جزءاً " من المجتمعات القومية فى داخل هذا الثوب الفضفاض المتمثل فى وحدة الاعتقاد حيث يظل " كل ذى ملك على ملكه " قائماً بواجبه حيال الآخرين ، " تضامناً لا " وحدة " أو " اتحاداً " كما فهم ذلك البعض فأشاعه عن جمال الدين [1] .

على أن ثمة رأياً آخر يستشف من المقالة ، أن جمال الدين لا ينكر أهمية الرابطة الجنسية فى حياة الأمم ، ولا يلغيها ، إلا أنه ينفى الحاجة إليها بالنسبة المسلمين [2] .

كما يلاحظ أن جمال الدين – كما يتبين من المقالة – كان بعيداً جداً عن التفكير فى جمع المسلمين " فى حوزة دولة واحدة " [3] .

الفكرة المحورية لدى جمال الدين

الفكرة المحورية لدى جمال الدين هى الفكرة القومية .. وليس التيار القومى بغريب على فكر جمال الدين ، ولا هو بمستغرب على تيار سياسى قوى، كذلك التيار اللجى الذى انغمس فيه جمال الدين بكليته ..

كانت الدعوة إلى الاتفاق بين الدول الإسلامية بمثابة اعتراف من جمال الدين بأن وضع التفرق لا يمكنها من خلع سيطرة ونفوذ الاستعمار الغربى . وبذا اكتسبت دعوته طابعاً سياسياً فى المقام الأول ، ولعله من المهم أن نوضح طبيعة دعوة جمال الدين التي اشتهرت فى تاريخنا الحديث بأنها دعوة لانشاء جامعة إسلامية ..

---

(1) المرجع السابق ، ص ص ، ٤٦ – ٤٧ .
(2) ساطع الحصرى ، مرجع سابق ، ص ٢٢١ .
(3) المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

١ - فهل كانت دعوته تستهدف الوحدة بمعناها المعروف فى الفقه السياسى ، أم مجرد الاتفاق والترابط فى إطار الجامعة [١] .

٢ - وإذا انتهينا إلى أن دعوته كانت تدور فى إطار الجامعة ، فما هو التوجه الإسلامى لتلك الدعوة هل هو الترابط بين الشعوب الشرقية أم الشعوب الإسلامية؟

٣ - كيف استخدم جمال الدين دعوته لخدمة أغراضه السياسية : تأييد تركيا ، تأييد إيران .. الخ ؟

٤ - هل كانت دعوته تبشيراً بالقومية ، وما تفسير ذلك ؟

ولعلنا فيما سبق أن أوردناه من أفكار نكون قد أوضحنا بعض الشئ ما يختص بالاستفسارات الثلاثة الأولى ، ويتبقى لدينا الاستفسار الرابع ، والخاص

---

(١) من المعروف فى الفقه السياسى أن ثمة نوعين من أنواع الدول : النوع الأول هو الدولة البسيطة ذات المركزية الواحدة ، والنوع الثانى هو الدولة المركبة التي تنشأ عن اتحاد دولتين أو أكثر وثمة أشكال متعددة للدولة المركبة وهى :

١ - الاتحاد الشخصى ويتكون من اجتماع دولتين تحت رئاسة واحدة ، مع احتفاظ كل منهما باستقلالها الداخلى والخارجى .

٢ - الاتحاد الفعلى : ويتكون من انضمام دولتين فى شكل اتحاد دائم تحت رئيس واحد ، وتكون الهيئة الحاكمة فى الاتحاد واحدة فى الشئون الخارجية ، ومزدوجة فى الشئون الداخلية.

٣ - الاتحاد التعاهدى أو الكونفدرالى : ويتكون من مجموعة من الدول تتفق فيما بينها فى معاهدة دولية على إقامة هيئة مشتركة تشرف على سياسة حكومات الدول الأعضاء التي تحتفظ كل منها بنظامها السياسى ودستورها .

٤ - الاتحاد الفيدرالى : وهو أقوى أشكال الدولة المركبة ، حيث يتكون من مجموعة من الدول تحت رئاسة هيئة مركزية واحدة ، وتفقد بمقتضاها الدول الأعضاء شخصيتها الدولية .

أنظر فى تفصيل ذلك :

د. بطرس بطرس غالى ، د. محمود خيرى عيسى : "مدخل فى علم السياسة" مكتبة الانجلو المصرية ، ط٥، ١٩٧٦، ص ص ، ١٨٧ - ١٩٧ .

بفكرة القومية لدى جمال الدين ، وهى أهم نقطة لدينا ، ويعد هذا الفصل برمتـــه تمهيداً للحديث عنها ، وعن رأينا بأنها الفكرة المحورية لدى جمال الديـن ، والكامنة فى شتى أفكاره منذ البداية حتى وفاته ، بما يشكل خيطاً رقيقاً ، ووحدة عضوية تنتظم تياره الفكرى برمته ..

إذا قمنا بجولة سريعة لاستكشاف الجانب القومى لجمال الدين فى مرآه المفكرين ، وجدنا إشارات سريعة ، إلا أنها نافذة فيما نحن بصدده ..

فهو إذا تأملنا حقيقة الرسالة ألتي نهض بها ، وجدناها رسالة وعى قومى شرقى يؤدى إلى الذود عن كرامة الانسان حيثما كان [١] ، وقد نسب إليه بحق الدور التاريخى " لأبى القومية " فى مصر [٢] .

بل إن ريادة الفكر القومى بمصر والشرق ترجع لجمال الدين [٣] ، وهو يعد فى اعتبار البعض بأنه كان قبل كل شئ مؤسس حركة الجامعة الاسلامية ألتي تمزج التفسير القومى للإسلام بالروح العصرية والدعوة إلى الإصلاح [٤].

ويؤكد " جب " على هذه المقولة ذاهباً إلى أن جمال الدين قد زود الحركة الإسلامية بوحى وبرنامج شعبى ، إذ أعاد تأسيس قواعد الإسلام فى إطارها القومى [٥] ، ثم يقرر فى موضع آخر أن التبرير التجديدى والحركة الإصلاحية فى الإسلام ، يمتزجان بنوع من التفسير القومى للإسلام يعود الى جمال الدين[٦] الذى يرى أن التعصب ، بمعنى التضامن ، هو القوة ألتي تحافظ على وحدة المجتمع ، وهذه الوحدة إنما تتفكك بدونه [٧] . والتعصب يقوم علـــــى اسس

---

(١) عثمان امين : رواد الوعى ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

(٢) عثمان امين : محمد عبده : رائد الفكر المصرى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط٢، ١٩٦٥، ص ٣٦ .

(٣) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ، مرجع سابق ، جـ٤ ، ص٩٢ .

4) Nuseiben, H.Z., the Idea of Arab Nationalism, Published by Cornell University Press, New York, 1956 P.P. 172 - 173.

(5) Gibb., Op. Cit., P. 43.

(6) Ibid, P. 152.

(٧) العروة الوثقى ، ط١، دار الكتاب العربى ، بيروت، ١٩٧٠ ، ص ٧٩ .. الخ

مختلفة . فقد ينبثق عن عقيدة دينية أو عن رابطة طبيعية كاللغة ، وفى هذا يجد جمال الدين فرقاً أساسياً بين المدنيتين الأوروبية والإسلامية ، فالاعتقاد الشائع فى أوروبا ، كما يقول ، هو أن التعصب القومى خير بحد ذاته ويؤدى إلى التقدم ، وأن التعصب الدينى أبداً تعصب أعمى يحول دون التقدم .

قد يصح هذا ، حسب رأى جمال الدين ، على المسيحية ، لكنه لا يصح على الإسلام ، حيث أن التعصب الدينى الاعمى نادر والتعصب الدينى الحق ضرورة جوهرية للتقدم .

لكن هذا – فى رأى حورانى – لا يعنى أنه كان ينكر أهمية الروابط القومية أو غيرها من الروابط الطبيعية [1] .

وبخلاف تلك الإشارات السريعة السالفة ، لاتجد ثمة من حاول تناول الموضوع بدرجة أكبر – ولو إلى حد ما – من التعمق والتحليل التفصيلى ، سوى محاولتين اثنتين :

المحاولة الأولى قام بها فى عام ١٩٥٩ المفكر القومى (أبو خلدون ساطع الحصرى) ويرى أن موقف جمال الدين حيال التفكير القومى قد انقسم إلى مراحل ثلاث [2] .

١ – عندما كان يرفض إعطاء أى وزن للفكر القومى والخصائص القومية ، مكتفياً بوحدة العقيدة الدينية وهو هنا يسترشد بالمقالات الأولى من " العروة الوثقى " خاصة مقالة (الجنسية والديانة الإسلامية) [3] .

٢ – عندما اعترف بالخصائص القومية إلى جوار عامل وحدة العقيدة الدينية . وهنا أيضاً يسترشد بالعروة الوثقى ، خاصة مقالة التعصب [4] .

٣ – عندما اعترف بأن الغلبة فى التأثير إنما هى " لجامعة اللسان " ومن ثم للخصائص القومية على وحدة الاعتقاد الدينى .

---

(1) Hourani: Op. Cit., P. 118.

(٢) ساطع الحصرى ، ما هى القومية ، مرجع سابق ، ص ص ٢١٨–٢٣٣ .

(٣) العروة الوثقى ، ط١ ، ١٩٧٠ ، بيروت ، ص ص ٤٩ – ٥٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ص ، ٧٩ : ٨٨ .

أما المحاولة الثانية فتأتي بعد الأولى بعشر سنوات ، وقام بها الدكتور محمد عماره فى عام ١٩٦٨ .. فهو بعد أن يشير إلى محاولة الحصرى السابقة، يعترض على تقسيمه ويذهب إلى أنه وإن كان يعتبر هذه المحاولة - أى محاولة الحصرى - من المحاولات الجادة آلتي خرجت على ذلك الموقف التقليدى الخاطئ الذى أشاعه عن جمال الدين كل الذين ترجموا لحياته وفكره ، والذين سلكوه فى سلك دعاة الجامعة الإسلامية والوحدة الدينية بالمعنى المعادى للفكر القومى والرافض لنشأة القوميات ، إلا أنه لا يعطى لهذة المحاولة فى التقويم الدقيق والتحليل النهائى أكثر من قيمة الخطوة الأولى الجادة فى هذا السبيل ، ذلك لأن التعمق فى دراسة فكر الرجل فى هذا الباب ، والوقوف وجها لوجه مع نصوصه ومواقفه هو أولاً وقبل كل تعليق أو تفسير او تخريج إنما يضعنا أمام حقيقة موضوعية وصلبة تقول إن فكر الرجل قد مر فى هذا المقام بمرحلتين اثنتين ، لا بمراحل ثلاث (١) :

١ - أولى هاتين المرحلتين هى آلتي اتسمت بعدم الوضوح فى العلاقة ما بين " الجامعة الاسلامية " و " الوحدة " الإسلامية ، وما بين " القومية " وتكوين المجتمعات على أساس قومى حديث ... ومن ثم جاء فكره فيها حاوياً لكثير من التعبيرات والأحكام آلتي تبدو متناقضة بعضها البعض الآخر ، غير منسجمة فى سلك واحد ، ولا هى صادرة من منطلق فكرى كامل الحسم والوضوح . ويدلل على رأيه هذا بمقالات من " العروة الوثقى " و " الخاطرات " .

٢ - المرحلة الثانية وهى آلتي نضج فيها الفكر القومى لدى الفليسوف الثائر(٢) وهنا أيضاً يستند فى تأييد رأيه على مقالات " العروة الوثقى " و " الخاطرات ".

---

(١) محمد عمارة ، الاعمال الكاملة ، ط١ ، ١٩٦٨ ، مرجع سابق ، ص ص ٤٢-٥٥ ،

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٥٨ - ٧٩ .

ويتضح مما سبق أن جل اعتمد كل من المحاولتين يستند إلى الفترة التي دبجت فيها مقالات " العروة الوثقى " ، وعلى الرغم من تجاوزها إلا أنها تظل هي الأساس المكين الذي يرتكز عليه كلا الباحثين في تحليله للفكر القومي لدى جمال الدين •

أما الدراسة ، فرؤيتها تختلف عن ذلك ، وترى - كما ألمحنا من قبل - أن جمال الدين كان ملتزماً بالتيار القومي منذ بداية شيوع أفكاره ، وحتى مماته ، بمعنى وجود الرؤية القومية لدى الرجل من قبل " العروة الوثقى " ومن بعدها ، تلك التي خفيت على الدارسين على اختلافهم ، وتكشفت للباحث ، ربما لأول مرة بعد طول مصاحبة الرجل ومعاناة أفكاره ••

هل نلقي بهذه المقولة اعتسافاً أو جزافاً ؟!

كلا ، وسبيلنا هو التعمق في دراسة أفكار جمال الدين في هذا الباب ، ومجابهة نصوصه ومواقفه وجهاً لوجه دون أن نلوي عنقه في التأويل أو التخريج ، وصولاً للحقيقة الموضوعية •

ولنترك جمال الدين نفسه يتكلم ••

(١) سنة ١٨٧٩ : (نص ينشر لأول مرة) :

في هذه السنة ألقى جمال الدين خطبة مهمة بمدينة الإسكندرية في جمع من شباب الإسكندرية والوجهاء والنبلاء بناء على طلبهم ••

وينبغي التنبيه إلى أننا نشير لأول مرة إلى الخطبة ، التي لم تنشر من قبل ولا حتى وجدنا إشارة لها لدى أي من الباحثين أو الدارسين حتى جامعي الأعمال الكاملة وناشريها ••

وقد نشرت تلك الخطبة بالعدد رقم (٤٧) من جريدة مصر ، الصادر بتاريخ السبت ٢٤ مايو ١٨٧٩م • الموافق ٤ جمادى الآخر ١٢٩٦ هـ

وهي خطبة طويلة ، سبقتها مقدمة قدمت بها جريدة مصر للخطبة ومهدت لها ، على أن الذي يعنينا من تلك الخطبة هو تلك الإشارات الواضحة التي تنم عن تيار قومي مبكر في فكر الرجل ، من مثل قوله :

" .. فكما أن قوام الأعضاء ونموها ، يكون بالقوة الحيوية تقوى بازديادها وتضعف بضعفها على نسبة واحدة ، كذلك جسم الأمة لا تحصل لطبقاته القوة إلا بروحه الحيوية التي هى عبارة عن الميل إلى المعالى ، والشوق إلى الكمالات ، وليس بخاف عنكم ما ألم بروح الجنسية فى الأمم الشرقية من الضعف والوهن المستلزم لضعف سائر الطبقات ، فلا تؤاخذوا من قام فيكم خطيباً إن رأيتم فى صوته تهدجاً وفى عبارته قلقاً ، وفى معانيه اضطراباً ، فما الخطباء إلا من طبقات الأمة آلتي ألم الضعف بروحها الكلى فسرى إلى طبقاتها وأعضائها ، ولهذا فاذا رأيتم فى خطابتى نقصاً فلابد من التجاوز عنه لكونى رجلاً شرقياً ."

ويلاحظ هنا حديثه عن افكار (الجنسية) و (النزعة الشرقية) ..

ومن المعلوم أن جمال الدين كان يطلق لفظ (الجنسية) على ما تعنيه بالقومية . ثم يواصل خطابه قائلاً :

" .. وإذا تقرر لى ذلك فإنى أشرع فى بيان المطلب فأقول :

لا أريد أيها السادة أن أذكركم بمجد آبائكم الكرام ، وأنكم إما أن تكونوا من أبناء المصريين ، أو من حفدة الفينقيين ، أو من سلالة الكلدانيين ، وأن المصريين قد بلغوا من الهندسة ذروتها ، ومن الحساب غايته ، ومن المساحة قاصيتها ، ومن فن جر الأثقال منتهاه ، وعلموا اليونان الحكمة والفلسفة ...، ولا أذكركم بالفينقيين وأنهم وضعوا أصول الصناعة ، وخاضوا أعباب البحار ، وكانت إنجلترا واليونان من مستعمراتهم ، ... ، ولا أعيد ذكر الكلدان جدودكم الأول الذين أنشأوا صناعة النحت ، وقسموا الفلك بالدوائر ... الخ ... ، لا أذكركم بجميع ذلك لأنكم تعلمونه علم اليقين ولا تخافون فيه منكرا أو معترضاً فإن الهرمين والمسلات وأعمدة الكرنك تفقأ بأصابعها الدهرية أعين المعترضين الذين يرمون الشرقيين بالهمجية والنقص فى النظرة ، وأن تلول نينوى وأطلال صور وبعلبك ومنفيس وثنية ما بقيت إلا لتثير الغبار على أبصار المفكرين الذين نظرون إلينا بعين الاستخفاف والاحتقار ، .. "

يلاحظ هنا عمله على إثارة النعرة القومية ، مع شمول نظرته إلى وحدة الشعوب عن طريق تحديد الخطر الواحد الذى يتهددها جميعاً .

ثم نقترب أكثر من بيت القصيد فيما نحن بصدده ، فنراه يسترسل حتى يصل لقوله : " .. وحيث أنا شعرنا بالألم ، وعلمنا بسقوطنا في هذه المهواة ، وأن انفسنا تميل إلى الخروج منها ، فلابد لنا من البحث عن الدواء الحقيقى لهذا الداء الحادث ، فإذا رجعنا إلى بصيرتنا التوازنية وفطرتنا الأصلية علمنا بأنه لا يمكن الخروج عن هذه الخطة إلا بالسبب ، فان المتحرك لا يسكن ، وأن الساكن لا يتحرك إلا بالعلة ، ولا أرى لخروجنا من علة سوى الغيرة ، فهى المحرك للنفوس الداعية إلى المجاراة والمباراة والباعثة على الاهتمام والإقدام على قدرها تأتى العزيمة ، وترتفع القيمة وعلى حسب تأصلها فى الأنفس وضعفها يكون صعود الأمم إلى معارك العز والثروة ، وهبوطها إلى دركات الذل والفاقه .... ولا شك أن الغيرة لا تحصل إلا بتحزب من الوطنيين يعلمون أن لا شرف لهم إلا بجنسيتهم ولا قوة لأمتهم ألا بوطنهم ، ....

" ... ولا شك أنكم تعلمون أن الحزب الوطنى لا تحصل له القوة ولا يكون له البقاء مالم يكن لأهل الوطن لغة جامعة مهذبة التراكيب جيدة الأساليب ، فان لم يكن لهم ذلك لا تستقر فيهم المعارف ولا تقيم باحيائهم العلم ، وا، ذهب جماعة كثيرة منهم الى أوروبا ، وتعلموا اللسان الأجنبى ، فإن معارفهم المكتسبة تكون سريعة الزوال ، ووطنهم يكون كالبلد الذى لا ماء فيه يجلب لأهله الماء من ضواحيه ، فهو عرضة للظمأ وسوء الحال وأهله على شفا الاضمحلال ... " ها هنا حديث عن فكرة الجنسية - والتي ألمحنا قبلا إنها ترادف القومية عند جمال الدين - ، وإشارة إلى فكرة اللغة بمثابة القوة الجامعة الضمينة على البقاء .

(٢) سنة ١٨٨٣ : (رده على رينان) :

من أبرز المعالم فى تاريخ جمال الدين ، إبان إقامته فى باريس ، اتصاله بالفيلسوف الشهير " رينان " وإعجاب كل منهما بالآخر - ، ودخولهما معاً فى معركة حول الإسلام والعرب ، وقد فتحت جريدة " الديبا " الفرنسية الشهيرة

---

(1) Renan, L'Islamisme et la Science, Paris, 1883. P.p. 2-3.
عن : Hourani Op. Cit., P, 120 - 390.

صدرها لهذه المعركة .

فقد ألقى الاستاذ " رينان " فى السربون محاضرة [1] تناولت ثلاث نقاط :

١ - " خطأ المؤرخين فى قولهم (علوم العرب ، فنون العرب ، وتمدن العرب ، وفلسفة العرب) مع أن هذه الأشياء نتاج الأمم غير العربية أكثر منه نتاجاً للأمة العربية " .

٢ - " إن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لهما"

٣ - " إن العنصر العربى بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها " [1] .

بعد بضعة أسابيع من نشر محاضرة رينان ، رد السيد جمال الدين عليه فى جريدة " الديبا " أيضا ، [2] فأخذ يبرهن على تقدم العرب العلمى ، وفضلهم على الغربيين ، مؤكدا على مزايا العرب الذهنية ، وحبهم الطبيعى للعلوم فكان مما قاله : " ... وقد كان الفرنسيون والإنجليز والألمان لا يبعدون عن رومة وبيزنطة بعد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا ، حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب ، فأحسن الأوروبيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة العربية ، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو فى ثوبه اليونانى على مقربة منهم .

أو ليس هذا برهاناً آخر ناصعاً على مزايا العرب الذهنية وحبهم الطبيعى للعلوم ؟ وبينا يسلم مسيورينان بأن البلدان السلامية فى غضون خمسة قرون منة سنة ٧٧٥م الى أواسط القرن الثالث عشر كانت تحتوى علماء ومفكرين عظاماً ،

---

(١) انظر : احمد امين : زعماء الاصلاح ، مرجع سابق ، ص ص ٨٦- ٨٧ .

(2) J. des Debats, 18 May, 1883.

كما وردت فى الترجمة الفرنسية لكتاب جمال الدين (الرد على الدهريين)، ص ١٨٥، انظر : Hourani, Op. Cit., P. 122.

وأنظر : الترجمة العربية فى : احمد امين ، زعماء الاصلاح ، مرجع سابق ، ص ص ٨٦ - ٩١ .

وأن العالم الإسلامي إذ ذاك كان يفوق العالم المسيحي في الثقافة الذهنية إذ يقول: إن اكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا كتابهي السياسيين من أصل حراني ، أو أندلسي ، أو فارسي ، أو من نصارى الشام .

" وليست أريد أن اغمط علماء الفرس صفاتهم الباهرة ، ولا أن أغض الطرف عن الدور الجليل الذى لعبوه فى العالم الإسلامي ، ولكن أرجو أن يسمح لى أن ألاحظ أن الحرانيين كانوا عربا ، وأن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عرباً ، وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرانيين وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهي " الصابئة " ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية ، وقد كانت أكثرية نصارى الشام عرباً غسانيين اهتدوا بهدى النصرانية . أما ابن باجه ، وابن رشد وابن طفيل ، فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندى بدعوى أنهم لم يولدوا فى جزيرة العرب، وخصوصاً إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز أمة عي أخرى إلا بلغتها " .

يذهب بعض الدارسين إلى أن جمال الدين قد أقر بالواقع القومي والتمايز القومي (على أساس اللغة) للشعوب ، وللشعوب الإسلامية بالذات ، كما تضيف أنه قد دافع عن الطابع العربي وبرر اللقب العربي للحضارة الإسلامية في مجادلته مع إرنست رينان [1] .

وترى بعض الدراسات في الرد السابق لجمال الدين على رينان ، فكراً قومياً واضحاً وناضجاً ، بل ودفاعاً عن العرب والعروبة بالذات ، وهو أمر له دلالة ، بل ما أحراه بمثابة الإرهاص لذلك النضج القومي ، ولهذا الدفاع عن العرب والعروبة ومقومات قوميتهم ، فيما بعد هذه المرحلة من مراحل تفكير جمال الدين ، الذى يقدم لنا - حسبما تراه الدراسة في هذا الرد - فكراً عميقاً يتعلق بقضية الأجناس مدافعاً عن عروبة جماعات وأقاليم يريد " ينان " أن يسلبها من العروبة فيسلبنا مجدها الحضارى والثقافى ..

---

(١) الياس مرقص : نقد الفكر القومي ، ج١، ط١، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٦، ص٤٧٠

ثم تلفت الانظار ، بل وتطلب من الجميع إمعان النظر في عبارته الحاسمة آلتي تقول إنه " لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها " لأن هذه العبارة تقود جمال الدين – في رأيها – إلى ساحة التفكير القومي الناضج ، وتمهـــد لأصالة تفكيره القومي [1] .

والدراسة وإن كانت قد سبق لها الاختلاف مع هذه الدراسة في تقسيمها للفكر القومي لدى جمال الدين الى مرحلتين ، إلا انها الآن يمكنها إلا تعد رأيها مختلفا معها ، بل هو إضافة إليها ، بعد الاتفاق معها فيما ذهبت إليه بهذا الصدد بالذات ..

وبعد .. فلنا ملحوظتين ... نوردهما بصدد النص الذي ذكرناه من رد جمال الدين على رينان ، آنفا :

١) نلاحظ أن اللغة ، وليس الدين ، هي آلتي تعد في نظر جمال الدين ، علامة الانتماء للجنس وأساسه وسنده .

وتتضح دلالة هذا وأهميته ، اذا ما وضعنا في اعتبارنا ، ما ذكرناه من قبل، من أن السيد جمال الدين يستخدم كلمة " الجنسية " بما يعني " القومية " في المفهوم المعاصر .

٢) عبارة جمال الدين أنه " لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها " عبارة حاسمة ، وبينه لا تحتاج إلى تعليق مسهب ، كي تضع تحت أنظارنا دلالة واضحة على النزوع القومي لجمال الدين .

(٣) سنة ١٨٨٤ : (جريدة العروة الوثقى) :

في هذا العام وضع السيد جمال الدين خطة لبث ما يرومه من الإصلاح ، وكانت خطته هي إنشاء جريدة عربية في باريس ، وكان من هذا جريدة " العروة الوثقى " يكون لجمال الدين فيها الأفكار والمعاني ، وللشيخ محمد عبده التحرير والصياغة ، وميرزا محمد باقر يعرب لها عن الصحف الأجنبية كل ما يهم العالم

---

(١) أنظر : محمد عمارة ، الأعمال الكاملة ، ط١، ١٩٦٨ ، مرجع سابق ، ص ص ، ٤٨- ٤٩ .

الشرقى [1] .

فى بداية الجريدة ، وتحت عنوان " لماذا صدرت الجريدة [2] " يقول : " هذا ما تمده العناية الإلهية من قول الحق ، متعلقاً بأحوال الشرق ، وعلى اللـه المتكل فى نجاح العمل " . ثم يسترسل فى بيان ما اعترى الشرق من ضعف ووهن إلى أن يقول :

" ... أبعد هذا يأخذنا العجب إذا أحسسنا بحركة فكرية فى أغلب أنحاء المشرق فى هذه الايام " .

" ... بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته ، خصوصاً فى المسلمين منهم " [3] .

ثم يسترسل إلى أن يصل لقوله : " ... إلا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند إلى مكة، ومن مكة إلى مصر والكرير الممتد من مصر إلى مكة ، ومن مكة إلى الهند "

" ... إن الرزايا الأخيرة آلتي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة " [4] .

إلى أن يقول : " تألفت عصابات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار خصوصاً البلاد الهندية والمصرية " .

" ... طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم بين من خفى عنه شأنهم من إخوانهم

---

(1) صدر من الجريدة ثمانية عشر عدداً فى ثمانية أشهر ، ظهر العدد الأول منها فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ = ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م ، وظهر العدد الأخير فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١هـ = ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ . وقد توقفت بسبب محاربة الإنجليز لها .

(2) أنظر : ص ١ ، من المجلد الذى يجمع أعدادها تحت عنوان : العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى ، ط١، دار العرب للبستانى بالفجالة ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، وهى الطبعة آلتي نعتمد عليها بعد مقارنتها بطبعة بيروت ، ١٩٧٠ .

(3) العروة الوثقى ، ص ٣ .

(4) المرجع السابق ، ص ٥ .

واختاروا أن يكون لهم فى هذه الايام جريدة بشرف اسان عندهم وهو اللسان العربى " (١) .

وبعد ذلك ، وتحت عنوان :

الجريدة ومنهجها :

يقول : " سيأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الإمكان من بيان الواجبات آلتي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف وتوضيح الطرق آلتي يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آتٍ "

ثم يواصل قائلاً : " ... وإن الظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول آلتي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ... ولا ملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوروبى فى نهايته " (٢) .

" ... ويهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة ، ... ولا تهن فى تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون فى شئونهم مع اختيار الصادق وانتقاء الثابت(٣)

ويقول فى مقاله : ..

(الوحدة الإسلامية) :

" ... هذا الذى أباد مسلمى الأندلس ، وهدم أركان السلطنة التيمورية فى الهند ومحا أطلالها وعلى رسومها شيد الانجيز ملكهم بتلك الديار " (٤) .

" ... ، إن من أدرنة إلى بيشاور (الأولى فى المغرب بتركيا والثانية فى المشرق ببلاد الافغان) دولاً إسلامية متصلة الاراضى " (٥) .

وبعد ذلك بفترة يتحدث تحت عنوان : " العروة الوثقى توزع مجاناً "

---

(١) المرجع السابق ، ص

(٢) المرجع السابق ، ص٧

(٣) المرجع السابق ، ص٨

(٤) المرجع السابق ، ص٦٩

(٥) المرجع السابق ، ص ٧٢ وما بين القوسين من عندى .

" تأتى فصولها على أهم ماله أثر فى أحوال الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً فلا تلام إذا أطنبت فى مسألة شرقية عامة ولا إذا أغفلت ذكر بعض أخبار من أمريكا وجابونيا " [1] .

وتحت عنوان : " العروة الوثقى "

مصادرتها فى مصر والهند وفرض غرامة على قرائها !! " :

يقول : " ... أما نحن فلا نظن أحداً من الوزراء المصريين له رأى اختيارى فى هذا القرار ، بل لا نتوهم فى المستوى على كرسى الخديوية ميلاً إلى مثل هذا الحكم ولا يختلج فى صدورنا أن مصرياً من أى مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم ، بل ولا شرقياً ممن يسكن تلك البلاد يرى فيها جانباً من العدل .

" هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم ولها سعى ، بل كان السعى لخيبة آمال أعدائهم ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح فى عمرو فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا وإنما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد . تلتمس من أبناء الأمم الشرقية ان يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى آلتي فغرت أفواها لالتهامهم .

ومن رأيها أن الأشغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق التأهب .

هذا منهاج العروة الوثقى علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها إلى الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقياً مصرياً أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره " [2] ويواصل حديثه بعد ذلك ، إلى أن يصل إلى خاتمة المقال ، فيقول :

" لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع العروة الوثقى من دخول القطر المصرى وليعلموا أن

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

الحكومة المصرية لا دخل لها فى هذا المنع - فإن حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شئ منها سوى الدفاع عن الشرقيين وإنما منشوه حكومة إنجلترا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها "[1] .

والملاحظ من كافة الامثلة السابقة والتى أوردناها على سبيل المثال لا الحصر ، أن جل حديث جمال الدين ينصب على الأطار الشرقى ، فحديثه يدور حول الشرق ، والشرقيين ، وأمم الشرق ، وحتى إذا ما تناول الإسلام فى حديثه، فانما يتناوله داخل الإطار الشرقى .

وعلى الرغم من أن تناوله للإسلام جاء لماماً ، فى إطار تناوله للشرق وأحواله فإنه يخشى أن تساء به الظنون ، وتنتابه شبهة الابتعاد عن الإطار الشرقى ، لهذا فإننا نراه يقف مبرراً تناوله القليل للإسلام بين حين وآخر ، فيقول معتذراً : " لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما نميل إليه ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً من تطاول الأجانب عليهم والأفساد فى بلادهم وقد نخص المسلمين بالذات لأنهم العنصر الغالب فى الأقطار آلتي غدر بها الأجانب واذلوا أهلها أجمعين وأستأثروا بجميع خيراتها "[2] فجمال الدين يقولها بصراحة ووضوح ، إن الجريدة لا تذكر المسلمين إلا لأنهم العنصر الغالب في البلاد المرزوءة بالاستعمار .

ولو عدنا بأنظارنا مرة أخرى إلى العدد الأول من الجريدة ، لنفحص أهدافها وأهم أغراضها ، وجدناها تتخلص فى الآتى :

(١) بيان الواجبات على الشرقيين آلتي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق آلتي يجب سلوكها لتدارك ما فات .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٨ .

(٢) العروة الوثقى ، مرجع سابق ، ص ٢٣٢ .

ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشئ العلل آلتي أفسدت حالهم ، وعمت عليهم طريقهم • وإزاحة الغطاء عن الأوهام آلتي حلت بهم •

(٢) إشراب النفوس عقيدة الأمل فى النجاح ، وإزالة ما حل بها من اليأس •

(٣) دعوتهم إلى التمسك بالأصول آلتي كان عليها آباؤهم وأسلافهم ، وهى ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب •

(٤) الدفاع عما يرمي به الشرقيون عموماً والمسلمين خصوصاً من التهم ، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون فى المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم •

(٥) أخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة •

(٦) تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وتمكين الألفة بين أفرادها ، وتأمين المنافع المشتركة بينها ، ومناصرة السياسة الخارجية آلتي لا تميل إلى الحيف والأحجاف بحقوق الشرقيين [١] •

فمن الواضح مما سبق أن الجريدة تخاطب الشرقيين فى المقام الأول ، جميع الشرقيين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم كما وليس من بين أهدافها ، هدف الجامعة الإسلامية •

ولا نريد تكرار ما سبق ان ذكرناه بصدد الجريدة ، كى تتضح الصورة أكثر، ويمكن الرجوع اليه [٢] •

بالاضافة لما سبق ، ينبغى ألا نغفل عن الصبغة السياسية آلتي اصطبغت بها الجريدة ، فالعروة الوثقى كانت تعبيراً عن سياسة جمعية سياسية سرية حملت نفس الاسم ، وانتشرت تنظيماتها فى عدد من بلاد الشرق ، وبالذات تلك آلتي أصيبت باحتلال إنجلترا لأوطانها ، وخاصة مصر والهند ••• فهى من هـــذه

---

(١) المرجع السابق ، الجريدة ومنهجها ، ص ص ، ٧ – ٨ •

(٢) راجع اتجاهات تقييم فكرة " الجامعة الإسلامية " والتعقيبات عليها ، فى هذا الفصل •

الزاوية تعبير عن تنظيم سياسى ، نطقت علنا ببرنامجه السياسى السرى (١)

(٤) سنة ١٨٩٢ -١٨٩٧ : (الخاطرات) :

ثمة كتاب بعنوان : (خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى) ، من تأليف محمد باشا المخزومى يقول مؤلفه : " إن هذا الكتاب (خاطرات جمال الدين) قد كتبت مواضيعه فى دور السلطان عبد الحميد ، ما بين سنة ١٣١٠ هـ -١٨٩٢م، إلى سنة ١٣١٤ هـ - ١٨٩٧ م ، على كمال الاحتراز ، بل الخوف من شدة المراقبة ، ووفرة الجواسيس ، وكثرة الافتراء فى ذلك الزمن على الأبرياء خصوصاً على السيد جمال الدين ، وعلى من كان يكثر الاجتماع عليه ، أو يدخل بيته " (٢) ويقول فى ختام الكتاب : " تمت مواضيع كتاب " الخاطرات " التي كتبت فى الأستانة ما بين سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م الى سنة ١٣١٤ هـ - ١٨٩٧ م ، وقد بذلنا كل الجهد ، وحرصنا جد الحرص - كما يرى المطالع - لحفظ وتدوين كل خاطرة ، وكل قول لذلك الإمام الحكيم ، والأستاذ الكامل المرحوم المبرور السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى ، فجاء بعونه تعالى سفراً جامعاً لشتات الحكم وصائب الآراء فى أدواء الشرق وما يعانيه أهله من العلل الاجتماعية ، ونرجو الله أن ينفعنا جميعا بعلوم من صدرت عنه تلك: " الخاطرات " وما حوته من جليل الأقوال وبالغ النصيحة ٠ وأن يسكنه فسيح جناته ، ويعامله بجزيل فضله وإحسانه " (٣) ٠

ويتبين لنا مما سبق أن هذا الكتاب يوضح لنا آخر آراء جمال الدين ، فى الفترة من علم ١٨٩٢م حتى وفاته فى علم ١٨٩٧م ٠

---

(١) أنظر : محمد عمارة : جمال الدين الافغانى : الإعمال الكاملة (دراسة وتحقيق)، جـ١ الله ٠٠ والعالم ٠٠ والإنسان ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٦٧ ٠

(٢) محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الافغانى الحسينى ، ط٢ دار الفكر الحديث ، لبنان ، ١٩٦٥، ص ١ ٠ وسيكون جل اعتمادنا على هذه الطبعة ٠

(٣) الخاطرات ، مرجع سابق ، ص ٢٨٨ ٠

وأول ما نلحظه في هذا الكتاب هو التأكيد على آراء " العروة الوثقى " وعلى منهجها .. حيث نرى جمال الدين يقول : " ... ياشيخ بني مخزوم !! إنك ترى بين هذه الوريقات " العروة الوثقى " أمثلة تنطق ، وقضايا تصدق على الشرق وأهله ، ماداموا في تلك الغفلة ، وفي ذلك الشقاق والنفاق ، ورضاهم في الذل خوق الذل " (١) ويقرر المخزومي مؤلف الكتاب ، أن جمال الدين قد أتى على بيان منهج " العروة الوثقى " وأعاد ذكره له عندما عزم – أي المخزومي – على إصدار جريدة " البيان " في الأستانة عام (١٣١١ هـ ، ١٨٩٣م) وما أحراه أن يكون دستوراً لكل جريدة شرقية ، حيث قال : " ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان من بيان الواجبات آلتي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق آلتي يجب سلوكها لتدارك ما فات ، والاحتراس من غوائل ما هو آت ... الخ منهج العروة الوثقى وأهدافها " (٢) .

كما نلمح تأكيداً على فكرة عدم ذكر المسلمين إلا لأنهم يشكلون إغلبية ، وبالتالي تأكيداً أوثق على فكرة المحور الشرقي ، يقول المؤلف في مقدمته لدى حديثه عن جمال الدين :

" ... شديد البعد عن التعصب ، نفوراً منه ، وأن ذكر المسلمين في أكثر مقاله ، ذلك لأنهم العنصر الغالب بأكثريته في الشرق ، والملة المسلوبة ممالكها ومقاطعاتها ، ولهذا أكثر من إيقاظهم ، وتنبيههم وتقريعهم ، إلا فهو أكثر الفلاسفة توسعاً بمعنى المساواة ، وميلاً للعمل بها فعلاً بين نوع الانسان ، خصوصاً في الحقوق العمومية آلتي لا يصح لها معنى إلا بالحرية المعقولة . يهمه الشرق والشرقيون على السواء ، وبدون إستثناء " (٣) .

وإثباتاً لقول المخزومي السالف ، فإننا لتجد في خاطرات جمال الدين من النصوص ما يؤكد على فكرة الإطار الشرقي لديه .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٢٦٨ – ٢٧٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦ .

فهو يقول خلال حديثه عن غرضه الأسمى في حياته " ... ثم جمعت ما تفرق من الفكر ، ولممت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتني الأفغان ، وهي أرض مس جسمي ترابها ، ثم الهند ومنها تثقف عقلي، فإيران بحكم الجوار ، والروابط وإليها كنت صرفت بعض همت ، فجزيرة العرب ، من حجاز مهبط الوحي ومشرق أنوار الحضارة ، ومن يمن وتبابعتها ، وأقيال حمير فيها ، ونجد ، وعراق ، وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها والأندلس وحمراؤها ، وهكذا كل صقع ودولة من دول الإسلام في الشرق وما آل إليها أمرهم فيه اليوم .

فالشرق ! الشرق ! وقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه ، وتحري دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض في سبيل توحيد الكلمة فيه ، داء انقسام أهليه وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على إلا يتفقوا ، ولا تقوم على هذا لقوم قائمة " (١) .

ويقول في إبداء رأيه في الانجليز وفي الحجر الذي يطبقه الغربيون على أهل الشرق : " ابتدئ بوصف الانجليزي على أقصر الطرق ، فهو قليل الذكاء ، عظيم الثبات كثير الطمع والجشع ، عنود ، صبور ، متكبر .

والعربي أو الشرقي كثير الذكاء ، عديم الثبات ، قنوع جزوع ، قليل الصبر متواضع ... كل هذا يدل صراحة على أن الأمة العربية خصوصاً ، والمسلمين عموما أحوج إلى الصبر والثبات من كل ما في الاخلاق المؤدية للسعادة البشرية.

... إن هذه الانواع من المعالجات في الشرق اذا كنت ارى منالها اليوم بعيدا ، ذلك لسقوط الهمم ، وخور العزائم ، وتفرق الكلمة ، والاستسلام للخمول، وبعد النفوس في معظم الشرقيين عن مرامي العزة النفسية ، وحرمانهم من لذة ما تنبسط به الروح عند نوال المنعة القومية ، والحرية الحقيقية ، وما في عزة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٨

الحاكم الفرد من الحول والطول ، بقوة مجموعة - ولو كان صعلوكا - على الجمهور المحكوم ، ذلك الجمهور الشرقى اليوم المستكين للمهانة ، الخاضع للقوة الموهومة آلتي يتخيلها هولاً هائلاً أو غولاً آكلاً " (1) .

ونراه بعد ذلك يتناول الشرقيين على أنهم " يضمون العربى ، أو الفارسى ، أو الأورد الهندى ... الخ (2) " .

ويقول فى حديثه عن مصر :

" ... كاد ان لا يخلو سطر من " العروة الوثقى " إلا وفيه ذكر " مصر " ولا براهين وأدلة على ظلم الإنكليز إلا ويتمثل فى مصر " ولا خوف من شر مستطير يفكك أجزاء السلطنة العثمانية إلا ونراه فى التهاون فى أمر " مصر " . ذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له فى جسم الأمة الإسلامية ، والعرب عموماً نغولاً ، وبعروقها اتصالاً .

ولا يفوتن أهل الشرق العلم بأن كل مدينة ، وكل مقاطعة اسلامية شرقية هى بمنزلة " مصر " وإن لم تسقط تحت حكم أهل المطامع اليوم ، فالشراك لها منصوبة السقوط - والعياذ بالله - قريب ، إلا إذا نشطت العقول ، وعملت أولو العزائم ، ولمت الأمم الشرقية شعثها ، ووحدت كلمتها ، وطلبت حفظ ملكها بأسبابه ، وعزة الحرية والاستقلال بمؤهلاتها " (3) ويكرر فى مواضع اخرى :

" ... تفرقت كلمة الشرقيين عموماً ، والمسلمين خصوصاً ، وهم أصحاب الملك المسلوب والمال المنهوب " شرقاً وغرباً ، وكاد يتقطع ما بينهم " (4) .

" ... وهكذا لا تزال تسمع كلاً من العربى والفارسى وغيرهما من الشرقيين ، يقول : نحن أحفاد أولئك الاجداد ، ونحن سلالة وذرية أولئك الاقيال

---

(1) المرجع السابق ، ص ص ٨٠ - ٨٤ .

(2) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(3) المرجع السابق ، ص ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(4) المرجع السابق ، ص ١٩٨ .

والأمجاد ، ونحن ، وحن ، مما يثير الأشجان ويزيد الأحزان " (١) .

" ... بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته خصوصاً فى المسلمين منهم " (٢) .

ومن كل ما سبق يتبين إصرار جمال الدين وتأكيده على لباب آراء العروة الوثقى، وخاصة الاهتمام بالشرق وأحواله ، والتركيز على فكرة الإطار الشرقى، كموجه استراتيجى لكافة جهوده وآرائه . إلا أن ثمة ما يلفت النظر أيضاً ، بالإضافة لما سبق ، فنجد فى كتاب الخاطرات بحثاً مهماً يورده المخزومى تحت عنوان :

" رأيه فى كيفية تربية الطفل الذى سيكون رجل المستقبل "

نجد فيه كلاماً لجمال الدين عن " الوطنية " و " حب الوطن " وعن المدارس الأميرية والأجنبية وعن المدارس الأهلية الوطنية ، وهو يقول فى سياق الحديث:

" أما الدين ، فعلى قسمين : قسم عبادات ، وقسم معاملات .

" فالعبادات يؤديها الإنسان لربه بمعزل عن كل احد ، فلا يعارض غيره بها ، ولا غيره يعارضه . إن لكل وجهة هو موليها . والله رب العالمين ، لارب اليهود فقط ، ولا النصارى فقط ، ولا المسلمين فقط ، وهو الذى خلقكم من نفس واحدة " . " وأما المعاملات فهى شرع بين العموم ، يعمل أبناء الطوائف على خير متكاتفين ، متعاونين . يشتغلون فى المدرسة إخواناً ، ويخرجون منها إخواناً يحملون بين أفئدتهم شعور الولاء والإخلاص ، ولا يحل ما ارتبطوا به من روابط المحبة الوطنية قرب ولا بعد ، ولا ينسون عهد الصبا وذكراه . بل يكونون فى جسم الوطن كأعضاء الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تألم له المجموع من الجوارح . كيفما ساوروا ، وأينما حلوا ، فلا يرون إلا وحدة من سماء ، وأرض ، وماء ، وحب لوطن واحد . ولا تبلبل ألسنتهم مختلف اللغات ، ولا تشتت كلمتهم تباين النزعات ، ولا تفعل فيهم أهواء أولى الغايات من أرباب

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

تلك المدارس والمعاهد ، – او – إن شئت قلت : تلك المصايد ، وإن كان منها بعض النفع " [1] .

ويلاحظ فيما سبق ، أن فكرة " وحدة الوطن و " وحدة اللغة " تكتسب فى هذا السياق ، خطورة خاصة ، متجاوزة بذلك مرحلة " العروة الوثقى " .

إلا أنه كيفما كان الامر ، وفوق كل ما سبق ، يباغتنا كتاب الخاطرات ، بنصوص وأقوال لجمال الدين ، جد خطيرة وحاسمة فى آن ، فأنظر الى آرائه فى خطورة " اللسان " و " أهمية اللغة " :

" ... لكل لسان آداب ، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الاخلاق وعلى حفظها تتكون العصبية " [2] .

" ... هذا بعض مالآداب اللسان من التأثير المادى ، وأما التأثير المعنوى فيكفى أنه من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات ، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر – فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة ، وترقبت الفرص ونهضت بعد دهر فردت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها ، والعامل فى ذلك إنما هو اللسان ، قبل كل ما سواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم ، وظلوا فى الاستعباد ماشاء الله" [3] .

هل أفلحت الكلمات السابقة فى إبراز مدى خطورة وأهمية فكرة " اللسان " و " اللغة " كركيزة للوحدة وأساس للتجمع ؟

إن كان لازال ثمة شك أو توجس ، فلننظر للنص التالى ، والذى يبدو وكأنما جمال الدين يزيل به فى حسم أى شك أو لبس :

" لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحى آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم ، وتنسج على منوالهم .

---

(1) المرجع السابق ، ص ص ٨٧ – ٨٩ .
(2) المرجع السابق ، ص ٥٨ .
(3) المرجع السابق ، ص ٥٨ .

وهذا كله يتوقف على تعليم وطنى يكون بدايته " الوطن " ووسطه " الوطن " وغايته " الوطن " ! .

ويجب أن يكون الوطن فى مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية : اثنان فى اثنين، يعملان أربعة – فلا تستطيع المذاهب ، أو الطوائف أن تدعيها خاصة ، ولا أن تحاول نقضها .

هذا هو الوطن ، وهكذا يجب ان يكون التعليم الوطنى "(١) .

يلاحظ للوهلة الاولى ، أن " اللسان " يتبدى كبؤرة للتجمع ، أو هو بمثابة القاعدة آلتي يتأسس عليها هرم السودد والمجد الحضارى لأية امه .

على أنه قد تبقت ملحوظة على درجة من الأهمية فيما نحن بصدده ، ينبغى التنبيه عليها قبل أن نصل إلى ختام هذا الفصل .

لجمال الدين مقالة مكتوبة باللغة الفارسية ، تتصل إتصالاً وثيقاً بموضوع الفكر القومى لدى جمال الدين . وكان من فضل الله تعالى ، أن من علينا ، يلفت انظارنا إليها من خلال إشارة عن تلك المقالة ، بينما كان واجب الأمانة والبحث العلميين ، أن نجدها بين أيدينا بأكملها (٢) .

وقد تمت ترجمة تلك المقالة من اللغة الفارسية ، إلى اللغة التركية ، بقلم "رسول زادة أمين " ، ونشرت فى استانبول ، فى مجلة " تورك يوردى " – أى "موطن الترك – عام ١٩١٣ م . كما تمت ترجمتها إلى اللغة الفرنسية ، بقلم " مهدى هندسى " ونشرت فى مجلة " الشرق .. Orient " فى باريس عام ١٩٥٨، وقد اعتمدنا عليها .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٦ .

(٢) من أوجه العجب ، إننى لم أعثر على ما يمت بأية صلة لتلك المقالة – على الرغم من أهميتها وخطورتها العلمية – إلا لدى اثنين من الباحثين فقط ، بينما لم اجد ، حتى ولو مجرد إشارة أو تلميح غير مباشر إليها ، فيما سمى : الأعمال الكاملة للافغانى .

أنظر الإشارة لتلك المقالة المهمة فى :

١ – ساطع الحصرى ، ماهى القومية ، المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

2 - Hourani, Op Cit., P. 118 .

وقد صدر جمال الدين المقالة بمقدمة موجزة باللغة العربية ، هذا نصها :

" لا سعادة إلا بالجنسية ٠٠ ولا جنسية إلا باللغة ٠ ولا لغة مالم تكن حاوية لكل ما تحتاج اليه طبقات أرباب الصناعات والخطط فى الإفادة والاستفادة "

والدلالة الصريحة لهذه المقدمة العربية ، واضحة ، فى أن " الجنسية " – أى القومية – هى أساس السعادة ، وإن أساس الجنسية هو " اللغة " ٠

يقول جمال الدين بعد ذلك :

" إن الروابط آلتي تربط جماعات كبيرة من الناس اثنتان : وحدة اللغة ، ووحدة الدين ٠

" وحدة اللغة ، هى الاساس الذي تقوم عليه الجنسية "

" واللغة أشد ثباتا ، وأكثر دواما من الدين "

" لأننا نعرف أمما غيرت دينها – خلال الف عام – مرتين ، بل وثلاث مرات ، دون ان يطرأ خلل على وحدتها اللغوية والقومية " ٠

" فنستطيع أن نقول ، لذلك : إن تأثير رابطة الغة – في هذه الدنيا – أقوى من تأثير رابطة الدين " ٠

وعلى هذا الأساس تسترسل المقالة فى الدعوة إلى استنهاض الهمم للعناية باللغة القومية ، وللتدريس بها ، مع ترجمة أمهات الكتب العلمية والأدبية إليها ٠

إن جمال الدين هنا ليظهر بمظهر القومى السافر ، الذى يعتمد أهمية الروابط القومية وغيرها من الروابط الطبيعية ٠٠

فهو يقرر فى هذه المقالة ، بأنه فى مقدور الجماعة القائمة على الفضائل البشرية والخاضعة لتدبير العقل البشرى أن تستقر استقرار الدولة القائمة على الدين ، لا بل فى مقدورها أن تكون أكثر استقرارا ، فتبقى بعد أن يتبدل الدين مرتين أو ثلاث ٠٠

كما وأنه يرى أن الغة تمثل عنصراً جوهرياً فى خلق أية جماعة مسترقة ، إذ أن المجتمعات البشرية آلتي لا تجمعها لغة مشتركة لا يمكن لوحدتها أن تتصف بالثبات ٠

بل إنه من السهل على الجماعة ألتي تفتقر إلى لغة خاصة تعبر بها عن معرفتها ومهارتها أن تخسر ما هى عليه من المعرفة والمهارة [1] .

والأمر الذى لاشك فيه ، هو أن هذه المقالة ، رغم ما تثيره من مشكلات ، ورغم أننا قد أفردنا للحديث عنها هذا الجزء ، دونما أدراجها فى أية مرحلة من مراحل تطور الفكر القومى لجمال الدين [2] ، إلا أن هذا لا يمنع من كونها شاهداً لا يستهان به ، بصدد الفكر القومى لجمال الدين .

وأنها – بالإضافة لكل ما سبق أن أوردناه من نصوص جمال الدين – على سبيل المثال ، لا الحصر – تشكل دلالة إن لم تكن حاسمة ، فهى من القوة بما يدعو للقول بأنه لم يعد ثمة من داع للتشكك فى توفر الفكر القومى بل وأصالته لدى جمال الدين .

---

(١) أنظر الترجمة الفرنسية للمقالة بأكملها فى :
Al-Afghani, "philsophie de L'union National, " Orient, vi (1958), 123. FF.

(٢) إن المظهر القومى السافر الذى ظهر به فكر جمال الدين فى تلك المقالة ، ليقف على طرفى النقيض مع كثير من أراء جمال الدين المعروفة ، ولنقارنه مثلا بمقالة عن " الجنسية والديانة الإسلامية " بالعروة الوثقى ، وما شابهها فى المضمون ، ليثور هذا التساؤل القوى على الفور :

ما هو سر هذا التناقض والاختلاف الكبير ؟!

– هل كان جمال الدين، ينادى فى كل بلد وبكل لغة ، بما يخالف تماماً ما ينادى به فى بلد أخرى وبلغة أخرى ؟

– هل تمثل هذه المقالة مرحلة أخيرة من تطور رأى جمال الدين ، بصدد قضية القومية على مرور الزمن ؟

الحق أننى ، وللأسف الشديد ، لم أتمكن من التوصل لمعرفة تاريخ كتابة هذه المقالة على وجه الدقة ، فى أصلها الفارسى ، كما ظهرت لأول مرة ، حتى يمكننى تحديد الفترة الزمنية الفاصلة بين كتابتها وكتابة غيرها من المقالات العربية .

وبذلك لم يتوفر لدى السند العلمى الذى يمكننى من إبداء رأيى فى حسم هذا الامر .

خاتمـــــــــــة :

وبعد كل هذا ، وكيفما كان المستوى الفكرى لها ، والاستراتيجية الموجهة لغايتها ، ما هو المصير الذى آلت اليه " الجامعة الإسلامية " ؟!" -

يقول " جب " Gibb إن الجامعة الإسلامية حين وضعت ين ملجأ دقيقاً للعالم الإسلامى إنما اقتبست من الآراء الرجعية النازعة إلى الحكم المطلق • ولكن كل حركة من هذا القبيل هى فى ذاتها مستحيلة ••• ومن أجل هذا كانت الجامعة الإسلامية أدنى إلى أن تكون عنصراً من عناصر التفرق والضعف من أن تكون عنصراً من عناصر القوة التى تحقق الملائمة بين الإسلام وبين العالم الحديث[1] ، كما وتذهب بعض الدراسات إلى إنه بالنسبة لمظهر آثار حركة جمال الدين الإصلاحية فى الداخل والخارج ، فقد كانت على عكس ما يتوقع الكثير (فالدعوة إلى الوحدة الإسلامية والتضامن ، والدعوة إلى التخلص من الاستبداد الداخلى والدعوة إلى القضاء على كل مظاهر الاستغلال الداخلى والخارجى والدعوة إلى العدالة الاجتماعية والدعوة إلى محاربة السيطرة الأوروبية ، كل هذه الدعوات أنتجت شيئاً عجيباً •••

شعوراً قومياً أثار الحركات القومية فى كل البلاد الإسلامية التى بذر بذور دعوته فيها • وهكذا من حيث لا يدرى كانت الدعوة بالذات إلى الوحدة الإسلامية طريقاً إلى الحركات القومية فى الشرق الإسلامى والعربى [2] •

إن فكر جمال الدين بالأخص إبان مرحلة " العروة الوثقى " - نأى عن الاستاتيكية ، وإتصف بالمرونة إلى حد كبير ، ويؤيد واحد من كبار مؤرخينا هذا ، فى سياق تقييمه لفكر جمال الدين و " العروة الوثقى " ، بأن العروة الوثقى أصدق تعبيراً عن أمانى جمال الدين وأحلامه عن مساعيه وكفاحه من أى اسم من الاسماء التى اعتاد مؤرخوه إيرادها : الجامعة او الوحدة أو ما اليها - العروة

---

(1) Gibb, Wheather Islam, P.P. 43-44.

(٢) خليل عبد العال : دراسات فى تاريخ الدول الإسلامية الحديثة والمعاصرة ، الاسكندرية، ١٩٧٥-١٩٧٦ ، ص ٨٥ •

الوثقى أصح دلالة على قصده لأنها لا تفيد نظاماً بعينه ولا تقيده بفكرة سياسية معينة ٠٠ هى أصح دلالة لأنها تدل على التضامن المتين الوثيق الذى يتنوع ويتطور وفق ما تقتضيه ظروف الزمان والمكان ٠ وهذا التضامن يكون بين أفراد الجماعة الواحدة أفراد الشعب الواحد ، وهو فى هذه الحالة يؤثر العمل المشترك فى دائرة القطر الواحد ، كما كان الحال فى سعيه فى أفغانستان أو إيران أو مصر – ويكون التضامن ثالثاً فى مجال أعم يشمل الشعوب الإسلامية – ويكون التضامن رابعاً فى مجال الرب العالمية يشمل الشعوب الشرقية الآسيوية والافريقية فى كفاحها ضد النفوذ الأوروبى – عدو الجميع (١) ٠

وربما كان هذا هو ماحذا بالعديد من الباحثين إلى التأكيد على وسم فكر جمال الدين بالازدواجية ، من التقرير بأنه دافع عن القوميات المحلية والجامعة الإسلامية فى آن معا ، بما يمثل تناقضاً بين دعوته الإسلامية وبين تشجيعه للقوميات المحلية ، بل إن غلوه فى الدعوة إلى القوميات المحلية لم يكن يناقض دعوته للجامعة الإسلامية فحسب ، بل ربما كان يدفع به إلى جانب معاد للإسلام(٢) ٠

وخلاصة ما نخرج به من كل ما سبق ، أن هذا يشكك فى أن جمال الدين آمن بمقدرة الإسلام فى ذاته كعقيدة ، على الصمود فى مجابهة الاستعمار ، ومن ثم استبدل به الرابطة الجنسية – القومية – وعمل على استثارة النعرة القومية لدى كل شعب على حدة ، فماذا كانت ثمرة هذا الغرس ، لم يكتف هذا الفكـــرة

---

(١) محمد شفيق غربال : من زاوية القاهرة ، ط١، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٧٦ ٠

(٢) انظر فى هذا :

1 - Smith, Islam in Modern History. P. 48.

٢ – توفيق الطويل : الفكر الدينى الحديث ، دراسة ضمن كتاب (العرب والعلم فى عصر الاسلام الذهبى) ، ط١ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨، ص١٣٦

٣ – محمود قاسم : جمال الدين الأفغانى : حياته وفلسفته ، ط١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، د٠ت، ص ٣٠ ٠

التكتل الإسلامى أى تعضيد ، ولم يتح لها فرصة الوجود ، فما بالك بأثر هذا بالنسبة للإسلام كنظام عقائدى !؟

لندع شهود عدل ، من أكثر مادحيه ومقرظيه ، يتقدمون بشهادتهم ...

يقول " إقبال " :

" ... لعل أول مسلم أحس بإلحاح روح جديدة فيه شاه ولى الله الدهلوى"، ولكن الرجل الذى أدرك تمام الإدراك أهمية هذا العبء وفداحته وكان دقيق البصر بالمعنى العميق لتاريخ الفكر والحياة فى الاسلام جامعا الى ذلك أفقاً واسعاً نشأ عن خبرته الواسعة بالرجال والأحوال ، خبرة تجعل منه همزة الوصل بين الماضى والمستقبل ، هو جمال الدين الأفغانى .

ولو أن نشاطه الموزع الذى لم يعرف الكلال ، اقتصر بتمامه على الإسلام بوصفه نظاماً لعقيدة الإنسان وخلقه ومسلكه فى الحياة ، لو أنه اقتصر على ذلك لكان العالم الإسلامى اقوى أساساً من الناحية العقلية مما هو عليه اليوم ..."(١).

ويقول " بن نبى " :

" ... لقد كان جمال الدين – إلى جانب إنه رجل (فطرة) – رجلاً ذا ثقافة فريدة اعتبرت فاتحة عهد " رجل الثقافة والعلم " فى العالم الإسلامى الحديث، ولعل هذه الثقافة هى آلتي دفعت الشبيبة المثقفة على أثره فى اسطنبول وفى القاهرة وفى طهران ، وهى الشبيبة آلتي سيكون من بينها قادة حركة الاصلاح . ولقد شاءت الأقدار أن تجعل من هذا الرجل فى التاريخ الشاهد الصادق ، والحكم الصارم على مجتمع انتهى فى هدوء إلى الانحلال ، بينما أخذ الاستعمار يستقر على أرضه .. وأياً كانت وجهة الامر فان دور " جمال الدين" لم يكن دور مفكر يتعمق المشكلات لينضج حلولها ، فإن مزاجه الحاد لم يكن ليسمح له بذلك ، لقد كان قبل كل شئ مجاهداً .. وكان من فائدة هذا النشاط – أى نشاط جمال الدين – إنه فجر المأساة الإسلامية فى الضمير المسلم ذاته .

---

(١) محمد أقبال : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، ترجمة : عباس محمود ، ط٢ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨، ص ١١١ .

ولكن يبدو أن استيقاظ هذا الضمير بما احتوى من مأساة لم يكـن جزءاً من خطة منهجية وضعها جمال الدين ٠٠ بيد أنـه إذا لم يكن جمـال الديـن قـائداً أو فيلسوفاً للحركة الإصلاحية الحديثة ، فلقد كان رائدها ، ٠٠٠ حين جهد فى سـبيل إعادة التنظيم السياسى للعـالم الإسـلامى ، وأن كـان قصـد بذلك التنظيـم ، تنظيم جموع الشعب وإصلاح القوانين دون أن يقصد إلى إصلاح الإنسان الـذى صاغـه عصر ما بعد الموحدين ٠

لقد أدرك جمال الدين بصادق فطنته ما أصاب مجتمعه من عفونـة وفسـاد ، فاعتقد أنه بدلاً من أن ينصرف إلى دراسة العوامـل الداخليـة آلتـي أدت إلـى هـذا الوضع ، يستطيع أن يقضى عليه ، بالقضاء على ما يحيط به من نظم وقوانين"[1]

---

(١) بتصرف يسير ، عن :

مـالك بن نبى : وجهة العـالم الإسلامى ، ترجمـة : عبدالصبور شـاهين ، ط٢ ، دار الفكر، بيروت ، ١٩٧٠ ، صص ٥٠ - ٥٣ ٠

الفصل الثانى

الحرية ٠٠ والديموقراطية

- مدخل
- معانى الحرية لدى جمال الدين
- مفهوم السلطة ٠٠ والأمة
- مفهوم الدستور ٠٠ والحكم :
  - # الحكم الجمهورى
  - # الحكم النيابى الدستورى
  - # رأيه فى الأحزاب السياسية
  - # مفهوم الحكم بين فكرة
  " المستبد العادل "، ونظرية " الحكم الإلهى "

مدخـــل :

اصطدم جمال الدين بأنصار القديم ، اصطدامه بالاستعمار ، ونالـه من الرجعية والاستعماريين الأذى فى كل قطر حل به •ولكنه كان راسـخ الاعتقاد، فوقف صلباً عنيداً يذود عن أفكاره لا يهادن ولا يتراجع • كان حيثما حل بركاناً صاخباً ، خالقاً للثورة ، يحس بالتجاوب مع الأجيـال الصـاعدة المتفتحـة ، ويتجنب الميئوس من إصلاحهم • وكـان بـؤرة جذب لمن حركتهم الأشجان فأحسوا بضرورة العمل الإيجابى بهدف التجديد والتغير • لهذا جاءت حياة جمال الدين مرتبطة بأفكاره ، لحد كبير ، حتى ليعد – فى نظر البعض – من أولئك الرواد الذين يجعلون من حياتهم صورة مجسمة لأفكارهم [١] •

ولئن كان الإنسان فى معظم الأحوال رد فعل لعصره ، فأنه يجدر بنا أن نتذكر فى لمحة سريعة القوى ألتي أحاطت بالشرق والغرب فى حياة جمال الدين ، قبل تناول آرائه السياسية •

شهدت هذه الفترة النهايات المنطقية لركود العالم القديم حين داهمته القوى آلتي حركت أوروبا منذ عصر النهضة : تفوقت أوروبا علمياً ومادياً وكشفت العالم الجديد وطرق المحيطات واتجهت إلى الاستعمار ، ونجحت فى تحقيق أهدافها إن لم يكن بالاحتلال السافر فبفرض النفوذ والتدخل فى الشئون الداخلية للبلدان الأخرى • كما شهدت أوروبا فى الوقت نفسه موجة من الشعور القومـى ونمو الوعى الجماهيرى الذى طالب بالحرية ثم بالحياة الدستورية • ولعبت الصحافة دوراً حيوياً فـى هذه التطورات الجديدة ، وكـان لجمـال الدين فضل تنشيطها وربطها بالقضايا العامة فى بعض البلدان آلتي حل بها ، وبخاصـة فـى مصر •

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : " أفكار جمال الدين الأفغانى السياسية " ، المجلة التاريخية المصرية ، الصادرة عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان التاسع ١٩٦٠ – ١٩٦٢ ، القاهرة ، ص ٢١٦ •

أدرك جمال الدين خطر الاستعمار منذ نعومة أظفاره ، ولمس أساليب تغلغله في البلدان العربية ودرس الأسباب آلتي هيأت له النجاح • ورغم أنه واحد من أشد من عرفوا عداء للاستعمار ، فإنه لم يغمض عينيه أبداً عن تفوق الغرب ، لهذا كان يميز بين الغرب ومقومته وبين من برزوا من ثناياه من دعاة الفتح والاستعمار ، كما كان ينكص مع الناكصين إلى دورات مجد الشرق يستلهمها القوة ويوحى بها إلى من تناساها ، مشدداً النكير على الحكام الأذلاء والشعوب المستضعفة ، ومهوناً من شأن القوة المادية آلتي انثالت من الغرب ، ومؤكداً لسحر القوة الروحية ووحدة الأحاسيس والمشاعر ، ومنادياً بالتآخي والتقارب ، والدستور والعدل • ولقد كان رائداً من رواد القومية في الشرق باعتبارها وسيلة لرد العدوان الغربي [١] •

وقد يبدو فيما ذكرناه آنفا ، وما سنذكره من بعد ، من جوانب جمال الدين ، التباين الجلي ، ولا نريد تكرار ما سبق ان اوضحناه في مدخل الفصل السابق ، من أن واحدة من السمات المميزة لسمات فكر جمال الدين ، هي سمة " التناقض" [٢] • آلتي تتبقى ملامحها ثابتة على فكرة ، رغم ان الكثير منها يعود إلى الابتسار في تتبع التطور الفكري لجمال الدين ، ولعل هذا ذاته ، هو ما دفع بعض الدارسين إلى التأكيد على أنه يعد من إغرب الشخصيات بين شخصيات العالم الاسلامي الجديث ، وانه شخصية معقدة التركيب متعددة الجوانب ، فقد تقرأ آراء جمال الدين العالم الديني ، ثم آراء جمال الدين رجل عصره ، وهنا تجده يتحدث حديثاً مختلفا بعض الشئ عن ذلك الذي رأيته من قبل ، وهكذا فمهما قرأت له من آراء ، فان له آراء اخرى ومواقف بقدر ما فيه من جوانب

---

(١) أوضحنا ريادته القومية في الفصل السابق من الدراسة عن (الجامعة الإسلامية) • فمن شاء تفصيلا فليرجع اليه •

(٢) هو فصل : (الوحدة ، والجامعة الإسلامية) •

أو بقدر ما فيه من " شخصيات " [١] .

ويكاد الاتفاق ينعقد بين معظم الدارسين ، على إسباغ لقب " حكيم الشرق " على جمال الدين ، الذى كان له آثار بعيده المدى فى العالم الإسلامى الحديث. وليس من المبالغة القول بأن حركة التجديد آلتي انبعثت فى العالم الإسلامى ، وأن حركات التحرر من الظلم والاستعمار فى هذا العالم الإسلامى قد استلهمت جميعا أفكاره الثورية المحددة ليس فقط فى الهند وإيران وأفغانستان ، بل أيضاً فى مصر وتركيا والسودان والتركستان [٢] .

كانت واحدة من الأفكار الاساسية آلتي حاول جمال بثها فى النفوس ، هى الالتجاء إلى الماضى وأمجاده ، من أجل استلهام أسمه ومبادئه والعمل على إحيائها ، بهدف استعادة العز والسؤدد من جديد ، بل ان بعض الدراسات تحدد القضية الكبرى آلتي اراد جمال الدين ، مفكراً اسلامياً ، إقناع الناس بها ، بأنها لا شئ إن لم تكن ضرورة العودة إلى التراث المبجل ، تراث الصالحين الاوائل، لأن كل الشرور والمفاسد آلتي أصابت الأمة الإسلامية إنما نتجت عن ضد هذا مباشرة : عن الابتعاد عن طريق السلف الصالح [٣] .

فنجد " العروة الوثقى " تقول : " المسلمون بعد إن نالوا فى نشأة دينهم ما نالوا ، واخذوا من كل كمال حربى حظاً ... ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وابدعوا فيه ، وخلطوا بأصوله ما ليس منها ، فأنتشرت بينهم قواعد الجبر ... وحصل النقص فى التعليم والتقصير فى إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحقة ومبانيه الثابتة آلتي دعا إليها النبى واصحابه . وحيث أن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ، ولا يزال وميض برقه يلوح فى أفئدتهم بين الغيوم العارضة ... فإننا لا نرتاب فى عودتهم إلى مثل نشأتهم ، ونهوضهم

---

(١) عزت قرنى : العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية الحديثة " (عالم المعرفة) ، الكويت ، يونية (حزيران) ١٩٨٠ ، ص ٢٣١ ، ص ٢٦٤ .

(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : أفكار جمال الدين الأفغانى السياسية،مرجع سابق ص٢١٥

(٣) عزت قرنى : الحرية والعدالة ، مرجع سابق ، ص ٢٣٨ .

إلى مقاضاة الزمان ما سلب منهم [(١)] .

وتقول عن علاج أمراض الإمة الإسلامية : " فعلاجها إنما يكون برجوعها الى قواعد دينها والاخذ بأحكامه على ما كان فى بدايته ، وارشاد العامة بمواعظه الواقية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق ... ولأن جرثومة الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة ... فلا يحتاج القائم بأحياء الأمة الى نفخة واحدة ... ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة غير هذه ، فقد ركب بها شططاً [(٢)] .

وتؤكد " العروة الوثقى " على إرتباط الدين بالقومية فتقول عن المسلمين : " إن رابطتهم الملية مع رابطة اللسان أقوى من روابط الجنسية ، ومادام القرآن يتلى عليهم ويعمل بأحكامه – وفى آياته مالا يذهب على افهام قارئيه – فلن يستطيع الدهر أن يذلهم " [(٣)] .

وتواصل " العروة الوثقى " دورها القومى ، حتى أن البعض يرى "أثرها فى العالم الإسلامى شبيها بأثر " اللواء " فى مصر فى أوائل القرن العشرين من حيث الضرب على وتر الاحساس القومى ومحاولة نفض الخمول واليأس اللذين أشاعتهما الهزائم المتلاحقة آلتي أصابت الإفريقيين والآسيويين نتيجة للتوسع الغربى [(٤)] .

فالدين إذن مقوم أساسى ترتكز عليه دعوة جمال الدين السياسية . وله فى تفسيره نظرات شاسعة لا تصل به إطلاقاً إلى حيز التعصب الذى حاربه بكل قوته ، خاصة وأنه لا يرى تعارضاً بين الأهداف القصوى للاديان الكبرى الثلاثة ، " فإذا نقص فى الواحدة شئ من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية "

---

(١) "العروة الوثقى " ، بيروت ، ١٩١٠ ، ج١ ، صص ٩٤ – ٩٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٧٢ – ٧٣ .

المرجع السابق ، ص ٣١ .

د عبد الرحيم مصطفى ، أفكار جمال الدين الافغانى السياسية ، مرجع سابق ، ص

ومن ثم يكون من الممكن اتحاد الاديان الثلاثة فى المبدأ والغاية ، فيخطو البشر نحو السلام خطوة كبيرة فى هذه الحياة القصيرة [١] .

والأمر الذى لا شك فيه ، إنه من بين ذلك كله فإن الجانب البارز فى حياة جمال الدين يظل فى تلك الحيوية الدافقة ألتي لا تخمد ، وتلك الإيجابية الفعالة ألتي أثرت فى الكثيرين ممن أتيح لهم الاتصال به والتلمذه على يديه . وأهم من هذا فهمه العميق لعصره وواقعيته الواضحة فى إدراك أسباب تفوق الغرب وتأخر الشرق . هدفه الأساسى هو أنهاض الشرق : فهو يعرف داءه ويشخص دواءه ، متقلبا بين الامل واليأس بحسب الاحوال .

جمع ما تفرق من الفكر ، ولم شعث الصور ، ونظر إلى الشرق وأهله ، ووجد أن أقتل أدوائه انقسام اهله وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف . وجعل علاجه جمع الكلمة . بحيث يعمل كل أمير مسلم على ترقية شعبه ، ويقويه بالتحالف والاتحاد ، إلى أن ينضوى الجميع تحت راية واحدة . وكان يرى تحقيق هذا الأمل بعيدا ، ولكنه ما كان يراه مستحيلاً ، بل كان يستبشر بالضغط والعسف ويقول : " بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة والأزمة تلد الهمة " ، و " لا رجاء فى المستضعف إلا إذا يأس ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق ، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك .

وعلى ما أرى قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق – فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب ، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج " (٢)

وتحقيق هذا الهدف الأكبر يستلزم تنبيه الحكام من وجهة ، واهتماماً بتعليم الشعب من جهة أخرى . فالحاكم ذاته لابد أن يحد من أوتوقراطيته ويلجأ إلى الحكم الشورى . والشعب لابد أن يرجع إلى أحكام الدين الصحيحة ، فتغرس

---

(١) " خاطرات جمال الدين الافغانى " ، جمع محمد باشا المخزومى ، ط١ ، بيروت ١٩٣١، ص ٨٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٥ ، ص ١٣٨ .

فى ناشئته مبادئ الحرية والوطنية والدين الصحيح فيرجعون إلى قواعـــــده الأصلية ، ويـأخذون بأحكامه ، وفى الوقت نفسه يسترشد العامة بمواعظه " الواقية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق ، وإيقاد ميزان الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة " (١) .

وتقوم بذلك كله جمعيات يشرف عليها أناس " يـأخذون على أنفسهم الأبية عهداً " إلا يقرعوا باباً لسلطان ، ولا يضعفهم الحدثـان ، ولا يثنى عزمهم الوعيد، ولا يغرهم الوعد بالمنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب – بل قوم يرون فى المتاعب والمكاره بنجاة الوطن من الاستعباد غاية المغنم وفى عكسه المغرم" (٢) .

وهكذا تحصر المعطيات ، ومن بينها – بل على رأسها – الدين ، فى حوزة جمال الدين ، لتوظف توظيفاً عملياً يؤهلها لخدمة إطار عام يشملها جميعاً – فى رأيه – هو الإطار السياسى .

وفى هذا الضوء نحاول قراءة أفكار جمال الدين السياسية وآرائه ، ولما كانت أفكاره متناثرة ومختلطة ببعضها بعضاً مما يشكل صعوبة فى تتبعها ، فقد فصلناها عن بعضها البعض ، وقمنا بإعادة تنسيقها لحد ما ، فى عملية تحليلية تركيبية فى أطر بعض قضايا الفكر السياسى ، على الوجه التالى :

– معانى الحرية لدى جمال الين .
– السلطة والأمة .
– الحكم .. الشورى .. والدستور .

---

(١) العروة الوثقى " مرجع سابق ، ص ٨٥ .

(٢) خاطرات جمال الدين ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

معانى الحرية لدى جمال الدين :

فى إطار موقفه السياسى ، يستخدم جمال الدين كلمة " الحرية " بمعان متعددة .. فنجده يتحدث عن الحرية بمعنى يقترب – لحد ما – من المعنى الليبرالى العلمانى ، حيث يستخدمها فى أنها مقابل " السلوك على الطريقة الاوروبية " بالمعنى السئ لهذا التعبير ، وذلك فى سياق سلبى يحمل على ادانتها...

فيقول فى " رسالة الرد على الدهريين " : " إلا أن قبيلاً من هذه الطائفة – يقصد الدهريين – عملوا فى اخفاء مقصدهم الاصلى وهو الاباحة والاشتراك ، واكتفوا فى ظاهر الامر بانكار الالوهية وجحود يوم الدين يوم العرض والجزاء، وقد يظن بعض ضعفة العقول ان فى ذلك بسطة الفكر وسعة الحرية ... "[١] .

ويقول فى " العروة الوثقى " : " ولو أن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من أى جنس كان تتبع الأوامر الالهية وثابر على رعايتها وأخذ الدهماء بحدودها وضرب بسهمه مع المحكومين فى الخضوع لها وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة ، لأمكنه ان يحوز بسطة فى الملك وعظمة فى السلطان ، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن فى الاقطار المعمورة بأرباب هذا الدين ، ولا يتجشم فى ذلك اتعابا ولا يحتاج الى بذل النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ولا مداخلة اعوان التمدن وانصار الحرية ... ويستغنى عن كل ذلك بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الاصول الاولى فى الديانة الاسلامية "[٢] .

ونراه فى موضع آخر – ايضا فى " العروة الوثقى " – يهاجم المدارس التي شيدت على النمط الجديد والبعثات التي أرسلها المصريون والعثمانيون الى أوروبا ، ويقول عن هؤلاء الذين درسوا على الطريقة الجديدة إنهم لم ينفعـــوا

---

(١) " الرد على الدهريين " ، ترجمة الشيخ محمد عبده ، القاهرة ، ١٩٠٣ ، ص ٧١ .

(٢) " العروة الوثقى " ، مرجع سابق ، ص ٣٨ .

بلادهم بشئ ولا انقذوها من الفقر أو الاعتداء ولا " وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنيـة " ، ثم يستطرد قائلاً : " نعم وجد بينهم أفراد يتفيقهون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدأيتها ، وسموا أنفسهم زعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد " (١) .

وهكذا نجد أن " الحرية " فى كل هذه المواقع شئ أقرب إلى المفهوم السئ، أو على الأقل أن إطارها أطار غير محمود .

إلا أن جمال الدين لديه معان أخرى للحرية محمودة ، يجندها وينـادى بهـا، والواقع أن الحرية آلتي كان يقصدها جمال الدين عادة ، فى أغلب استخداماته ، حين يستخدم هذه الكلمة ، هى " الحرية القومية " (٢) ومظـاهر الاستقلال الوطنى ، سواءٍ أكان هذا بازاء المستبدين الشرقيين فى داخل الوطن ام بازاء الاستعمار الاوروبى ، انظر قوله الواضح بشأن الحريـة : " اذا صح أن من الأشياء ماليس يوهب ، فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر ، والاستقلال كذلك . بل هاتان النعمتان إنما حصلت عليهما الأمم أخذاً بقوة واقتدار " (٣) .

وهكذا نجد جمال الدين يقرن الحريـة والاستقلال وكأنهما شئ واحد أو شيئان مرتبطان جوهرياً على الأقل .

ولو أمعنا النظر عن جديد فى النص السابق ، لنستشف من خلاله طبيعة تلك الحرية آلتي يتحدث عنها ، لأتضح معنى آخر من معانى الحرية لدى جمال الدين ، فسنجد أنه – خلال هذا النص – لا يعنى بالحريـة شيئا أكثر من " الشجاعة الأدبية " باعتبارها ركناً من أركان السلوك السياسى ، آلتي تدفع المرء دفعاً إلى أن يقول الحقيقة ، أو أن يعلن رأيه ، بلا خوف ولا خشية من السلطات

---

(١) " العروة الوثقى " ، مرجع سابق ، ص ٦٩ .

(٢) عزت قرنى : الحرية والعدالة ، مرجع سابق ، ص ٢٤٢ .

(٣) خاطرات جمال الدين ، مرجع سابق ، ص ص ٩٠-٩١، انظر كذلك ص ١٣٥ .

القائمة . وربما كان هذا النص فى " الخاطرات " ، تأكيداً على نص سابق فى " العروة الوثقى " بما يتضح منه بجلاء هذا المعنى للحرية ، بأنها الشجاعة الأدبية ، فنجده يقول فى فقرة هامة من " العروة الوثقى " يتحدث فيها عن ضد الحرية قائلا : " إن المولعين بحب الحياة يقضونها من خوف الذل فى الذل ، ويعيشون من خوف العبودية فى العبودية ، ويتجرعون مرارات سكرات الموت فى كل لحظة خوفا من الموت ، لا الدين يسوقهم الى مرضاة الله ولا الحمية الوطنية تدفعهم الى ما به فخار بنى الانسان "(١) .

ويبدو أن هذا التصور للحرية هو الذى يقف وراء تمجيده لفضائل العرب فى أيام الإسلام الاولى ، يقول فى " الخاطرات " : " وفود العرب حملت معها – يقصد من شبه الجزيرة – اخلاقا فاضلة ... مثل الانفة من الكذب والوفاء بالعهد ومطلق العدل وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والسوقة "(٢). كما يؤكد على ذلك حينما يقول أن أسلوب الأوروبيين الاستعماريين ، وهم بسبيل السيطرة على مقادير الشرق ، يقوم بين ما يقوم عليه ، على : " إقصاء كل وطنى حر يمكنه الجهر بمطالب وطنية "(٣) .

وأخيرا نجد جمال الدين ، فى إطار انتقاده لسياسة الإنجليز فى مصر بعد الاحتلال ، يتحدث عن حرية الحركة أو محض الحركة الجسمية ، بما يذكرنا على الفور بمعنى شائع من معانى الحرية ، وهو " الحرية الشخصية " يقول فى " العروة الوثقى " بصدد عسف الإنجليز فى مصر : " وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية ، والأخذ بالشبه وإن ضعفت ، واتباع بواطل التهم إن بعدت أو استحالت ، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه ، وبلغ منها مبلغه ، فلا ترى ماراً بطريق إلا وهو يتلفت خلفه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطى يقوده إلى السجن"(٤)

---

(١) " العروة الوثقى " مرجع سابق ، ج٢ ، ص ١٤٧ .

(٢) " خاطرات " ، مرجع سابق ، ص ٩٦ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٣٥ .

(٤) " العروة الوثقى " ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

مفهوم السلطة .. والأمـــة :

وكما رأينا جمال الدين يربط مفهوم الحرية العام بالاستقلال الوطنى ، نجده أيضاً يربط بين المفهوم العـام للحريـة – لديـه – وبين مفهوم " الأمـة " ، ومن خلال هذا الاقتران ، تتبين لنا " الحقوق السياسية " للأمة فى رأى جمال الدين .

ويمكننا القول بأن " الحرية " آلتي يقصدها جمال الدين ربما كانت الترجمـة العصرية للمفهوم الإسلامى الخاص " بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " ، حين يعنى هذا التعبير المشاركة الايجابية للمؤمن فى شئون الأمة الإسلامية[1]

تقول " العروة الوثقى " : " إن الأمة آلتي ليس لها فى شئونها حل ولا عقد، ولا تستشار فى مصالحها ، ولا أثر لارادتها فى منافعهـا العموميـة ، وإنمـا هـى خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ومشيئته نظام ، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ، ولا ينضبط لها سير ، فتعتورها السعادة والشقاء ... ويتناولها العز والذل ... فإذا كان حاكمها جاهلاً سئ الطبع ... اسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوى الخسران ... وجلب عليها غائلـة الفاقـة والفقر وجار فى سلطته عن جادة العدل ، وفتح أبوابا للعدوان . فتغلب القوى على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الاخلاق وتخفض الكلمـة ويغلب اليأس ... عند ذلك أن كان فى الأمة رمق من الحياة وبقيت فيها بقيـة منهـا ، وأراد الله بها خيراً اجتمع أهل الرأى وأرباب الهمة من أفرادهـا وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة "[2] .

ويمكن اعتبار هذا النص نتيجة طبيعية لنص قبلـه ، سبق لجمـال الديـن أن أوضح فيه بأنه يعتبر " رضاء الأمة " شرط رئيسى لقيام السلطة ، يقـول فـى " العروة الوثقى " : " الدين الإسلامى لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق وملاحظة أحوال النفس من جهة كونها روحانية مطلوبـة من هـذا العـالم الأدنى إلى عالم أعلى ، بل هى كما كانت كافلة لهذا جاءت راقية بوضع حـدود

---

(١) انظر : عزت قرنى : الحرية والعدالة ، مرجع سابق ، ص ٢٤٣ .

(٢) " العروة الوثقى " ، مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ١١٠ .

المعاملات بين العباد وبيان الحقوق كليها وجزئيها وتحديد السلطة الوازعة آلتي تقوم بتنفيذ المشروعات وتعيين شروطها ، حتى لا يكون القابض على زمامها إلا من أشد الناس خضوعاً لها ، ولن ينالها بوراثة ولا امتياز في جنس أو قبيله او قوة بدنية وثروة مالية ، وانما ينالها بالوقوف عند احكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضاء الأمة • فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الالهية آلتي لا تميز بين جنس وجنس واجتماع آراء الأمة " (١) •

ويتضح من النص السابق أن جمال الدين إنما يتكلم عن سلطة محددة بالذات ، هى " السلطة الزمنية " • إذن ، فهل يمكننا القول - الى حد ما - بأن جمال الدين يتكلم عن فصل السلطات ، ويعبر عن فصل الدين عن الدولة ؟

يقرر بعض الدارسين فى حسم ، بأن جمال الدين كان يرى أن لا غنى للشعوب عن سلطتين : زمنية وروحية (٢) •

فهل ثمة ما يؤيد ذلك لدى جمال الدين ؟

الواقع ان الوقائع ، والوقائع هنا نصوص واقوال ، تؤكد ذلك من خلال النصوص الثابتة •

لنقرأ فى " الخاطرات " ، وهى تمثل نهاية تطوره الفكرى طوال حياته ، نصا صريحا وواضحا بما لا يدع مجالا للبس أو تأويل : " ليس من خطأ أراه أكبر من مس كرامة دين لمجرد عمل يأتيه فرد من تابعى ذلك الدين • واعتقد ان الهيئة البشرية لا يمكنها ان تستغنى عن سلطتين : زمنية ، وروحية •

كلتا السلطتين ترمى إلى غاية واحدة فى الجوهر والاصل • نعم - يمكن ان يطرأ على إحداهما خلل ليس فى أصل الوضع ، فهذا الخلل يجب العمل على اصلاحه والوقوف بوجه من أخل وارغامه على الرجوع إلى الأصل (٣)

---

(١) " العروة الوثقى " ، مرجع سابق ، جـ١ ، ص ص ٣٥ - ٣٦ •

(٢) انظر فى ذلك : احمد عبد الرحيم مصطفى : تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة، معهد البحوث والدراسات العربية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٧٣، ص ص ٣٠ -٣٢

(٣) خاطرات جمال الدين " مرجع سابق " ص ٣٦

ويتابع جمال الدين حديثه بعد ذلك ، تفصيلا عن كل سلطة على حدة ، كما يبين ذلك من متابعة النصل على النحو التالي ، على اننا ينبغي أن نلتفت الى ملحوظة هامة ، وهى ان جمال الدين فى بداية حديثه - التالى - يقرر مبدأ من الأهمية والخطورة بمكان ، مؤداه ان الامة - اى الشعب - مصدر السلطات .

تقول الخاطرات " مستطردة بعد ما سبق : " السلطة الزمنية بمليكها او سلطانها انما استمدت قوتها من الامنة لاجل قمع أهل الشر وصيانة حقوق العامة والخاصة وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الامن وتوزيع العدالة المطلقة - الى آخر ما فى الوازع والسلطان من المنافع العامة . اما إذا اودعت هذه السلطة بيد رجل غر جاهل علت اكتنفه قوم من فاسدى الاخلاف مجهولى الاعراق يلعبون بالمسلط كيف يشاءون ثم يحتجزون على الشعب بقولهم" مشيئة الملك قانون المملكة " - هذا القول على تلك الحالة مما يجب على الامة وقوفها تجاهه وان تقاومها بما لديها من قوة . لان الحق فى هذا ان ارادة الشعب غير المكره وغير مسلوب حريته قولا وعملا هى قانون ذلك الشعب المتبع والقانون الذى يجب على كل حالم ان يكون هادما له امينا على تنفيذه . وكل شعب تلعب به الاهواء ويتفرق شيعا وطوائف وتستحكم من افراده محبة بالذات والانانية فيتجرون باسم الامة تجاه الفرد المسلط ويستنزفون ثروة المجموع ارضاء له لينالوا بلغة من عيش - فمثل هذا الشعب يكون كالأنعام السائمة أو أضل سبيلا..

" كذلك القول فى السلطة الروحية - واعنى بها ما لكل دين من النفوذ المعنوى على من يدينون به ، وهى فى بعض مواقفها أنفذ من قوة السلاطين ويقظة الشرطة وعدل الحاكم على منصة قضائه ، وافعل مما ينفذه فى بعض الاحيان من القصاص على بينات قد تكون اخطأت مجرما واصابت بريئا . إذ تمكن الدين بحقيقة من نفس وضلت عن مراقبة السلطان الزمنى ، فهناك يفعل سلطان الروح ويردعه عن سرقة مال لو سرقه لما شهد عليه احد ، وعن نفس لو قتلها لما تمكن الحاكم الزمنى ان يقتص منه ... اما واذا انحرفت وتحرفت

هذه السلطة المعنوية عن مواضعها واختل جوهر وضعها الأصلى ، وجب عندئذ الوقوف تجاهها والعمل لكل قوة لارجاعها لأصلها " [1] .

مفهوم الدستور .. والحكم :

موقف جمال الدين من الاستبداد ، والحكم الاستبدادى ، يعد من المواقف الاساسية له فى السياسة واسهاماته فيها ، وهو يعد من المواقف القليلة ، التي تميزت بسمة الثبات الفكرى لديه طوال حياته .

ويهمنا هنا الاشارة الى مقال هام له فى هذا الصدد ، وتأتى أهمية هذا المقال من أنه يعد أولا من أوائل مقالاته ، فى الترتيب الزمنى والتاريخى عبر التطور الفكرى لجمال الدين ، وثانيا لأنه يكاد يكون مما لم يلتفت اليه احد ، او ربما لم يعلم به أحد ، فلم تبدر أية اشارة له ، ولو عابرة ، على الرغم من خطورته وأهميته ، ربما جريا على وتيرة الابتسار والاقتصار لفكر جمال الدين، تلفيقا لفكره معينة ، او انتصارا لمذهب معين ، او ربما اكتفاءا بما يقع تحت اليد من الوقائع دونما سعى دقيق وراء الحقيقة .

والمقال بعنوان (الحكومة الاستبدادية) [2] ، تحدث فيه عن : " طول مكث الشرقيين تحت نير المستبدين الذين كان اختلاف أهوائهم الناشئ عن تضاد طبائعهم وسوء تربيتهم مع وجود رادع يردعهم ، ومانع يمنعهم وقوة خارجية تصادمهم فى سيرهم ، سبباً أوجب التطاول على رعاياهم وسلب حقوقهم ... أردنا أن نذكر فى مقالنا هذا الحكومة الاستبدادية بأقسامها فنقول :

---

(١) خاطرات جمال الدين ، مرجع سابق ن ص ص ٣٦ - ٣٨ .

(٢) عن العدد ٣٣ من جريدة " مصر " الصادرة بالاسكندرية فى ٢٢ صفر سنة ١٢٩٦ هـ - ٦ فبراير سنة ١٨٧٩ م . وقد نشره الأستاذ محمود أبو رية فى كتابه (جمال الدين الافغانى) الصادر عن دار المعارف ، ١٩٧١ ، سلسلة نوابغ الفكر العربى العدد ٢٩، ص ص ٨٣ - ٨٩ ، كما أورده د. عزت قرنى فى كتابه (الحرية والعدالة فى فجر النهضة العربية الحديثة) ، مرجع سابق ، ص ٢٧٩ . اما فيما خلا ذلك فلم يرد له أى ذكر ، حتى ولا فيما سمى (الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى) ؟

إن الحكومة الاستبدادية باعتبار عناصرها الذاتية ، وأقانيمها الحقيقية التي هي عبارة عن : أمير ، أو سلطان ووزراء ، ومأموري إدارة وجباية ستنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : منها - الحكومة القاسية وهي آلتي تكون أركانها - مع - اتسامهم بسمة الامارة والوزارة والإدارة والجباية - شبيهة بقطاع الطريق،٠٠٠

القسم الثاني : الحكومة الظالمة ، وأولياء هذه الحكومة تماثل الاخساء والمترفين ، الذين يستعبدون أناساً خلقوا أحراراً - ٠٠٠

القسم الثالث : - الحكومة الرحيمة وهي تنقسم الى قسمين :

القسم الاول :.منها الحكومة الجاهلة ودعائم هذه الحكومة تحاكي الأب الرحيم الجاهل - يحث أبناءه على اقتناء الأموال واكتساب الثروة واستحصال السعادة والاقتصاد في المعيشة بدون أن يتبين طرقها ويمهد لهم سبلها لعدم علمه بها ٠٠

القسم الثاني : الحكومة العالمة وقد قسمها الى قسمين ، شبه القسم الاول بالأب العالم المألوف واطال في وصفها ، ثم تكلم عن القسم الثاني من هذه الحكومة وسماها الحكومة (المتنطسة) ، واساطينها الحكماء وقال إنها تضارع الأب المتدبر المتبصر الذي لا يبرح ساعياً في إعداد الأسباب الموجبة لسعادة ابنائه ٠

وبعد أن افاض جمال الدين في بيان ما يجب ان يكون على الحكومة العادلة وجه خطابه الى الانسان الشرقي قائلا :

يا أيها الانسان الشرقي ، صاحب الأمر والنهي هناك حكومة رحيمة حكيمة فعليك بها والقيام بشأنها وحفظ واجباتها - والا فبحياتك آلتي افتديها براحة العالم ان (تعفونا) من تحمل تشدقك بالرحمة والعدالة والحكمة والفطنة !

أتريد أن تظلمنا ونكافئك بالشكر ، وتغتصب حقوقنا ونجازيك بالثناء ؟ او تظن انك تقدر ان تغر كل العالم وتعمى بصائرهم ، وان تنزل بباطلك عندهم منزلة الحق ؟ وأن تجلس بجورك مجلس العدل ؟ وان تقيم سيئاتك مقام الحسنات ؟ وان تقعد ذاتك مقعد الفضائل ؟ ولعلك اغتررت بتمجيد وتعظيم المبصبصين ! وتبجيل المتزلفين !

ولو كنت تعلم مقامك من النفوس ، ومنزلتك لدى ارباب البصائر والعقول ، لودعت هذه الدنيا الخؤون آلتي الهتك ، وفارقت حياتك العزيزة آلتي طالما اقتنيتها بالمروة والانسانية .

أما أنتم يا أبناء الشرق فلا أخاطبكم ولا أذكركم بواجباتكم ، فإنكم قد ألفتم الذل والمسكنة ، والمعيشة الدنية واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف .

صرتم كالعجائز !! لا تقدرون على الدرء والاقدام ، والدفع والمنع والرفع فإنا لله وانا اليه راجعون ... "[1] .

ظلت الأسس والمبادئ آلتي آمن بها جمال الدين فى تلك المقالة ، ملازمة له وموجهة لموقفه من الاستبداد طوال حياته ، حتى عرف جمال الدين بأنه كان من اشد اهل عصره معارضة للاستبداد واكثرهم جسارة وافصاحا فى كافة مواقفه منه [2] ، والاستبداد هو ضد رضاء الامة ، لأنه حكم الفرد بدون اشتراكها ، ولأن ذلك يعني عند جمال الدين حكم الفرد الظالم المستغل .

وينبغي أن نتذكر هنا أن جمال الدين كان متعلقاً بالفعل بفكرة الدستور ، وأنه رأى فيها المقابل الأوروبي لفكرة الشورى الإسلامية ، حتى أن معاني كلمة الشورى لديه تكاد تصب كلها في فكرة الدستور الأوروبية [3] .

أما عن تعلقه بالدستور ، فقد قدم بنفسه مشروعاً دستورياً لفارس ، " لتكون حكومة ملكية شورية ، فما أتم قواعد الدستور الكلية ، وأطلع عليه الشاه ناصر الدين ، إلا وأعظم الأمر ، إذ رأى حكمه سيكون مقيداً وأن أهل فارس يكونون

---

(١) حذفنا من المقالة بعض الشئ ، واكتفينا بما يفيد الدلالة على الأسس والمبادئ والأفكار الأساسية آلتي يهدف إليها جمال الدين .

(٢) بالإضافة الى المقالة الهامة السابقة ، راجع :
" العروة الوثقى " ، مرجع سابق جـ١، ص ١٢١، ١٤٥ ، ٢١٠ - جـ٢ ، ص ١١٠، ١٣٢ ،. "خاطرات جمال الدين الافغاني " ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .

(٣) أنظر : عزت قرني : الحرية والعدالة .. ، مرجع سابق ، ص ص ٢٤٥-٢٥٠ .

أوسع سلطة من الشاه بمجلسهم النيابى .. " وفى بقية الحديث ما يدلنا بوضوح على جسارة جمال الدين اللامتناهية . فيقول الشاه لجمال الدين : " أيصح أن أكون ياحضرة السيد ، وانا ملك ملوك الفرس (شاهنشاه) كأحد افراد الفلاحين؟ فقال جمال الدين : أعلم ياحضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك سيكونون بالحكم الدستورى أعظم وأنفذ وأثبت مما هم الأن . والفلاح والعامل والصانع فى المملكة ياحضرة الشاه أنفع من عظمتك ومن امرائك . واسمح لإخلاص أن أوديه صريحاً قبل فوات وقته . لاشك يا عظمة الشاه أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت ان تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك ، ولكن هل رأيت ملكا عاش بدون أمة ورعية ؟ " .. " ويقال إن الصدر الأعظم وشى بجمال الدين عند الشاه قائلاً : " إن ما سنه جمال الدين من القوانين ، لا يفيد البلاد شيئاً ، ولكنه ينزع سلطان الشاه منه ، ويعطيه إلى السوقة والفلاحين"[1].

هذا وقد استخدم جمال الدين كلمة " الشورى " على نحو يقرب ما بين فكرة الدستور وفكرة الحكم الشورى ، ففى " الخاطرات " ، نجد حواراً بينه وبين الخديوى توفيق ، ينصح فيه جمال الدين الخديوى بحكم البلاد على طريق الشورى ، ويفصل ذلك بما يفيد معنى " الحكم الدستورى " [2] ، كما يذكر فى موضع آخر أن جمال الدين قال مرة عن مقابلة له مع السلطان عبد الحميد : " رأيت من السلطان ارتياحاً لقبول كل ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستورى وأن الأسلام أول من عمل به فى سلطانه (أى الحكم الشورى) ، وذلك عملا بحكم النص : " وأمرهم شورى بينهم " [3] . فيظهر من هذا القول أن الشورى تعنى عنده الحكم الدستورى .

---

(١) لاحظ " الخاطرات " ، مرجع سابق ، ص ص ٥٩ - ٦٠ .

(٢) " خاطرات " مرجع سابق ، ص ٤٦ . وسنذكر نص الحوار فيما بعد خلال حديثنا عن " الحكم النيابى الدستورى .

(٣) " الخاطرات ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

على أننا نجد معنى مخالف لكلمة " الشورى " فى استخدام جمال الدين لها فى سياق آخر ، حيث يقول : " إن تدبير الممالك ، وصونها من سلطان أو ملك يطغى بقوته بالحكمة وحسن الرأى وأصول الحكومة الشورية والمشاورة ودعوة الأمة للتداول ، وظائف الملوك ... كل ذلك مسطور فى القرآن ، فى سورة النمل بأصرح عبارة وبآيات وجيزة " [1] فها هنا نجد ان الشورى لا تعنى عند جمال الدين إلا محض " المشاورة " أو المناصحة ، أو التداول ، أو طلب الرأى لا اكثر وبلا الزام .

على ضوء هذا كله ، فما هو إذن بديل الاستبداد فى الشرق ؟

هل هو الحكم النيابى الدستورى ؟ هل هو الحكم الجمهورى ؟

ام يبدو أن لا هذا ولا ذاك ، لدى جمال الدين !؟!

الحكم الجمهــــورى :

أما عن موقفه من الحكم الجمهورى ، فلنذكر ملحوظتين قبل مواجهة نصوص جمال الدين :

الاولى : إن جل من تعرضوا لموقف جمال الدين من الحكم الجمهورى قد استدلوا بنص واحد بعينه ورد فى " الخاطرات " ، ولم يروا غيره مما يمكن الاعتماد عليه فى هذا الصدد .

وعلى هذا يجمعون على معارضة جمال الدين لهذا اللون من الحكومات ، أى ان البديل للإستبداد – لديه – لا يمكن ان يكون الحكم الجمهورى ، والدليل على ذلك على هذا الموقف الصريح [2] – المقصود هنا موقفه فى " الخاطرات " –الذى يوضح رأيه من ان الحكم الجمهورى حينئذ لا يصلح للشرق ولا لأهله[3].

---

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(٢)،(٣) أنظر على سبيل المثال : عزت قرنى " الحرية والعدالة ... ، مرجع سابق ، ص ص ٢٤٥ – ٢٤٦ . ، وكذلك احمد عبد الرحيم مصطفى : أفكار جمال الدين الافغانى السياسية ، مرجع سابق ، ص ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .

الثانية : إن ثمة نصاً آخر ، سابقاً على " الخاطرات " تاريخياً ، تحدث فيه جمال الدين عن الحكومة الجمهورية ، ونعنى به مقالة (الحكومة الاستبدادية) المنشورة فى جريدة " مصر " والسابق ذكرها .

وأياً كان موقف جمال الدين ، على ضوء هذه المقالة ، سواء معضداً لمعارضته للحكم الجمهورى - كما رأى معظم من تعرضوا لموقفه هذا ، معتمدين على " الخاطرات - ، أم أتى على النقيض تماما من ذلك مؤيداً لهذا الحكم ، كما رأى البعض ، [1] الا أن أحداً لم يلتفت لهذا النص على أهميته ، كما ذكرنا من قبل .

والآن لنرى بماذا تنبئنا النصوص ..

(١) يقول جمال الدين فى مقالة (الحكومة الاستبدادية) آلتي نشرت سنة ١٨٧٩ ، ويغلب انها فى اصلها كانت حديثاً [2] ، : " إن طول مكث الشرقيين تحت نير المستبدين الذين كان اختلاف أهوائهم الناشئ عن تضاد طبائعهم وسوء تربيتهم مع عدم وجود رادع يردعهم ، ومانع يمنعهم ، وقوة خارجية تصادمهم فى سيرهم - سبباً أوجب التطاول على رعاياهم وسلب حقوقهم ، بل اقتضى التصرف فى غرائزهم وسجاياهم ، والتغير فى فطرتهم الانسانية حتى كادوا لا يميزون بين الحسن والقبيح ، والضار والنافع ، وأوشكوا ان لا يعرفوا أنفسهم وما انطوت عليه من القوى المقدسة ، والقدرة الكاملة ، والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة ، والعقل الفعال الذى تخضع لديه البسائط والمركبات ويطعي امره النافذ جميع المواليد من الحيوان والنبات - وأن امتداد زمن توغلهم فى الخرافات آلتي تزيل البصيرة ، وتستوجب المحو التام والذهو المتفرق ، بل تستدعى التنزل الى التربة الحيوانية - ومداومتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية آلتي تكشف عن حقيقة الانسان ، وتعلمه بواجباته ، وما

---

(١) محمود ابو ريه ، كما سيتضح ذلك .

(٢) سبق الإشارة اليها ، وقد نشرت فى جريدة (مصر)مرجع سابق، فى فبراير ١٨٧٩ .

يلزمه فى معاشه ، وتبين له الأسباب الموجبة للخلل فى الهيئة الاجتماعية وتمكنه من دفعها والسعى فى إطفاء نورها بما ورثوه عن آبائهم من سفه القول، وسخف الرأى ، والجد فى اضمحلال كتبها وضياع آثارها واستبدالها بما اوقعهم فى ظلمات لا يهتدون إلى الخروج منها أبداً •

كل [1] هذه الاسباب تمنع القلم عن أن يجرى على قرطاس بين شرقى فى البلاد الشرقية بذكر الحكومة الجمهورية ، وبيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين بها وأن المسوسين بها أعلى شأناً ، وأرفع مكانة من سائر أفراد الإنسان ، بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت الاسم دون من عداهم ٠٠٠".

فى رأى الأستاذ محمود أبو رية ، وهو يعد ، فى رأينا ، أول من تنبه لهذا النص وقام بنشره فى كتابه عن جمال الدين ، أن هذا النص يعد تعبيراً جيداً ودامغاً فى آن عن موقف جمال الدين المؤيد لفكرة " الحكومة الجمهورية " والمنادى بها • وبهذا الموقف يقف الاستاذ ابو رية على طرفى النقيض تماما مع من تعرضوا لموقف جمال الدين بهذا الصدد معتمدين على " الخاطرات " وحدها •

يقول الأستاذ أبو رية فى تقديمه للنص : " لما أخرج السيد جمال الدين من الآستانه مرغماً فى زيارته الأولى لها - بكيد رجال الدين فيها وجاء الى مصر يحمل فى نفسه المتقدة غضبا ومقتا وبخاصة مما رآه هناك من بغى وظلم وغدر الحكم الاستبدادى الذى كان يسود البلاد حينئذ ، انبرى قلمه البليغ فحبر هذه المقالة الرائعة آلتي لم يكتب مثلها فى وصف الحكومات الاستبدادية ولنفاستها

---

(١) هكذا تسترسل الفقرات فى الاصل ، ولكن الاستاذ محمود ابو رية فى كتابه (جمال الدين الافغانى) ، مرجع سابق ، يضع عنوانا جانبيا فوق هذه الفقرة بعنوان (مزايا الحكم الجمهورى) ، وهذا من عندياته هو ، وليس فى الاصل

وفلسفتها وعلو اسلوبها رأينا ان نأتى بها هنا على طولها الا قليلا منها ولا غرو فان السيد قد قضى حياته كلها يحارب - فيما يحارب - الظلم والطغيان فى اى مكان وكان دائما يسعى الى الحكومة الجمهورية : " (١) .

وبدأ بعد ذلك فى نشر نص المقالة ، إلى أن وصل إلى بداية الفقرة الأخيرة فى النص السابق والمخطط تحتها - التخطيط من عندى وليس فى الأصل - حتى رأيناه يضع لها عنواناً مستقلاً جانبياً فوقها باسم (مزايا الحكم الجمهورى)، ثم أورد الفقرة إلى أن وصل إلى عبارة " الحكومة الجمهورية " حتى وضع لها هامشاً بأسفل الصفحة ، يقول فيه : " هذا اوضح دليل على أن السيد جمال الدين كان يسعى إلى الحكومة الجمهورية وهو أول من دعا إلى ذلك " (٢) .

(٢) أما النص الثانى فقد ورد فى " الخاطرات " بما يعبر عن الموقف الأخير عبر التطور الفكرى لجمال الدين (٣) .

تحت عنوان : (رأيه فى مصر والمصريين وصورة الحكم الذى يجب ان تحكم فيه مصر خصوصا والشرق عموما)

تقول " الخاطرات " ، بعد الحديث عن ان جمال الدين كان محبا لمصر والمصريين ، شديد الارتباط بهم ، وعن أسفه على ما آل اليه أمرهم ، ما نصه: " وكان يقول : كأن القوة الفرعونية اخذت على الدهر عهدا ان لا تبرح وادى

---

(١) محمود ابو رية : جمال الدين الافغانى ، مرجع سابق ، ص ٨٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٤ .

(٣) من الثابت ان كتاب " الخاطرات " قد كتبت مواضيعه فى الفترة ما بين سنة ١٣١٠ هـ ١٨٩٢م ، الى ١٣١٤هـ - ١٨٩٧م . وكانت وفاة جمال الدين فى سنة ١٨٩٧م . ذلك : التمهيد ، الذى كتبه " محمد باشا المخزومى " لكتابه : " خاطرات الأفغانى الحسينى " .

النيل ، فكلما قضى فرعون تقمص بآخر ، وكلما انقرضت عائلة فرعونية ادعت ارثها عائلة ، وجاءت ولو من وراء البحار والتصقت بالنسب الفرعوني ولو بأقل مشابهة ، من خلق الغطرسة والتأله على الناس • وكثيرا ما كان يردد " فاستخف قومه فأطاعوه " ••• ويقول :

عجيب هو نصيب المنتصر لمصر وللمصريين ، اذا مكث بين ظهرانيهم • فموسى خرج منها خائفا يترقب ، متهما موشى به من مظلوم نصره على ظالمه• وفرعون معبود فيها ، ويوسف الصديق زج فى السجن متهما وهو لم يأت الفاحشة •

نعم ، فى النتيجة حصحص الحق وزهق الباطل • ولسوف تخلص مصر لأهلها اذا هم عملوا بالحزم ، وهيئوا ما يلزم من العزم ، وما يتطلبه حكم الذات من القوى • ولسوف يفعلون ذلك بعوامل الضغط ، والمسك بالخناق ، واذا ما فعلوا واجتمعت الكلمة ، وتوحدت الاهواء نحو الغاية ، حصل البأس • واذا لم يضعوا هذا اليأس بينهم بسوق التحاسد ، او بفعل الدسائس ، قل تم الامر وفاز القوم ، ودخلوا فى دور الحياة الصحيحة •

لا تحى مصر ، ولا يحى الشرق بدوله واماراته ، الا اذا اتاح الله لكل منهم رجلاً قوياً عادلاً ، يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان • لأن بالقوة المطلقة الاستبداد ولا عدل الا مع القوة المقيدة •

وحكم مصر بأهلها ، انما اعنى به ، الاشتراك الاهلى بالحكم الدستورى الصحيح • ثم قال :

اذا صح ان من الاشياء ما ليس يوهب ، فأهم هذه الاشياء (الحرية) و (الاستقلال) • لأن الحرية الحقيقية ، لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر ، والاستقلال كذلك •

بل هاتان النعمتان ، انما حصلت عليهما الأمم ، أخذا بقوة واقتدار ، يجبل التراب منها بدماء ابناء الأمة الأمناء ، اولى النفوس الأبية ، والهمم العالية •

اما تغيير شكل الحكم المطلق ، بالشكل النيابى الشورى ، فهو ايسر مطلبا واقرب منالا ، اذ يكفى احيانا ، ارشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه ، فيفعله

ويشرك امته ورعيته ، ويرى بعد التجربة راحة ، وتضامنا على سلامة ملكه ، وعزة بالتفاف طبقات الرعية حول عرشه ، بقلوب خالصة مخلصة ، وحب صميمى • فيكون للملك الدستورى عظمة الملك ، وعلى نواب الأمة اعباء نوائب المملكة ، ودرء المفاسد عنها ، والذود عن سلامتها ، بالأموال والأرواح•

ولكم رأينا من عقلاء الملوك من حكم عقله فأرشده الى استبدال مطلق الملك، بالملك الشورى ، فاستراح واراح •

وهذا هو الشكل من الحكم الذى يصلح لمصر ، ولدول ، وامارات الاسلام فى الشرق • وبتوضيح وافصاح :

لا يسلم على الغالب ، الشكل الدستورى الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان ، ويعظم عليه الامر ، كلما صادمه مجلس الامة بارادته ، او غلبه على هواه •

لذلك قلت : اذا اتاح الله رجلا قويا عادلا لمصر وللشرق ، يحكمه بأهله • ذلك الرجل اما ان يكون موجودا ، او تأتى به الأمة ، فتملكه على شرط الأمانة، والخضوع لقانونها • الاساسى ، وتتوجه على هذا القسم ، وتعلنه انه يبقى التاج على رأسه ، ما بقى هو محافظاً ، أميناً على صون الدستور ، وانه اذا حنث بقسمه وخان دستور الأمة ، اما ان يبقى راسه بلا تاج ، او تاجه بلا رأس•

هذا ما يحسن بالأمة فعله اذا هى خشيت من امرائها وملوكها عدم الاخلاص لقانونها الاساسى ، او عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستورى قلبا وقالبا• وإلا فالأمير الصالح القريب ، أولى من البعيد الغريب •

اما الحكم الجمهورى فلا يصلح للشرق اليوم ولا لأهله • (١) •

خاطرات • ، مرجع سابق ، ص ص ٨٩ - ٩٣ •

الحكم النيابى الدستورى :

وأول ما يلفت انظارنا بهذا الصدد أيضا ، ان ثمة نصا واحدا لجمال الدين ورد فى " الخاطرات " ، يشكل اساسا يعتمد عليه جل من تعرضوا لموقف جمال الدين بصدد هذا اللون من الحكم •

وينبغى الالتفات الى انه ليس ثمة اجماع فى الآراء هذه المرة ، بل تتفاوت الآراء على طرفى النقيض باختلاف رؤية الدارسين لموقف جمال الدين واعتباره مؤيدا ، او معارضا لقيام هذا النمط من انماط الحكومات •

وكذلك نلحظ ان النص لم يرد بأكمله ابدا، فكل دارس يكتفى باقتطاع ما يراه ملائما من العبارات او الفقرات ، فيوردها مؤيده لرؤيته ورأيه فى موقف جمال الدين •

لذا عولنا على أن نأتى بالنص بأكمله ، ثم نردفه بعرض بضعة من الآراء، والتى نراها ممثلة لكافة الاتجاهات بصدد تقييم موقف جمال الدين من خلال هذا النص •••

تقول " الخاطرات " بعد حديث طويل عن المحافل الماسونية ، وصلة جمال الدين بها ، واحداثها حركة عنيفة مستهجنة من الناس ، ان الخديوى توفيق باشا، تردد فى قبول جمال الدين زائرا ، ولكن بعد تلك الحركة اسرع فى إستزارة جمال الدين ، فذهب بعد مماطلة ايام ، وتمثل لدى الحضرة الخديوية وبعد تلطيف وتجمل من الخديوى قال لجمال الدين ما معناه : " اننى احب كل خير للمصريين ، ويسرنى ان ارى بلادى وابناءها فى اعلى درجات الرقى والفلاح، ولكن مع الاسف ان اكثر الشعب خامل ، جاهل ، لا يصلح ان يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والاقوال المهيجة ، فيلقون انفسهم والبلاد فى تهلكه " •

رأيه فى المجلس النيابى (١) .

قال جمال الدين مجاوبا : ليسمح لى سمو امير البلاد ان اقول بحرية ، واخلاص ان الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين افراده ، ولكن غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى وافراده ينظرون به لسموكم وان قبلتم نصح هذا المخلص واسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد على طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين ، وتنفذ بأسمكم وبارادتكم ، يكون ذلك اثبت لعرشكم وادوم لسلطانكم " هذا اهم ما جرى فى هذه المقابلة آلتي كان فيها سمو الخديوى غير راضى واسر فى نفسه البطش فى جمال الدين ولكن لم يظهر له شيئا من ذلك .

خرج جمال الدين من مجلس سمو الخديوى ومضى الى تنفيذ خطته فى المحفل الماسونى واخذ يخطب خطبا تستفز الخامل وتوقظ الغافل وتصير الجبان شجاعا ، والرعديد اسدا ضاريا ، واشار على تلامذته ومريديه بنشر الفصول الناطقة بالحقوق المهضومة لأهل البلاد من المصريين . وكان فى مقدمة من كتب الأدباء السوريون وفى مقدمتهم المأسوف عليه (اديب بك سحق) .

وعلى اثر ذلك بدأت الحركة الفكرية الوطنية فى الظهور ، واخذت الحكومة تحتاط لتلك الحركة ، وتجامل الوطنيين ، وتتقرب من الشعب بالمواعيد الحسنة ، وحسن النية ، من انالتهم مجلسا نيابيا اذا هم حافظوا على السكينة ولم يفرطوا فى المطالب الوطنية .

فطلب الاحرار من جمال الدين ان يضع خطة للمجلس النيابى المصرى العتيد ، وبيانا واضحا للشعب كى يسير بمقتضاه نحو انتخاب نوابه فقال : (٢)

---

(١) هكذا فى الاصل .

(٢) يبدو ان هذا نص آخر ، غير النص السابق والخاص بمقابلة جمال الدين للخديوى توفيق ، وان ثمة فترة زمنية تفصل بين النصين ، يؤكد هذا اسلوب السرد التاريخى فى الفقرة السابقة مباشرة . الا ان السياق فى الاصل يسترسل على هذا المنوال،ولم يشر=

أيها الاخوان : ان القوة النيابية لأى امة كانت لا يمكن ان تحوز المعنى الحقيقى الا اذا كانت من نفس الأمة ، وان مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك او امير وقوة اجنبية محركة لهما ، فاعلموا ان حياة تلك القوة النيابية الموهومة، موقوفة على ارادة من احدثها •

فعزة الملك ينغصها نهضة الشعب المملوك ، خصوصا اذا هو صادم ارادة مالكه أو اميره ، والتاريخ لم ينقل لنا أن ملكا او اميرا او دخيلا بقوته على شعب ، يرضى عن طيب خاطر ان يبقى مالكا اسما ، وامته هى المالكة فعلا ، وزمام امورها على مطلق المعنى ، واعظم امانى الشعوب المملوكة ، التملص من ربقة الاجنبى وتحكمه •

ثم قال : سترون عما قريب اذا تشكل المجلس النيابى المصرى ، سيكون ولا شك بهيكله الظاهرى مشابها للمجالس النيابية الاوروبية ، بمعنى ان اقل ما سيوجد فيه من الاحزاب ، حزب للشمال وحزب لليمين • ولسوف ترون اذا تشكل مجلسكم ، ان حزب الشمال لا اثر له فى ذلك المجلس ، لأن اقل مبادئه ان يكون معارضا للحكومة ، وحزب اليمين ان يكون من اعوانها •

قال : تستغربون قولى هذا اليوم ، لأن ما نبحث فيه هو امر تصورى لم يخرج لحيز العمل بعد ، ولكن متى رأيتم المجلس النيابى الموهوم تشكل ، ورأيتم كل عضو يفر من ان يكون فى حزب الشمال (الناهض والمعارض للحكومة) فراراه من الاسد الى حزب اليمين " اذ ذاك تقولون : صدق جمال الدين " •

نعم اكون صدقت ، ولكن ليس فى هذه الفراسة ، وفى صدق التصور التصديقى ادنى فضيلة ، اذا رجعتم وعلمتم ، ان المقدمات الصحيحة هى التي تنتج النتائج الصادقة • فمقدمات مجلس نيابى ، قوته المحدثه له ، خارجة عن

- " المخزومى " كاتب الخاطرات ، اية اشارة توضيحية بهذا الصدد • ويغلب ان يكون هذا النص خطبه ، لاحظ اسلوب الالقاء •

محيط الأمة ، والمحدث له ، قوة خارجة عن الأمة ومجلسها ، يعارضها منافع متضادة ، وهدفان مختلفان ، فمثل هذا المجلس لا قيمة له ، وكما انه لا يعيش طويلا كذلك لا يغنى عن الأمة فتيلا •

ثم قال ضاحكا ضحكة متألم : سترون ان الذى سيكون نائبا عن شعب لا اعدد مصائبه ، ولا انواع رزاياه ، لفقدان حريته بكل معناها ، هو الذى كان آلة صماء ، بيد تلك القوة التي عملت على وصول وطنه ومواطنيه ، الى ما وصلوا اليه •

تعرفونه اذا شئتم ان تتفكروا قليلا • وان شئتم وصفه فأنا اقول لكم :

نائبكم سيكون على مقتضى ما مر من مهيئات مصركم فى زمانكم هو : ذلك الوجيه الذى امتص مال الفلاح بكل مساعيه ، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم اسقط منه همة ، ذلك الرجل الذى لا يعرف لايراد الحجة ، تجاه الحاكم الظالم محنى ولو كانت من الحجج الساطعة ، ذلك الرجل الذى يرى فى ارادة القوة الجائرة ، كل خير وحكمة ! ويرى فى كل دفاع عن وطنه ، ومناقشة للحساب ، قلة ادب ، وسوء تدبير !! وعدم حنكة ! وتهورا ! "" يرى ، ن كل صفات العزة النفسية ، والمقومات الأهلية القومية ، مآلها الويل والثبور •

وكل ما يدعو الى الذل ، واحتقار القومي ، وسحق ما تنمو به حرية الأمة، هو من مجالى حكمته العصرية !! •

هذا مع الاسف الذى اراه سيتكون منه مجلسكم النيابى الموهوم – اذا صحت الاحلام – والذى سيخالف قاعدة كلية ، لقواعد فلسفة ، اقرت على ان الوجود خير من العدم ، فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده • "[1]

كان هذا هو النص ، الذى يعد بصفة اساسية معبرا عن موقف جمال الدين الحكم النيابى الدستورى •

، الاسترسال فى العرض ، نتوقف قليلاً ••

مال الدين " ، مرجع سابق ، ص ص ٤٦ – ٤٩ •

- لنلحظ اولا ، ان هذا النص ، يكاد يكون عدة نصوص مدمجة ، او مؤلفة، ويبدو نصا واحدا متماسكا ، وربما اعاننا " المخزومى " كاتب " الخاطرات " بهذا الصدد ، بما يبدد الحيرة بعض الشئ ، فهو يقول فى (التمهيد) للكتاب : " كذلك لابد للمطالع ان يرى مواضيع غير متسلسلة والسبب فى ذلك انها لم تكن فى موضوع أو مطلب واحد بل هى احاديث بعضها بنى على الحوادث ، وبعضها اتى على سبيل السؤال والاستفهام ، والبعض الآخر على سبيل الجدل مع آخر ، ومنها ما هو عفوا وبغير مقدمه (فأثبتنا الجميع على علاتها وكيفية صدروها " [1] .

الا ان المخزومى " تركنا فى حيرتنا ، فلم يوضح على التحديد اى تسلسل ذاك الذى يعنيه ، التسلسل الزمنى التاريخى ، ام التسلسل الموضوعى ؟!

- ولنلحظ ثانيا ، انه كيفما كانت طبيعة النص ، فموقف جمال الدين بهذا الشأن ، يتسم بالغرابة ، والتذبذب . وسيتضح هذا منعكسا على آراء الدراسين لموقفه هذا ، بل ستأتى آراء البعض ذاتها متذبذبة ، على ان نضع فى اعتبارنا ان البعض سيركز على هذا النص وحده ، والبعض الآخر سيأتى تقييمه من خلال هذا النص ، والنص السابق - الخاص بالحكم الجمهورى - معا ، وربما جاء البعض بتقييم عام .

- ولنتذكر ثالثا ، انه خلال العرض ، عرض الآراء ، ستعرض لنا مفاهيم اخرى لجمال الدين ، بصدد بعض القضايا السياسية الاخرى ، مثل رأيه فى تكوين " الاحزاب " وفكرة " المستبد العادل " وهى من الافكار الهامة لديه ، وأخيرا رأيه فى " مفهوم الحكم " .

بعض الدارسين يرى ان موقف جمال الدين من النظام النيابى يشوبه بعض الغموض . فبالرغم من انه كان متعلقا بالفعل بفكرة الدستور ، ويرى فيها المقابل الاوروبى لفكرة الشورى ، الا انه وقف مع ذلك موقفا متحفظا جدا من فكرة المجالس النيابية . ومن هنا جاء بديل الاستبداد فى الشرق لديه ، لا هو

---

(١) " الخاطرات " ، مرجع سابق ، تمهيد ، ص ١ .

الحكم النيابى الدستورى ، ولا هو الحكم الجمهورى • ويدل على ان الكلام الخاص بالحكم النيابى ، يعبر عن جوهر موقف جمال الدين ، ان هذا الكلام يتفق مع تشاؤمه امام نظام الاحزاب الذى عبر عنه نص آخر من " الخاطرات"، كما أنه يتفق مع رأيه فى ان ما يحتاج الشرق اليه انما هو " المستبد العادل• "(١)

بينما يرى البعض الآخر ، ان جمال الدين يريد فى درسه العام ان يتحرر الشعب من العبودية للحكام ، ويفهموا موقفهم من الحاكم ، وموقف الحاكم منهم•

ويريد فى السياسة ان يقتنع الشعب بحقه فى الحكم ، فاذا فهم ذلك – وهذا ما عمله جمال الدين وصحبه ، فى رأى الدارس ، – طالب بالمجلس النيابى ، فيعطاه بناء على فهمه وطلبه وقدرته ، لا على انه منحة تمنح له ، فاذا اعطيه بجهده كان اجدر بالمحافظة عليه ، وحرص عليه حرصه على دمه ، فأستقر وثبت ولم تستطع سلطة ما ان تلغيه او تهمله • ثم يشير الى النص الثانى ، مستشهدا فقط بالمقطع الذى دارت فيه مقابلة جمال الدين مع الخديوى توفيق ، ويعلق بعد ذلك •

لقد رأيناه اول عهده فى مصر يرى ان مجلس النواب لا قيمة له مادام المصريون على ما هم عليه من قلة التنبه ، وضعف اليقظة ، وقلة الشجاعة ، ثم رأيناه آخر عهده يلح فى طلب الحكم النيابى ويحرص عليه ، فلعله رأى من الأحداث واستبداد الحكام ، ونضج الأمه فى السنين الثمانى (٢) ما غير رأيه

---

(١) انظر فى تفصيل هذا الرأى : عزت قرنى : " العدالة والحرية •••" ، مرجع سابق، ص ص ٢٤٥-٢٥١ •

(٢) من الثابت ان العودة الثانية لمصر مكث بها جمال الدين من سنة ١٨٧١م – الى سنة ١٨٧٩م حين نفى منها • وهذه هى السنوات الثمانى التي يشير اليها الكاتب • كما انه من المعروف ان " الخاطرات " كتبت فى الفترة من سنة ١٨٩٢– الى سنة ١٨٩٧م ، وهى التي ورد ضمنها نص مقابلة جمال الدين للخديوى توفيق • فلابد ان النص يشير الى حادثة سابقة ابان اقامة جمال الدين بمصر ، خاصة وان النص يرد ضمن مقدمة خزومى عن " سيرة جمال الدين " التي قدم بها للخاطرات نفسها •

وعدل خطته [١] .

ولعل هذا المنطلق هو الذى دفع البعض الى تبرير رأى جمال الدين بأن الحكم الجمهورى حينئذ لا يصلح للشرق ولا لأهله ، من خلال آراء جمال الدين نفسه والحوادث آلتي مر بها وعاناها ودفعته الى ذلك . فأهل الشرق حينئذ خاملون يخيم عليهم الوخم والجهل ، وقد إنهارت منظمات الطوائف آلتي كان يمكن ان تكون اساسا لقيام الحياة الديمقراطية الصحيحة – اذ الحياة النيابية دون تدريب او تقدير للمسئولية لا تحقق الاغراض المرجوة منها ، بل قد تنقلب الى عكس المقصود منها ، فتصبح مطية سهلة لذوى الاغراض من المهيجين والمشعوذين . ولقد ابدى جمال الدين تشاؤمه بهذا الصدد حين كان بمصر ، ولمس بنفسه خمول المجلس النيابى المقيد الذى انشأه اسماعيل فى عام ١٨٦٦ ليشرك معه الاعيان فى اعبائه المالية . وكان رأيه فى الحياة النيابية فى الشرق متأثرا بهذه التجربة .

ومع ذلك فقد تعدلت فكرة جمال الدين هذه حين لعب المجلس النيابى المصرى دوره القومى كاملا فى اواخر حكم اسماعيل حين تم التحالف بين الحاكم والبرلمان والحزب الوطنى ضد التدخل الاجنبى ، وان يكن قد عاد الى فكرته الاولى حين ادت الحياة النيابية – مع عوامل اخرى – الى التعجيل بالاحتلال الاجنبى ، ومن ثم نظره جمال الدين التشاؤمية الى الاحزاب السياسية فى الشرق [٢] .

رأيه فى الأحزاب السياسية فى الشرق :

جاء فى " الخاطرات " تحت هذا العنوان " : قال :

---

(١) انظر : احمد امين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، النهضة المصرية ، ط١، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ص : ٧٤ – ٧٦ .

(٢) انظر فيما سبق : احمد عبد الرحيم مصطفى : " افكار جمال الدين الافغانى السياسية" ، مرجع سابق ، ص ص : ٢٣٥ – ٢٣٨ .

وفيما يختص بالاحزاب ، قارن رأى عزت قرنى ، السابق الاشارة اليه .

الاحزاب السياسية فى الشرق نعم الدواء ، ولكنها مع الاسف لا تلبث حتى تنقلب الى بئس الداء .

نحسن نحن الشرقيين تأليف الاحزاب السياسية لطلب الحرية والاستقلال وكل العالم لنا اصدقاء ، ونضطر لتركها والكل لنا اعداء . والسبب العامل فى ذلك عدم التكافؤ فى القوى بين الامة واحزابها السياسية .

يقوم الحزب السياسى بعنصر ضعيف ، أو بافراد قلائل ، بينهم اللسن والمحنك ، ويعلنون تفانيهم بخدمة الأمة لتحريرها من ربقة الاستعباد ، ويسرون خدمة انفسهم . فتتألف على أهل الحزب القلوب وتجتمع حولهم الكلمة ، بسوق الضرورة وداعى الحاجة ، ويستحسن عملهم الغريب ، ويهوسهم الدخيل ، شأن الحوادث المستجدة ، فى انقلاب الأمم من طور الى طور .

فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب ، سعادة ورفاها وحرية واستقلالا ومساواة على اوسع شكل قد لا يمكن حصوله فى البعيد الآجل ، فضلا عن القريب العاجل . فيؤازرون الحزب بكل معانى الطاعة والانقياد والنصرة والتضحية ... الخ فاذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة ، واستحكم له الامر ، ظهرت هنالك فى رؤساء الاحزاب ، الأثرة والانانية ، ومد حب الذات عنقه ، فتتقلص من القلوب تلك الطاعة وتتكمش النفوس عن ذلك الانقياد ، وتحصل بالنتيجة النفرة العامة ، فتضطر عندئذ لترك الحزب ، وينفرط بالطبيعة عقدة ، والكل له اعداء .

وضرب لنا عدة امثلة ، منها ما حصل فى الافغان وغيرها وما حصل فى حوادث عرابى وحزبه فى مصر ... ثم قال : لا ينبغى ان يؤخذ من قولى هذا ان لا فائدة من الأحزاب على مطلق الرأى والمعنى ، فان الشرق بعد ان اخنى عليه الدهر بكلكله ، ومرت عليه زلازل العسف والجور ، وأشكال الاستعباد ، حتى تأصل فى نفوس ابنائه بذور الذل والاستكانة لكل قوى اكتسح بلاده ، ان هذا الشرق وهذا الشرقى لا يلبث طويلا حتى يهب يوما من رقاده ، ويمزق ما تقنع وتسربل به هو وابناؤه من لباس الخوف والذل ، فيأخذ فى اعداد الأمم الطالبة لاستقلالها ، المستنكرة لاستعبادها .

على هذا الاساس الاجتماعي التدريجي ، لا مانع يمنع الشرقى من الانخراط فى الحزب بعد الحزب ، ويقبل من المواعيد ما يصدق ومالا يصدق ، حتى يظهر فى الشرق ما ظهر فى الغرب من افراد يرون الموت فى حياة وطنهم مغنما ، والحياة فى موت وطنهم مغرما .

حينئذ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذى هو نعم الدواء من داء استعباده ، فيجمع شتات ابنائه الذين كانوا اذلة ، ويصيرهم بنعمة الاخاء والاتحاد والتعاون اعزة ، بلادهم لهم وهم لبلاد هم نعم الامناء ، يعملون متضامنين على صالح مجموعهم ، ونصرة مظلومهم ، يأخذون ما لهم من حق، ويؤيدون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون " [1] .

مفهوم الحكم بين فكرة " المستبد العادل " و " نظرية الحكم الالهى " :

اذا كان هذا هو موقف جمال الدين من الحكم الجمهوري ، والحكم النيابى الدستورى ، متضمنا رأيه فى نظام الأحزاب فى الشرق ، فما هو الحل فى رأيه؟ وما هو مفهوم الحكم ونظريته لديه ؟

هل الحل الحقيقى الذى ارتآه جمال الدين لمشكلات الشرق انما هو حل المستبد العادل " الذى يحكم بالشورى ، ويكون هذا هو معنى الشورى لديه ، كما رأى بعض الدارسين ؟ [2] .

ام ان فكرة " المستبد العادل " هذه بعيدة عنه ، او انه وان يكن قد قال بها فى وقت ما ، الا انه قد تخلى عنها ونفاها بعد ذلك . وذلك على ما سيبدو لنا جمال الدين فى مرآة الدراسين الذين سنعرض لهم ؟

وكما هو المعتاد بصدد أفكار جمال الدين ، تتعدد الآراء وتتباين تباينا جما يبلغ فى احايين كثيرة ما يضعها على طرفى النقيض ، كما سنرى من بعد .

---

(١) " الخاطرات " ، مرجع سابق ، ص ص : ٨٥ - ٨٧ .

(٢) انظر عزت قرنى " العدالة والحرية ... " مرجع سابق ، خاصة الصفحات ٢٤٦، ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

الا اننا منذ البدء ، حسما للبلبلة وطلبا لوضوح الرؤية ، نبادر اولا بالوقوف في مواجهة نصوص جمال الدين ، مرتبة بتسلسلها الزمني والتاريخي عبر تطوره الفكري ، حتى نسير على هداها في تبين افكاره بهذا الشأن ، وفي رؤية تقييمات الدارسين له • ولنتذكر - ايضا هنا ، كما هو المتبع دائما - كما رأينا- جنوح الدارسين الى الابتسار والاقتصار والابتعاد عن منطلق النهج التاريخي في تعاملهم مع النصوص •

١ -رسالة الرد على الدهريين :

تحت عنوان " ما افاد الدين من العقائد والخصال " ، وفي الحديث عن " العقيدة الثانية " ، يقول : " فهذه العقيدة اقوى دافع للأمم الى التسابق لغايات المدنية ، وامضى الاسباب بها الى طلب العلوم ، والتوسع في الفنون ، والابداع في الصنائع ، وانها لأبلغ في سوق الأمم الى منازل العلاء ، ومقاوم الشرف ، من غالب قاسر ، ومستبد قاهر عادل "(١) •

٢ -العروة الوثقى :

ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها

" سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة تبديلا "

تحت هذا العنوان ، يرد جمال الدين على القائلين بأن طريق الشرق الى القوة انما هو نشر المعارف بين جميع الافراد ، يقول في رده : " •• ويظن قوم آخرون ان الامة المنبثة في اقطار واسعة من الارض مع تفرق اهوائها واخلادها الى ما دون رتبتها بدرجات لا تحصر ، ورضاها بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسيتها ولا من مشربها لمن كان ك خاضعا لسيادتها راضخا لأحكامها ، مع هذا كله يتم شفاؤها من الأمراض القاتلة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها ، وتكون على ارلز الجديد المعروف بأوروبا حتى تعم المعارف جميع الافراد في زمـــن

حمد عبده : (الثائر الإسلامي جمال الدين الافغاني) وملحق به رسالة الرد
كتاب الهلال ، اكتوبر ١٩٦٣ ، ص ١٣٨ •

قريب ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة • وما أبعد ما يظنون فان هذا العمل العظيم انما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل الأمة على ما تكره أزمانا حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته ، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائبا عن سلطته فى تنفيذ ما أراد من خيرها ، ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقات تلك المدارس وهى كثيرة • وموضوع كلامنا فى الضعف ودوائه ، فهل مع الضعف سلطة تقهر وثروة تغنى ؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين (١) •

٣ - خاطرات جمال الديــن :

" غرض جمال الدين الأسمى فى حياته : "

مما يلفت النظر ، أن " المخزومى " وهو مريد جمال الدين وتلميذه الشهير يقول تحت هذا العنوان ما يدل على ان الدور الرئيسى سيظل يلعبه الحاكم ، يقول فى هذا : " ••• نعم عرف جمال الدين بغرضه ، وسعيه الحثيث ، لجمع شتات أهل الشرق ، وايقاظ الهمم من أهله ، والاشراف بهم على الخطر الغربى المحدق بكيانهم ، والأخذ بخناقهم ، ليعملوا على جمع كلمتهم ، ويأخذ كل ملك ، أو أمير فى الشرق على ترقية شعبه وتحسين ملكه ، وتحصينه بالحكم الشورى الدستورى وتمكينه بما يربط الأقرب فالأقرب ، ويقويه بالتحالف والاتحاد حتى يرجع الكل ، الى الانضواء تحت راية الخلافة العظمى " (٢) •

وعلى الرغم من ذلك ، وبعد قليل ، يعود جمال الدين ليظهر بما قد يبدو انه قد تنصل من فكرة " المستبد العادل " — وهذا ما وقع فيه بعض الدارسين بالفعل — ، تقول " الخاطرات ، ان مريدى جمال الدين سألوه : ان المتداول بين الناس على لسانك : " يحتاج الشرق الى مستبد عادل " ، فأجابهم : " هذا من قبيل جمع الاضداد • وكيف يجتمع العدل والاستبداد ؟ وخير صفات الحاكم القوة والعدل ،

---

(١) " العروة الوثقى " ، مرجع سابق ، الأول ، ص ٦٦ •

(٢) " خاطرات " ، مرجع سابق ، ص ٨٤ — ٨٥ •

ولا خير بالضعيف العادل ، كما انه لا خير فى القوى الظالم " (١) .

الا ان ما يعنينا ويهمنا بهذا الصدد ، ينحصر فى ملحوظتين :

الاولى : ان المتداول بين الناس حقيقة كان بالفعل ذلك .

الثانية : ان منطق المذهب اقوى من كل التراجعات اللفظية ، ومنطق المذهب واضح من كل النصوص آلتي أثبتناها منذ قليل .

ولن نكتفى بهذا ، ولكن لو شئنا تعضيد هذا الرأى اكثر ، لأحلنا من يروم وضوحا ، وتأكيدا ، على موضع آخر فى " الخاطرات " مع ملاحظة انه يأتى بعد النص السالف بكثير وقرب نهايات الكتاب .

" قوله فى الناشئة الشرقية استحسانا واستهجانا ، وأمثلته على التقليد النافع ، وضربه المثل بدولة اليابان الشرقية وذكره انجع الوسائل للنهوض من السقوط ؟

فتحت هذا العنوان الطويل ، سنجد جمال الدين يكرر مرة اخرى ، وبذات الأفكار والألفاظ ، ما سبق ان قاله فى رده على القائلين بأن طريق الشرق الى القوة انما هو نشر المعارف بين جميع الافراد ، ونشر هذا الرد فى " العروة الوثقى " واثبتناه فى النص رقم (٢) ، واهم ما فيه ان هذا العمل العظيم : " .. انما يقوم به سلطان قوى ماهر يحمل الأمة على ما تكره ازمانا حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته ... (٢) .

ولنذكر ان " العروة الوثقى " هى العمل الثانى ، بعد " رسالة الرد على الدهريين ، فى الترتيب الزمنى التاريخى لاعمال جمال الدين المنشورة ، وان كتاب " الخاطرات " الذى جمعه وحرره " محمد باشا المخزومى " يمثل آخر ما نشر من اعمال جمال الدين ، فى سلسلة اعماله ، اى انه يعكس آخر مراحل تطوره الفكرى ، وهو ما يجب اعتباره – فى رأينا – فى تقييم جمال الدين ،

---

(١) "خاطرات " ، مرجع سابق ، ص ٩٠ .

(٢) " خاطرات جمال الدين ، ط٢، مطابع دار الفكر ، بدمشق ، ١٩٦٥، ص ٢١٤ .

والتعامل مع افكاره ونصوصه ، كيلا نجنح بالرجل وبأنفسنا بعيدا عن الانصاف وعن الموضوعية ٠

وعلى الرغم من ذلك ، فاذا ما نظرنا لجمال الدين فى مرآة المفكرين والدارسين فلن نجد شخصية تتسم بالوحدة والتماسك ، او تتميز بالثبات الفكرى سواء ان كان السبب في هذا يرجع الى جمال الدين نفسه والى الوقائع ، اى نصوصه ، ام كان يرجع الى الدارسين انفسهم لأسباب بيناها قبلا ٠٠

فى رأى البعض ، انه اذا كان فكر جمال الدين الاجتماعي قد اصابه الظلم من قبل الذين وقفوا منه وبه عند حدود المرحلة والصياغات التي تعاطفت مع المفهوم الرأسمالى ومعاداة الاشتراكية ٠ واذا كانت محاولات استغلال هذه الصياغات قد حدثت بعد وفاة الفيلسوف الكبير - يقصد جمال الدين - ، فان الفكر الديمقراطى لديه قد اصيب بما هو اكثر من الظلم ، عندما تعرض الرجل بصدده لافتراءات واكاذيب نسبت له مالم يقله ، بل ضد ما يعتقده ويبشر به ، ولم تنتظر فى ذلك وفاته ، بل صنعت ذلك وهو حى يرزق يسعى بين الناس ٠ ومن هنا لم يسمع ويقرأ ان جمال الدين قد كان يبشر بأن صلاح المجتمعات الشرقية لا يمكن ان يتم الا على يد حاكم " مستبد عادل " وان الرجل كان نصيرا للحكم الفردى المطلق ، على شرط ان تتوافر العدالة لمن يمسك بزمام الأمر فى هذا النظام !؟ ٠

وفى سبيل تفنيد هذا الافتراء الجرئ على جمال الدين ، لن نسلك - تقول الدراسة - سبيل الاحتكام الى حياته فقط ، وما حفلت به من معارك ونضالات ضد الاستبداد والمستبدين ، ولا سبيل كتاباته فقط التي اودعها الكثير من آيات الشورى والديموقراطية ، والايمان الذى لا يحد بالحكم النيابى الدستورى السليم، ولا سبيل ايراد النماذج السياسية الديمقراطية التي حبذها فحسب ، والتى اشار على شعوب الشرق العربية الاسلامية بالاستفادة منها ، وانما سنسلك كل هذه السبل ٠٠٠

فهو هنا - أى جمال الدين - حاسم الموقف ، واضح الرأى لا يترك مجالا

للبس او الغموض [١] !!

فعلى عكس الكثيرين من المصلحين الدينيين الذين مالوا ، فى مجموعهم الى الاسلوب الاوتوقراطى فى الحكم والادارة ، نجد جمال الدين - الرأى لنفس الدارس - شديد الايمان بالحكم النيابى ، وضرورة تمثيل القوة النيابية للشعب وصدورها من احشاء الجماهير [٢] .

ولم يكن جمال الدين باحثا عن قيام الشكل النيابى والدستورى ، وانما ساعيا وراء تحقيق الجوهر والمضمون الحقيقى لهذا النظام [٣] .

اما فى رأى حورانى .. Hourani ، فان جمال الدين لا ينكر ان الحاكم المستبد يستطيع ، اذا حسنت نواياه ، ان يحقق الكثير من الخير بسرعة ، لكن خطر الحكم الاستبدادى فى ان كل شئ فيه يتوقف على اخلاق الحاكم . لذلك كان من واجب زعماء الرأى الوطنى التخلص من الحاكم الفاسد قبل فوات الأوان ، حسبما اشار بنفسه فى " العروة الوثقى " [٤] .

ويرى " حورانى " .. Hourani ان جمال الدين كان مثله الأعلى فى الحكم، مثلة فى ذلك مثل العقائد بين المسلمين ، حكم ملك عادل يعترف بسيادة الشريعة .

ويعلق على ذلك ، بأن جمال الدين لم يكن دستوريا على اساس مبدئى[٥].

---

(١) انظر : محمد عمارة : الافغانى .. مفكرا ومناضلا " ملف خاص " ، فى مجلة : الطليعة ، القاهرة ، العدد الرابع - السنة الخامسة - ابريل ١٩٦٩ ، ص ١٣٩ .

(٢) محمد عماره : الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى مع دراسة حياته وآثاره ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٩٦ .

(٣) محمد عمارة : الافغانى مفكرا ومناضلا " ملف خاص " فى مجلة : الطليعة ، مرجع سابق ، ص ١٤١ .

(4) Hourani, A., Arabic thought in the liberal Age, 1879-1939 London, 1967. P. 116 .

(٥) تعليق على حورانى : هذا النقد راجع الى تسليم حورانى بأن فكرة الديموقراطية الغربية هى المثل الاعلى عنده للديموقراطية ، لذلك فهو يهتم بالمؤسسات ولا يعتبر الاستناد الى مبادئ الشريعة موقفا دستوريا مبدئيا .

هذا بينما يرى البعض الآخر ، أنه كما يدعو جمال الدين الى الاشتراكية والتصنيع فانه يدعو الى الديموقراطية ، فهى انسب نظم الحكم وابقاها فى الارض • وهو يطالب بالحكم الدستورى لمصر ، ويندد بنواب الحزب الذين يعملون من اجل طبقتهم ••

ويرى انه قد يحدث فى النظام النيابى تلاعب الأحزاب واتفاق اليمين واليسار ويكون اليسار ملكيا اكثر من الملك ••

وهذا كله هو معنى ما قاله جمال الدين من ان الحكم الجمهورى لا يصلح للشرق اليوم ولا لأهله ، ومعنى ما طالب به فى حكم الطاغية العادل ••

ويظهر هذا التذبذب بين الحكم النيابى وبين الطاغية العادل فى دعوة جمال الدين الى إستقلال الامارات أسوة بما فعل محمد على فى مصر ، والحفاظ على القوميات ، اى تمتع الامارات بالاستقلال الذاتى ••

دعا جمال الدين الى تحرير الأرض ، ولكنه قام اولا باثبات حرية الفرد فى النضال وتحرره من قيود النظم السياسية والعقائد الدينية ، ولم تكن دعوته فى الحقيقة الى النظم النيابية الا دعوة لحرية الفرد نظرا لما رآه فى مصر من استكانة لمحو الحريات الفردية [1] .

واذا كنا قد رأينا فيما سبق صورة جمال الدين بصدد فكرة " المستبد العادل" فان ثمة صورة أخرى تكاد تقترب به من فكرة " الحكم الالهى " ، ومن " نظرية الصفوة " قليلا او كثيرا •

كان جمال الدين قد قال فى " العروة الوثقى " ، وهو بصدد توضيح مصدر وجوب الطاعة للسلطة الزمنية وذلك فى مقالته عن (الجنسية والديانة الاسلامية) فقال : ان النفوس اذا اعتمدت جميعها على " حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضاءل لعظمته القدرة وتخضع لسلطته النفوس بالطمع ، وتكون بالنسبة اليه متساوية الاقدام ، وهو مبدأ الكل وقهار السموات والأرض ، ثم

(١) لاحظ : حسن حنفى حسنين : قضايا معاصرة ، (١) فى فكرنا المعاصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ١٠٥ - ١٠٧ •

يكون القائم من قبله بتنفيذ احكامه اى الحاكم الأرضى مساهما للكافة فى الاستكانة والرضوخ لأحكام احكم الحاكمين ، فاذا اذعنت الانفس بوجود الحاكم الأعلى ، وايقنت بمشاركة القيم على أحكامه وهو الحاكم الأرضى لعامتهم فى التطامن لما أمر به ، اطمأنت فى حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة وهو الحاكم الأرضى ايضا واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة اليها " (١) .

والقارئ المتنبه – كما يقول البعض – سيجد فى هذا النص وضعا جديدا لنظرية " الحكم الالهى " (٢) .

واذا كانت حركات التحرر من الظلم والاستعمار فى العالم الإسلامى قد استلهمت جميعا افكاره الثورية المجددة ليس فقط فى الهند وايران وافغانستان ، بل ايضا فى مصر وتركيا والسودان والتركستان

فليس معنى هذا ان دعوته قد امتدت الى جماهير الشعب فى تلك البقاع ، بل انها اقتصرت الى حد بعيد على تلك الفئة القليلة الموجهة فى كل زمان ومكان ، وهى الفئة التي تضم الصفوة المثقفة وطليعة المتحررين من قيود التقليد ورواسب الماضى (٣) .

واذا كان جمال الدين يقول فى " الخاطرات " تحت عنوان : (الحق والأكثرية) : ان " ... الحقائق من دين ومذهب ، وقواعد علمية وفنية ، ما ظهرت وما استقرت وتدونت وانتشرت الا بواسطة افراد قلائل ، وقد قاومها المجموع بأشد ما لديه من قوة ، ووسائل القهر " (٤) .

اذا كان يقول بهذا ، بالإضافة الى قوله بعدم صلاحية الحكم الجمهورى

---

(١) " العروة الوثقى " ، مرجع سابق ، جـ١ ، ص ٣٥ .

(٢) انظر عزت قرنى " العدالة والحرية ... " ، مرجع سابق ، ص ٢٥٩ .

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : افكار جمال الدين الافغانى السياسية ، مرجع سابق ، ص ٢١٥ .

(٤) " خاطرات " ط٢ ، مرجع سابق ، ص ١٣٤ .

للشرق اليوم ولا لأهلة ، وما طالب به فى حكم الطاغية العادل ...

فهذا كله يرجع الى انه يؤمن بالبطولة الفردية وبالقلة المؤمنة ، طبقا للنظرية الدينية التقليدية آلتي تؤمن بالسلطة المركزية فى الكون وفى المجتمع ، حتى ليبدو جمال الدين فى بعض الاحيان من اصحاب نظرية الصفوة المختارة النشطة المحركة للمجموع [١] .

ولا يسعنا فى مجال تطور الفكر القومى الليبرالى فى مصر ان نغفل الأثر الكبير الذى خلفه جمال الدين فى البلاد خلال السنوات الثمان آلتي اقامها بها – وفى خلالها التف حوله خيرة المثقفين المصريين الذين وجه افكارهم لتكون فى خدمة الشعب : تدافع عن حقه وتهاجم من اعتدى عليه أيا كان .

وكان يرى ان الحرية والاستقلال لا يوهبان عن طيب خاطر بل ان الأمم تحصل عليهما قوة واقتدارا ، وان يكن يفضل ان يتحول الحكم المطلق الى الحكم النيابى بارشاد الحاكم ونصحه من جانب عقلاء مقربيه .

واذا كان – بالاضافة لرأيه فى الحكم الجمهورى – قد ابدى تشاؤمه من اسلوب نشاط الاحزاب السياسية ، فليس معنى هذا انه كان ينادى بالغاء الأحزاب قاطبة ، بل انه كان اميل الى التدرج فى مجال العمل السياسى بما يوائم طبيعة الشعب واستعداداته [٢] .

وربما كانت خير خاتمة لهذا ، بتعبير لا يخلو من الدقة والعمق ، ان جمال الدين ، اذ كان مثله الأعلى فى الحكم – مثل العقائديين المسلمين – حكم ملك عادل يعترف بسيادة الشريعة ، لم يكن دستوريا على اساس مبدئى ، بل كان بطبيعته اوتوقراطيا ولجوجا [٣] وقد صرف حياته بكاملها يفتش عن حاكم مسلم

---

(١) حسن حنفى : قضايا معاصرة ، (١) ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

(٢) انظر : احمد عبد الرحيم مصطفى : تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ، مرجع سابق ، ص ص ٣٠ – ٣١ .

(٣) سيكون من الطريف مقارنة هذا برأى محمد عمارة السابق ذكره .

يمكنه بواسطته العمل على احياء الاسلام ، على غرار تلك الشراكة بين الحاكم والفيلسوف آلتي تخيلها الفارابى كبديل للملك الفيلسوف المثالى الذى لم يكن يظهر الا نادرا ، لكن آماله كانت تخيب كل مرة ، اذ كان يعثر دوما ، اما على حاكم لم يطبع على العدل ، او على حاكم لا يعترف بسيادة الشريعة ..

ولم يكن جمال الدين ينتمى الى الاغلبية المسالمة من المفكرين المسلمين ، الذين كانوا يقولون بأن عليهم ان يحتجوا على ظلم الحاكم وان يرضخوا له فى الوقت نفسه ، بل تبنى بالأحرى رأى الاقلية المؤمنة بحق الثورة [١] .

(1) Hourani, A., Arabic Thought000, Op. Cit. P.P. 116-117 .

ملحق النصوص

العُروة الوُثقى

والثورة التحريرية الكبرى

للسيد جمال الدّين الأفغاني

والشيخ محمد عبده

لماذا عدوت الجريدة (١)

< ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير >

هذا ما تمده العناية الألهية من قول الحق ، متعلقا بأحوال الشرق ، وعلى الله المتكل فى نجاح العمل .

خفيت مذاهب الطامعين أزماناً ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت ، أوغل الأقوياء من الأمم فى سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا لبابهم حتى أذهلوهم على أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم حداً لا تحمله النفوس البشرية .

ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم ، ويغرى به شيطان الخيال . فظنوا أن القوة الآلية وإن قل عمالها يدون لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتفقت آجادها بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير ، فى النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان ، فان تقلبات الحوادث فى الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه إن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت فى سواد أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز فى زمن من الأزمان امحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها فى العدد أو تكون منها على نعسة متقاربة ، وإن بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيال .

والذى يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الإنسانى من يوم علم تاريخ الى اليوم أن الأمم الكبيرة اذا عرا[illegible] الافتراق فى الكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد ، أو ركون إلى راحة لا تدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ،

---

(١) صدر العدد الأول منها فى جمادى الأول سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م وبلغ ما نشر منها ثمانية عشر عدداً وصدر العدد الأخير منها فى ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ وانتهت بسبب محاربة الانجليز لها .

ثم صالت عليها قوة أجنبية ، أزعجتها ونبهتها بعض التنبيه فاذا توالت عليها وخزات الحوادث ، وأقلقها آلامها فزعت الى استبقاء الموجود ورد المفقود ، ولم تجد بداً من طلب النجاة من أى سبيل وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهى ما تكون بالتئام أفرادها ، والتحام آحادها ، وأن الالهام الألهى والاحساس الفطرى والتعليم الشرعى ترشدها الى أن لا حاجة إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شئ عليها ٠

إن النفوس الانسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا الى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الأمكان فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس الى قواها ، واستاسد ذئبها ، وتنمر ثعلبها ، والتمست خلاصها ولن تعدم عند الطلب رشاداً ٠ ٠

ربما تخطئ مرة فتكون عليها الدائرة ، لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط واحتراس من الوقوع فى مثله فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة ، وان الحركة آلتي تنبعث لدفع ملا يطاق اذا قام بتدبيرها قيم عليها ، ومدبر لسيرها ، لا يكفى فى توقيف سريانها ، أو محو آثارها ، قهر ذاك القيم واهلاك ذاك المدبر ، فان العلة ما دامت موجودة لاتزال آثارها تصدر عنها ، فان ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة ، نعم ممكن تخفيف الأثر أو إزالته بازالة علته ورفع أسبابه

جرت عادة الامم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها فى الاخلاق والعادات والمشارب ، وان لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها ، فكيف بها اذا حملها مالا طاقة لها به ٠ لاريب انها تستنكره ، وان كانت تستكبره ، وكلما انكرته بعدت عن الميل اليه ، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريباً تقرب ضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك

٠٤

ان مجاوزة الحد فى تعميم الاعتداء تنسى الامم ما بينها من الاختلاف فى الجنسية والمشرب ، فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنس والمذهب وفى هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك فى طلب المنفعة •

أبعد هذا يأخذنا العجب إذا أحسسنا بحركة فكرية فى أغلب انحاء المشرق فى هذه الايام • كل يطلب خلاصاً ويبتغى نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والاسباب ما يصل اليه فكره على درجته من الجودة والاتن وان العقلاء فى كثير من اصقاعه يتفكرون فى جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل •

بلى ، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وان عمى عنه الطامع وليس فى الامكان اقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتى به الزمان من عاداته فى أبنائه بل ما يجرى به القضاء الالهى من سنة الله فى خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون •

بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته ، خصوصا فى المسلمين منهم ، فمنهم ملوك انزلوا عن عروشهم جوراً وذووا حقوق فى الامرة حرموا حقوقهم ظلماً ، وأعزاء باتوا أذلاء وأجلاء أصبحوا حقراء وأغنياء أمسوا فقراء وأصحاء سقاماً وأسود تحولت انعاماً ، ولم تبق طبقى من الطبقات الا وقد مسها الضرر من افراط الطامعين فى أطماعهم خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها فى الاراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى ذوى المطامع فيها • حملوا الى البلاد مالا تعرفه فدهشت عقولها وشدوا عيها بما لا تألفه فحارت ألبابها وألزموها ما ليس فى قدرتها فاستعصت عليه قواها وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع فكانت الحركة العرابية العشواء فاتخذوها ذريعة لما كانو له طالبين فاندفع بيهم سيل المصاعب ، بل طوفان

المصائب ، على تلك البلاد وظنوا بلوغ الأرب ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا •

لم تكد تخمد تلك الحركة فى بادئ النظر حتى خلفتها حركة أخرى وفتح باب كان مسدوداً وقام قائم بدعوة لها المكانة الاولى فى نفوس المسلمين بل هى بقية آمالهم ولا ندرى الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة وربما يوجد من يدرى أن مسببها فى حيرة من تلافيها ، نعم أنهم غرسوا غرسا إلا أنهم سيجنون أو هم الآن يجنون منه حنظلا ويطعمون منه زقوما • لاجرم هذه هى العواقب آلتي لا محيص عنها لمن يغالى فى طمعه ويتغلغل فى حرصه ولو أنهم تركوا الأمر من ذاك الوقت لأربابه وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعته أو اقتناء فائدته لحفظوا بذلك مصالحهم ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة بدون أن تزل لهم قدم أو ينكس لهم علم •

غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الاهواء وهو انفق عواملهم واقتلها وما علموا أنه وإن كان زريع الفتك إلا أنه سريع العطب وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين فان بلاء الجور إذا حل بشطر من الامة وعوفى منه باقيها كانت سلامة البعض تعزيه • للمصابين وحجاب غفلة للسالمين يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب اخوانهم أما إذا عم الضرر فلا محالة يحيط بهم الضجر ويعز عليهم الصبر فيندفعون إلي ما فيه خيرهم ولا خير فيه لغيرهم •

ان الحالة السيئة آلتي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموما • إن مصر تعتبر عندهم من الاراضى المقدسة ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين فان كان هذا الباب أمينا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع والا اضطربت أفكارهم وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من اركان الديانة الإسلامية ، ان الخطر الذى ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم ولن تزال آلامه تستفزهم مادام الجرح نغاراً • وما هذا بغريب

على المسلمين فإن رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة مادام القرآن يتلى بينهم وفي آياته مالا يذهب على افهام وقارئيه فلن يستطيع الدهر أن ينلهم أن الفجيعة بمصر حركت أشجاناً كانت كامنة وجددت أحزانا لم تكن في الحسبان وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم وهم من تذكار الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ولا نأمل أن يصير التنفس زفيراً بل نفيراً عاماً بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصمه الطمع •

إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له في فتوحاته الا المداهاة ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ولا أسنة يحفظ بها ما تمتد اليه يده إلا المراضاة يظهر بصور مختلفة الألوان متقاربة الاشكال كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ومثبت مراكز الأمراء ومسكن الفتن ومخلص الحكومات من غوائل العصيان وواقي مصالح المغلوبين فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما لا يهتك هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر وكر النظر وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها إذا حنقت خنقت وليس له أن يغتر بعدم مكنتهم وهو يعلم أن الكلمة اذا اتحدت لا تعوزها الوسائط ولا يعدم المتحدون قوياً شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لتوبيخ سياسته وأن المغيظ لا يبالي في الايقاع بمناوئه أسلم أو عطب فهو يضر ليضر ، أن مسه الضر •

الا ان غشية التهم ذهبت بعقول النيومين ووقرت ... ـهم عن حسيس الهمسات المتراسلى من الهند الى مكة ومن مكة الى مصر والكرير [1] الممتد من مصر الى مكة من مكة الى الهند وكلها تتلاقى بين تراقى المغرورين بقوتهم المسترسلون في جفونهم •

أن الرزايا الاخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط وقاربـــت

---

(١) الكرير : صوت في الصدر كصوت المختنق •

بين الاقطار المتباعدة بحدودها المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها فأيقظ أفكار العقلاء وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل آلتي أدت بهم الى ما هم فيه فتقاربوا فى النظر وتواصلوا فى طلب الحق وعمدوا الى معالجة الحق وعلل الضعف راجين ان يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسناً يسلكونه لوقاية الدين والشرف وان فى الحاضر منها لنهزة تغتنم والبها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم ولئن فاتت فكم فى الغيب من مثلها وإلى الله عاقبة الامور •

تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار خصوصاً البلاد الهندية والمصرية وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ويوحدون كلمة الحق فى كل صقع لا ينون فى السعى ولا يقصرون فى الجهد ولو أفضى بهم ذلك الى أقصى ما يشفق منه حى على حياته •

ولما كانت بدايتهم تستدعى مساعدة من يضاعرهم فى مثل حالهم رأوا أن يعقدوا الروابط الاكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالى أوروبا وكتبوا على أنفسهم النظر فى أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين وفيها موسم الحجيج العام فى كل عام يجتمع اليه الشرقى والغربى ويتآخى فى مواقفها الطاهرة الجليل والحقير والغنى والفقير كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات والله يهدى من يشاء الى سواء السبيل •

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر وأقرب الى الظفر يستدعى أن يكون للداعى فى كل قلب سليم نفثة حق ودعوة صدق طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم بين من خفى عنه شأنهم من أخوانهم واختاروا أن يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان العربى وأن تكون فمدينة حرة كمدينة بارس [1] ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم وتوصيل أصواتهم الى

---

(١) يقصد بارس عام ١٨٨٤ !!

الأقطار القاصية تنبيها للغافل وتذكيراً للذاهل ، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسيني الافغاني أن ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم فلبى رغبتهم بل نادى حقاً واجباً عليه لديه ووطنه وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها فكان ما حمل الاول على الإجابة ، حمل الثاني على الامتثال ، وعلى الله الاتكال في جميع الأحوال .

سيأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الامكان من بيان الواجبات آلتـي كـان التفريق فيها موجباً للسقوط والضعف وتوضيح الطرق آلتي يجب سلوكها لتـدارك ما فات والإحتراس من غوائل ما هو آت •

ويستتبع ذلك البحث فى أصول الاسباب ومناشئ العلل آلتي قصرت بهم إلى جانب التفريط والبواعث آلتـي دفعت بهم إلـى مهامـه حيرة عميت فيهـا السـبل وإشـتبهت بهـا المضـارب وتـاه فيهـا الخريـت [1] وضـل المرشـد حتـى لا يـدرى السالكون من أين تفجعهـم الطـوارق المفزعـة والمزعجـات المدهشـة والمدهشـات القاتلة •

وتكشف الغطاء ما استطاعت من الشبه آلتي شغلت أوهام المـترفين ولبسـت عليهم مسالك الرشد وتزيح الوساوس آلتي أخذت بعقـول المنعميـن حتـى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشـفاء أدوائهم وظنـوا أن زمـان التـدارك قـد فـات وأن العناية بلغت حدها •

وتحاول اشرا الأفهام أن لا حاجة فى الوصول الى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الهمـم وانحطـاط العزائـم وأن تخيل تلك لدائرة الواسـعة انمـا عرض مـن الادبـار علـى المطلـوب وهـو تحـت الجنـح ويكفى فى الوصـول اليه عطفة نظر وقطع بعض خطـوات قصيرة •

وأن الظهور فى مظهر القوة لدفع الكـوارث إنمـا يـلزم لـه التمسـك ببعض الأصول آلتي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم وهى ما تمسـكت بـه أعـز دولـة أوروبيـة وأمنعهـا ولا ضـرورة فـى إيجـاد المنعـة الـى اجتمـاع الوسـائط وسـلوك المسالك آلتي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ولا ملجئ للشرقى فـى بدايته أن يقف موصف الأوروبى فى نهايته بل ليس له أن يطلب ذلك وفيمـــــا

---

(1) الخريت : الدليل الحاذق بطرق الارض •

مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرأ أعجزها وأعوزها ٠

وتنبه بأن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية فان فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف ، وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة المدبج بأشكال المجاملة شفافاً ينم عما وراءه وتنقب عن المسالك النقيقة آلتي يسري بها الطامعون في ياجر الغفلات ٠

ويهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة آلتي يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم ولا وقوف على حقائق أمورهم وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدينة مادامو على أصولهم آلتي فاز بها آباؤهم الأولون ولا تهن في تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون في شئونهم مع اختيار الصادق وانتقاء الثابت ٠

وتراعى في جميع سيرها تقوية الصلاتن العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسات القويمة آلتي لا تميل إلى الحيف والأجحاف بحقوق الشرقيين ٠

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها والحاملين عليها لا تظهر اذا أدلجوا ولا تجد إذا غوروا وتذهب مذاهب الرشد ونصيب بحول الله موقعه عند من سبق في أزلي علم الله هدايته والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ٠

وترسل إلى الذين نعرف أسماؤهم مجانا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير والغني والفقير ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى ادارة الجريدة بالأسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذي يريده والله الموفق ٠

ان استقراء حال الافراد من كل أمة واستطلاع اهوائها يثبت لجلى النظر ودقيقة وجوب تعصب للجنس ونعرة عليه عند الأغلب منهم وان المتعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر بنيه ويغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب ولا بحث فى علة هذا الوجدان حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية الا أنه يبعد ظنهم ما نراه فى حال طفل ولد فى أمة من الأمم ثم نقل قبل التمييز إلى أرض أمة أخرى وربى فيها الى ان عقل ولم يذكر له مولده فانا لا نرى فى طبعه ميلا اليه بل يكون خالى الذهن من قبله ويكون مع سائر الأقطار سواء بل ربما كان آلف لمرباه وأميل اليه والطبيعى لا يتغير •

ولهذا لا نذهب إلى أنه طبيعى ولكن قد يكون من الملكات العارضة على الأنفس نترسمها على الواحها الضرورات فان الانسان فى أى أرض له حاجات جمة وفى أفراده ميل إلى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة اذا لم يصبغوا بتربية زكية ، وسعة المطمع اذا صحبها اقتدار تدعو بطبعها الى العدوان لهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر فاضطروا بعد منازلة الشرور احقاباً طوالاً الى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا إلى الاجناس فتوزعوا أمماً كالهندى والانجليزى والروسى والتركمانى ونحو ذلك ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادراً على صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدى القبيل الأخر ثم يجاوزوا فى ذلك حد الضرورة كما هى عادة الانسان فى اطواره فذهبوا الى حد أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علماً بأنه لابد أن يكون جائراً اذا حكم ولئن عدل فان قبلو حكمه ذلا تحس به النفس وينفعل له

فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية تبع هو الضرورة فى الزوال كما تبعها فى الحدوث بلا ريب وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضائل لعظمته القدرة وتخضع لسلطته النفوس بالطمع وتكة بالنسبة اليه متساوية الأقدام وهو مبدأ الكل وقهار السموات والارض ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه مساهما للكافة فى الإستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين. فإذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم فى التطامن لما أمر به • اطمأنت فى حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة اليها فمحى أثرها من النفوس والحكم لله العلى الكبير •

هذا هو السر فى أعراض المسلمين على اختلاف اقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أى نوع من أنواع العصبيات ماعدا عصبيتهم الاسلامية فان المتدين بالدين الاسلامى متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ويلتف عن الروابط الخاصة الى العلاقة العامة وهى علاقة المعتقد •

لان الدين الاسلامى لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الادنى الى عالم أعلى بل هى كما كانت كافلة لهذا جاءت واقية بوضع حدود المعاملا بين العباد وبيان الحقوق كلها وجزئيها وتحديد السلطة الوازعة آلتي تقوم بتنفيذ المشروعات واقامة الحدود وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها لامن أشد الناس خضوعا لها ولن ينالها بوراثه ولا امتياز فى جنس أو قبيلة أو قوة بدنية وثروة مالية وإنما تنالها بالوقوف عند أحكام الشريقة والقدرة على تفيذها ورضاء الأمة • فيكون وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الالهية آلتي لا تميز بين جنس وجنس واجتماع آراء لأمة ، وليس للوازع أدنى امتياز عنهم الا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة الدفاع عنها •

وكل فخار تكسبه الانساب وكل امتياز تفيده الاحساب لم يجعل له الشارع أثراً فى وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض بل كل رابطة سوى

رابطة الشريعة الحقة فهي ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لها ملوم فقد قال صلى الله عليه وسلم (ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية) والأحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة فى التقوى - اتباع الشريعة " أن أكرمكم عند الله أتقاكم " ومن ثم قام بأمر المسلمين فى كثير من الأزمان على اختلاف الاجيال من لا شرف له فى جنسه ولا امتياز له فى قبيله ولا ورث الملك عن آبائه ولا طلبه بشئ من حسبه ونسبه وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه .

وان بسطة ملك الوازعين فى المسلمين كان بسديها إليهم على حسب امتثالهم للاحكام الالهية واهتدائهم بهديها وتجردهم عن الاعتلاء الشخصى وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره فى أبهته ورفاهة معيشته وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد رجعت الأجناس الى تعصبها ووقع الإختلاف وانقبضت سلطة ذاك الوازع .

هذا ما أرشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الاجناس وانما ينظرون الى جامعة الدين لهذا ترى العربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهدى يذعن لرياسة الأفغانى ولا شمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض ، وأن المسلم فى تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل مادام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذاهبها ، نعم اذا نبأ فى سيره عنها وجار فى حكمه عما نصت عليه وطلب الاثرة بما ليس من حقه انصدعت منه القولب ، وانحرفت عن محبته الانف وأصبح وان كان وطنياً فيهم أشنع حالاً من الأجنبى عنهم .

إن المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والاسف عندما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامى بدون التفات إلى جنسها وقبيلها .

ولو أن حاكما صغيرا بين قوم مسلمين من أى جنس كان تبع الأوامر الالهية وثابر على رعايتها وأخذ الدهماء بحدودها وضرب بسهمه مع المحكومية فى الخضوع لها وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة لأمكنه أن يجوز بسطة فى الملك وعظمة فى السلطان وأن ينال الغاية من رفعة الشأن فى الاقطار المعمورة بأرباب هذا الدين ولا يتجشم فى ذلك أتعاباً ولا يحتاج إلى بذل النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية ... ويستغنى عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الاصول الأولى فى الديانة الاسلامية القويمة ومن سيره هذا تنبعث القوة وتتجدد لوازم المنعة ؛ أكرر عليك القول بأن السبب هو الدين الاسلامى لم تكن وجهته كوجهة سائر الأديان التى الآخرة فقط ولكن مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد فى دنياهم وما يكسبهم السعادة فى الدنيا ، والنعيم فى الآخرة وهو المعبر عنه فى الاصطلاح الشرعى بسعادة الدارين وجاء بالمساواة فى أحكامه بين الاجناس المتباينة والامم المختلفة .

ابيضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى أصاب أن بعضا من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم فى معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية فيلجأون للدخول تحت سلطة أجنبية على أن الندم يأخذ بأرواحهم عند أول خطوة يخطونها فى هذا الطريق فمثلهم كمثل من يريد الفتك بنفسه حتى إذا أحس بالألم رجع واسترجع : وان بعض ما يطرأ على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق انما يكون منشأوه قصور الوازعين وحيدانهم عن الاصلو القويمة التي بنيت عليها الديانة الاسلامية وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الأقدمين فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررهما بالسلطة العليا فاذا رجع الوازعون فى الاسلام الى قواعد شرعهم وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض قليل من الزمان الا وقد آتاهم الله بسطة فى الملك وألحقهم فى العزة بالراشدين أئمة الدين وفقنا الله للسداد ، وهدانا طريق الرشاد .

ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها

﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾

أرأيت أمة من الأمن لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم انشق عنها عماء العدم فاذا هى بحمية كل واحد منها كون بديع النظام قوى الاركان شديد البنيان عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم تخمد فى ساحاتها عاصفات النوازل وتنحل بأيدى مديريها عقد المشاكل نمت فيها أفنان العزة بعد ما ثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان على البعيد عنها والدانى اليها ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة فاستطت آدابها وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها وأحسست مشاعر سواها من الأمم بأن لا سعادة الا فى انتهاج منهجها وورود شريعتها وصارت وهى قليلى العدد كثيرة الساحات كأنها للعالم روح مدبر هو لها بدن عامل .

وبعد هذا كله وهى بناؤها وانتثر منظومها وتفرقت فيها الأهواء وانشقت العصى وتبدد ما كان مجتمعا وانحل ما كان منعقداً وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ودار كل فى محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه لا يلمح فى مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية وهو فى غيبة عن أن ضروريات حاجاته لا تنال الا على أيدى الملتحمين معن بلحمة الأمة وأنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده وإلى توفير خيرهم من تنمية رزقه وكأنه بهذه الغيبة فى سبات يخيله الناظر اليه صحوا ، وذبول يظنه المغرور زهواً وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها وحدثت فيهم قناعة النهم والرضا بكل حال ولئن تنبه خاطر للحق فى خيال أحدهم

---

(١) أكثر عناوين المقالات مأخوذ عن تاريخ الامام (رحمه الله) - طبعة مجلة (المنار) الاسلامية .

أو استفزه داع من قلبه الى ما يكسب ملته شرفا أو يعيد اليها مجداً عده هوساً وهذياناً أصيب به من ضعف فى المزاج أو خلل فى البنية أو حسب أنه لو أجاب داعى الذمة لعاد عليه بالوبال وأورده موارد الهلكة أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته ونكد معيشته ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلال من اليأس فتغل يداه عن العمل وتقف قدماه عن السعى ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبل وتجمد قريحته عن فهم ما قلم به أولئك الأباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا وقيما على ما أورثوه لاعقابهم ويبلغ هذا المرض من الأمة حداً يشرف بها على الهلاك ويطرعها على فراش الموت فريسة لكل عاد وطمعة لكل طاعم ٠

نعم رأيت كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت وارتفعت ثم انحطت وقويت ثم ضعفت وعزت ثم ذلت وصحت ثم مرضت ولكن أليس لكل علة دواء ٠ بلى ٠

وآأسفاً ما أصعب الداء وما أعز الدواء وما أقل العارفين بطرق العلاج كيف يمكن جمع الكاملة بعد افتراقها وهى لم تفترق إلا لأن كلا عكف على شأنه ٠٠٠ استغفر الله لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالا به ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه ٠ نعم ربما لتفت كل الى ما هو فطرة كل حى من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه وهو لا يدرى من أى وجه يحصلها ولا بأية طريقة يكون ـى أمن عليها ؛ كيف تبعث الهمم بعد موتها وما ماتت إلا بعد ما سكنت زمنا غير قصير إلى معاليها هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم وهو يعتقد أن الفوز فى سلوك سواه خصوصاً بعد ما استدبر المقصد وفى كل خطوة يظن أنه على مقربة من الخطوة٠ كيف يمكن تنبيه المستغرق فى منامه المبتهج بأحلامه وفى أذنه وقر وفى ملامسه خدر ، هل من صيحة تقرع قلوب الاحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها وتتنائى أطرافها وتتباين عاداتها وطبائعها هلى من نبأة تجمع أهوائها المتفرقة وتوحد آرائها المتخالفة بعد ماراكم جهل وران غين وخيل

للعقول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعر أيم الله أنه لشئ عسير يعيى فى علاجه النطاسى ويحار فيه الحكيم البصير :

هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى والعواض آلتي طرأت عليه ٠ إن كان المرض فى أمة فكيف يمكن الوصول الى علله وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الاحوال وتنوع الاطوار ، ايمكن لطبيب يعالج شخصاً بعينه أن يختار له نوعا من العلاج قبل ان يعرف ما عرض له من قبل فى حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض وإلا فان شيئا من الامراض تتولد جراثيمها فى طور من أطوار العمر ثم لا تظهر إلا فى طور آخر لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها ، كلا أنه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة وعوارض حياته محصورة فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل وافرة العدد، لهذا يندر فى أجيال وجود بعض رجال يقومون بأحياء أمة أو إرجاع شرفها ومجدها إليها وإن كان المتشبهون بهم كثيرين وكما ان المتطبب القاصر فى الأمراض البدنية لا يزيد علاجه المرض الا شدة لولا مساعدة الاتفاق والصدفة ل ربما يفضى بالمريض إلى الموت ٠ كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ووجوه العالة فيها وأنواعها وما يكتنف ذلك من العادات وما يوجد فى أفرادها من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتابعة على اختلاف مواقعها من الارض ومكانتها الأولى من الرفعة ودرجتها الحالية من الضعة وتدرجها فيما بين المنزلتين فان اخطأ طالب اصلاحها فى اكتناه شئ مما ذكرنا تحول الدواء والوجود فناء ٠

فمن له حظ فى الكمال الانسانى ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهى لا يجرؤ على القيام بما يسمونه تربية الامم وإصلاح ما فسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور فى أداء هذا الأمر العظيم علماً او عملا ٠ نعم يكون ذلك من محبى النفخفة الباطلة وطلاب العيش فى ظل وظائف ليسوا من حقوقها فى شئ٠

ظن قوم في هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد وانها تكفل إنهاض الأمم وتنبيه الافكار وتقويم الاخلاق كيف يصدق هذا الظن • وانا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يصدقون بما يكتبون إلا نجاح الامم مع التنزه عن الأغراض فبعد ما غم الذهول واستولت الدهشة على العقول وقل القارئون والكاتبون لاتج لها قارئاً ولئن وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم ، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير مما يراد منه لضيق في التصور أو ميل مع الهوى فلا يكون منه إلا سوء التأثير فيشبه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر اضعافا • على أن الهمة اذا كانت في درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث ان هذا وحقك لعزيز •

ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها وأخلادها إلى ما دون رتبتها بدرجات لا تحصر ورضاها بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها بل لمن كان خاضعاً لسيادتها راضخاً لاحكامها مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الامراض القاتلة بانشاء المدارس العمومة دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها وتكون على الطرز الجديد المعروف باوروبا حتى تعم المعارف جميع الافراد في زمن قريب ومتى عمت المعارف كملت الاخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوى • وما أبعد ما يظنون فان هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل الأمة على ما تكره أزمانا حتى تذوق لذته وتجني ثمرته ثم يكون مربيا الصادق من بعد نائبا عن سلطته في تنفيذ ما أراد من خيرها ويلزم له ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة وموضوع كلامنا في الضعف ودوائه فهل مع الضعف سلطة تقهر وثروة تغني ولو كان للامة هذان لما عدت من الساقطين •

فان قالوا يمكن التدريج مع الإستمرار والثبات والتقادم على الامكان لولا ما يكون من طمع الاقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلا لأن يستنشقوا نسيم القوة فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر •

على أنا لو فرضنا مسالمة الدهر ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفى لبث تلك العلوم فى بعض الافراد والاستزادة منها شيئاً فشيئاً فهل يصح الحكم بان هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية وأن يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به ويمكنه من القيام بارشاد الباقى من أبناء أمته • واعجبا كيف يكون هذا وان الامة فى بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها وكيف بذرت بذورها وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت وبأى ماء سقيت وبأى تربة غذيت ولا وقوف لها على الغاية آلتي قصدت منها فى مناشئها ولا خبرة لها بما يترتب عليها من المثرات وان وصل اليها طرف من ذلك فانما يكون ظاهراً من القول لأنباء عن الحقيقة فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجاة بعض الأفراد بها وسوقها الى أذهانهم المشحونة بغيرها يقوم من أفكارهم ويعدل من أخلاقهم ويهديهم طرق الرشاد فى إفادة إخوانهم •

لعل الأقرب ان ناقلى تلك العلوم وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس اليهم من الأوهام المألوفة فيها وما رسخ فى نفوسهم على عهد الصبا وما يعظمونه من أمر الأمة آلتي تلقوا عنها علومهم يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طباعها الا فساداً •

ماذا يكون من أولك الناشئين فى علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ولو صدقوا فى خدمة أوطانهم • يكون منهم ـا تعطيه حالهم يؤدون ما تعلموه كما سمعوه لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطباعها وما مرنت عليه من عاداتها فيستعملونه على غير وضعه ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه وغفلتهم عن آتيه يظنونه على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس والحيوة لكل روح فيرومون من الصغير ملا يرام إلا من الكبير وبالعكس غير ناظرين إلا الى صور ما تعلموه ولا مفكرين فى استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد أو يزيدها على ما بها اضعافاً وما هذا الا لكونهم ليسوا أربابها وانماهم لها نقلة وحملة •

فهؤلاء الصادقون الا من وفقه الله منهم بعنايته الآلهية يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها فى اللذة وسنه سن اللبان لا يقبل سواه فيسرع اليه المرض وينتهى به الى التلف فتكون منزلتهم من الامة منزلة الآلة المحللة يشتتون بقية الجمع ويبددون أخريات الالتئام إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط ، فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها وما قصدوا الا خيراً إن كانوا مخلصين ويوسعون بذلك الخصاص حتى تعود أبواباً ويباعدون ما بين الصفاف حتى تصير ميادين لتداخل الاجانب فيهم تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين ويذهبون بأمتهم الى الفناء والاضمحلال وبئس المصير •

شيد العثمانوين والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف منهم الى البلاد الغربية ليحملوا اليهم ما يحتاجون اليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل ما يسمونه تمدناً وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانسانى • هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم اليه الاجانب بتصرفاتهم ؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور ؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الاعداء عليهم ؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف فى الافكار حداً يميل عزائم الطامعين عنهم ؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية فهى تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وان تجاوزت محيط الحياة الدنيا ، وان بادت فى سبيلها ، خلفها وارث على شاكلتها كما كان فى كثير من الأمم •

نعم ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ويصونها فى عبارات متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ووسموا أنفسهم زعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند

هذا الحد . ومنهم آخرون عمدوا الى العمل بما وصل اليهم من العلم فقلبوا أوضاع المباني والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الاجنبية وعدوها من مفاخرهم وعرضوها معرض المباهات فنسفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما تروق منظره ولا يحمد أثره فاماتوا أرباب الصنائع من قومهم وأهلكوا العاملين في المهن لعدم اقتدارهم أن يقدموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة من الحاجيات الجديدة والكماليات الجديدة لأن مصانعهم لم تتحول الى الطرز الجديد وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد وثروتهم لاتسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة وهذا جدع لأنف الامة يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها .

علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الاعداء اليها وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس بل يكونون بما أفعمت افئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم شؤما على أبناء أمتهم يذلونهم ويحقرون أمرهم ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلت وإن بقي في بعض رجال الامة بقية من الشمم أو نزوع الى معالي الهمم انصبوا عليه وارغموا من أنفه حتى يمحى أثر الشهامة وتخمد حرارة الغيرة ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين ، وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم . أقول ولا أخشى لوماً لو كان في البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب على بعض أراضيها الانجليز لما بارحوها أبد الآبدين . فإن نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك والركون الى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فتونهم فيبالغون في تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى يزيلون الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها سقلالهم ولهذا لو

طرق الاجانب أرضا لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يتبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم ويكونون بطانة لهم ومواضع الثقتهم ، كانما هم منهم ويعدون الغلبة الاجنبية فى بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم .

فما لاحيلة وما الوسيلة ، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها ، والعلوم الجديدة لسواء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها والوقت ضيق والخطب شديد .. أى جهورى من الاصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات . أى قاصفة تزعج الطباع الجامدة وتحرك الأفكار الخامدة أى نفخة تبعث هذه الارواح فى أجسادها وتحشرها الى مواقف صلاحها وفلاحها . الاقطار فسيحة الجوانب بعيدة المناكب . المواصلات عسرة بين الشرقى والغربى والجنوبى والشمالى . والرؤوس مطرقة الى ما تحت القدم أو منغضة إلى ما فوق المساء ليس للابصا جولان الى الامام والخلف واليمين والشمال ولا للاستماع اصغاء ولا للنفوس رغبات وللاهواء تحكم وللوساوس سلطان .

ماذا يصنع المشفقون على الامة والزمن قصير ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم بأى سبب يتمكنون ورسل المنايا على أبوابهم لا أطيل عليك بحثا ولا أذهب بك فى مجالات بعيدة من البيان ولكنى استلفت نظرك الى سبب يجمع الأسباب ووسيلة تحيط بالوسائل . ارسل فكرك الى نشأة الامة التى جاءت بعد النباهة وضعفت بعد القوة واسترقت بعد السيادة وضيمت بعد المنعة وتبين أسباب نهوضها الاول حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل فقد يكون ما جمع كلمتها وانهض همم آحادها ولم ما بين أفرادها وصعد بها الى مكانة تشرف منها على رؤوس الامم وتسوسهم وهى فى مقامها بدقيق حكمتها انما هو دين قويم الاصول محكم القواعد شامل لأنواع الحكم باعث على الالفة داع الى المحبة مزك للنفوس، مطهر للقلوب من ادران الخسائس ، منور للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه ، كافل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مبانى الاجتماعات البشرية ، وحافظ وجودها وينادى بمعتقديه الى جميع فروع المدنية .

فان كانت هذه شرعتها ولها وردت وعنها صدرت فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها انما يكون من طرح تلك الاصول ونبذها ظهريا وحدوث بدع ليست منها فى شئ ، اقامها المعتقدون مقام الاصلو الثابتة ، وأعرضوا عما يرشد اليه الدين وعما أتى لأجله وما أعدته الحكمة الالهية له حتى لم يبق منه إلا اسماء تذكر وعبارات تقرأ فتكون هذه المحدثات حجابا بين الامة وبين الحق الذى تشعر بندائه أحيانا بين جوانحها •

فعلاجها الناجح انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والاخذ باحكامه على ما كان فى بدايته وارشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق وايقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الارواح لشرف الامة ولان جرثومة الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة من احقاب طويلة والقلوب مطمئنة اليه وفى زواياها نور خفى من محبته فلا يحتاج القائم باحياء الامة إلا الى نفخة واحدة يسرى نفثها فى جميع الارواح لاقرب وقت فاذا قاموا لشؤونهم ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم فلا يعجزهم بعد ان يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانسانى •

ومن طلب اصلاح امة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططا وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة إلا نحسا ولا يكسبها إلا تعسا •

هل تعجب أيها القارئ من قولى ان الاصول الدينية الحقة المبرأة عن محدثات البدع تنشئ للامم قوة الاتحاد وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهى بها الى أقصى غاية فى المدنية • ان عجبت فان عجبى من عجبك أشد • هل نسيت تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات واتيان الدنايا والمنكرات حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ونور عقولها وقوم أخلاقها وسدد أحكامها فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف وبعد ان كانت عقول أبنائها فى غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها

نبهتها شريعتها وآيات دينها الى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ونقلوا الى ديارهم طب بقراط وجالينوس وهندسة اقليدس وهيئة بطليموس وحكمة افلاطون وارسطو وماكانو قبل الدين فى شئ من هذا وكل أمة سادت تحت هذا اللواء انما كانت قوتها ومدينتها فى التمسك بأصول دينها •

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك وافتتاح الاقطار وطلب السيادة على الامصار ، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم وارتفاع النفوس عن الدنايا وبعد الغايا وعلو المقاصد ، هى آلتي هذبت أخلاقهم ، وقومت أفكارهم ، وكفتهم عن معاطاة الرذائل ، وخسائس الأمور وسوافلها ، ثم بعد مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها ، فيان أسباب الخلل فيها وعلاته نفرد له فصلا مستقلا فى آخر عدد ان شاء الله ، وهو الموفق للصواب •

انحطاط المسلمين وسكونهم

وسبب ذلك

{ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا }

إن للمسلمين شدة فى دينهم وقوة فى إيمانهم وثباتا على يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل • وإن فى عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض • ومما رسخ فى نفوسهم أن فى الايمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين ومن حرم الايمان فقد حرم السعادتين ، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء • وهذه الحالة كما هى فى علمائهم متمكنة فى عامتهم • حتى لو سمع أى شخص منهم فى أى بقعة من بقاع الارض عالما كان أو جاهلا أن واحداً ممن وسم بسمة الاسلام فى أى قطر ومن أى جنس صبا عن دينه رأيت من يصل إليه هذا الخبر فى تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع • ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به • بل وعلى جميع من يشارنه فى دينه • ولو ذكرت مثل هذه الحادثة فى تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئين من السنين لا يتمالك قلبه من الاضطراب ودمعه من الغليان • ويستفزه الغضب ويدفعه لحاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب او يحكى عن عجيب •

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ولايتهم من البلدان • وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين فى الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام، ومن فروضهم فى سبيل الحماية وحفظ الولاية ، بذل الأموال والارواح وارتكاب كل صعب ، واقتحام كل خطب ، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فى حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خاصة لهم من دون غيرهم ، وبالغلت الشريعة فى طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التملص من

سلطة غيره ، لو جبت عليه الهجرة من دار حربه • وهذه قواعد مثبته فى الشريعة الإسلامية يعرفها أهل الحق ، ولا يغير منها تأويلات أهل الأهواء وأعوان الشهوات فى كل زمان •

المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريقعة ، وما يفرض عليه الايمان ، وهو هاتف الحق الذى بقى له من إلهامات دينه ، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين فى هذه الأيام بعضهم فى غفلة عما يلم بالبعض الآخر ، ولا يألمون لما يألم له بعضهم فأهل (بلوجستان) كانوا يرون حركات الانجليز فى (أفغانستان) على مواقع أنظارهم ، ولا يجيش لهم جأش ولم تكن لهم نعرة على إخوانهم ، والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانجليز فى بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتململون ، وأن جنود الانجليز تضرب فى الأراضى المصرية ذهاباً وإياباً وتقتل وتفتك ، ولا ترى نجدة فى نفوس لخوانهم المشرفين على مجارى دمائهم ، بل السامعين لخريرها من خلاقيمهم ، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن شمائلهم •

تمسك المسلمين بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق فى نفوسهم مع هذه الحالة آلتي هم عليها مما يقضى بالعجب ويدعو إلى الحيرة ، ويسبق إلى بيان السبب فخذ مجملا منه : ان الافكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية وإن كانت هى الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر بتقدر العزيز العليم ، لكن الأعمال تثبيتها وتقويها وتطبعها فى الانفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق ، وتترتب عليه الآثار آلتي تلائمها•

نعم إن الإنسان إنسان بفكره وعقائده إلا أن ما ينعكس الى مرايا عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير ، فكل شهود يحدث فكراً وكل فكر يكون له أثر فى داعية ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل الى الفكر ، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الاعمال والافكار ، ما دامت الارواح فى الاجساد . وكل قبيل هو للآخر عماد•

إن للاخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها فى الاعتصاب والالتحام لولا ما تبعث عليه الضرورات ، وتلجئ اليه الحاجات ، عن تعاون الانسباء والعصبة على نيل المنافع ، وتضافرهم على دفع المضار ، وبعد كرور الايام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً يصرفه فى آثارها بقية الاجل ويكون انبساط النفس لعون القريب ، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جارياً مجرى الوجدانيات الطبيعية كالإحساس بالجوع والعطش والرى والشبع ، بل اشتبه امره على بعض الناظرين فعده طبيعياً • فلو اهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ، ولم تدع ضرورات الحياة فى وقت منالاوقات الى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدها ، أو وجد صاحب النسب من يظاهره فى غير نسبة أو الجأته ضرورة الى ذلك ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ، ولم يبق منها إلا صورة فى العقل تجرى مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات • وعلى مثال ما ذكرنا فى رابطة النسب وهى اقوى رابطة بين البشر يكون الامر فى سائر الاعتقادات آلتي لها أثر فى الاجتماع الانسانى من حيث ارتباط بعضه ببعض • إذا لم يصحب العقد الفكرى ملجئ الضرورة أو قوة الداعية الى عمل تتطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود اثر تكريره على لافكر حتى يكون هيئة للروح وشكلا من اشكالها ، فلن يكون منشأ لآثاره ، وانما يعد فى الصرو العلمية له رسم يلوح فى الذاكرة عند الالتفات إليه كما قدمنا •

بعد تدبر هذه الأصول البينة والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك السبب فى سكون الملمين إلى ما هم فيه مع شدتهم فى دينهم ، والعلة فى تباطؤهم عن نصرة إخوانهم ، وهم أثبت الناس فى عقائدهم ، فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين فى الإغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال ، وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل ، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لا تواصل بينهم ولا تراسل فالعالم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازى فضلا عمن بعد عنهم ، والعالم الهندى فى غفلة عن شئوون العالم الافغانى وهكذا بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط

بينهم ، ولا صلة تجمعهم إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر ، أما فى هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم ، بل لا أنساب بينهم ، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه •

كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء ، كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين • أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين فى مراكش ولا لمراكش عند العثمانيي ؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الافغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين فى المشرق ؟

هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد وبلد إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم ، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض فى موسم الحجيج العام ، وهذا النوع من الإحساس هو الداعى إلى الأسف وانقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبى عن ملته ، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاضدته •

كانت الملة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج ، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه ، فتداعت للتناثر والانحلال ،وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم •

بدأ هذا الانحلال والضعف فى روابط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه فى الدين والاجتهاد فى أصوله وفروعه كما كان الرشدون رضى الله عنهم • كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة إلى حد لم يسبق له مثيل فى دين من الأديان ، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام : خلافة عباسية فى بغداد ، وفاطمية فى مصر والمغرب ، وأموية فى أطراف الأندلس ، تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلاف إلى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس ، وخرج

طلاب الملك والسلطان يدأبون إليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة .

وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده وتميور لنك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلا وإذلالاً حتى أذهلوهم عن أنفسهم فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعاً ، وانفرد كل بشأنه أو انصرف إلى ما يليه ، فتبدد الجمع إلى آحاد ، وافترق الناس فرقاً كل فرقة تتبع داعياً إما إلى ملك أو مذهب ، فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو إلى الوحدة ، وتبعث على اشتباك الوشيجة ، وصار ما في العقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال ، وتلحظها الذاكرة عند عرض ما في خزائن النفس من المعلومات ، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين ، بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول من الزمان ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت ، كما يكون على الأموات من الأقارب لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة ، ولا دفع الغائلة .

وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذى وقع فى الملك بتمكين الاتفاق الذى يدعو اليه الدين ، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة فى سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون أليها فى شؤون وحدتهم ويأخذون بأيدى العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى معقد واحد يكون مركزه فى الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام ، حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب

للتداخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع ، فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف ، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة ، وليس يخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل •

إلا إنا نأسف غاية الأسف إذا لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهي أقرب الوسائل وإن التفتت إليها في هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة ، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم ، فقد دارستهم التجارب ببيان لا مزيد عليه ، وما هو بالعسير عليهم أن يبثوا الدعاة الى من يبعد عنهم ، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم ، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة ، أو ما يخشى أن يمسها بضرر ، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة ، والرمق باق والآمال مقبلة ، والى الله المصير

التعصب

" اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء "

لقد شغل مناطق الناس خصوصاً في البلاد المشرقية تلوكه الألسن وترمى به الأفواه في المحافل والمجامع حتى صار تكأة [1] للمتكلمين ، يلجأ اليه العيي [2] في تهتهته [3] ، والملقاني [4] في تفيهقه [5] أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير فقلما تكون عبارة إلا وهو فاتحتها او حشوها أو خاتمتها ، يعدون مسماه علة لكل بلاء ، ومنبعاً لكل عناء ، ويزعمونه حجابا كثيفاً وسداً بين المتضفين به وبين الفوز والنجاح ، ويجعلونه عنوانا على النقص وعلماً للرذائل ، والمتسربلون بسرابيل الافرنج الذاهبون في تقليدهم مذاهب الخبط والخلط لا يميزون بين حق وباطل ، هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد ، فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤوس ويعبثون باللحى ويبرمون السبال ، وإذا رموا به شخصا للحط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظ أفرنجي (فناتيك) [6] فان عهدوا بشخص نوعا من المخالفة لمشربهم عدوه متعصبا ، وهمزوا به وغمزوا ولمزوا، وإذا رأوه عبسوا وبسروا ، وشمخوا بأنوفهم كبراً وولوه دبراً ، ونادوا عليه بالويل والثبور ، ماذا سبق إلى أفهامهم من هذا اللفظ ، وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شناعة ، ومصدراً لكل نقيصة ، وهل لهم وقوف على شئ من حقيقته ؟

التعصب قيام بالعصبية ، والعصبية من المصادر النسبية ، نسبة الى العصبة ، وهي قوم الرجل الذين يعززون قوته ، ويدفعون عنه الضيم والعداء ،

---

(١) التكأة : ما يتوكأ عليه (٢) العيي : من العي وهو العجز عن الكلام (٣) التهتهة : ضرب من اللكنة (٤) الملقاني : السريع الكلام (٥) التفيهق : التوسع والتنطع (٦) معناها : متعصب .

فالتعصب صف للنفس الانسانية ، تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه ، ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس فى معلوماتها ومعارفها •

هذا الوصف هو الذى شكل الله به الشعوب ، وأقام بناء الأمم وهو عقد الربط فى كل أمة ، بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد ، أو ينشئها بتقدير الله خلقا واحداً ، كبدن تألف من أجزاء وعناصر ، تدبره روح واحدة ، فتكون كشخص يمتاز فى أطواره وشؤونه وسعادته وشقائه عن سائر الأشخاص •

وهذه الوحدة هى مبعث المبارة بين أمة وأمة ، وقبيل وقبيل ، ومباهاة كل من الأمتين المتقابلتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة وهناء العيش ، وما تجمعه قواها من وسائل العزة والمنعة ، وسمو المقام ونفاذ الكلمة ، والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال فى جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة •

التعصب روح كلى مهبطه هيئة الأمة وصورتها ، وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعره فاذا ألم بأحد المشاعر مالا يلائمه من أجنبى عنه انفعل الروح الكلى ، وجاشت طبيعته لدفعه ، فهو لهذا مثار الحمية العامة ، ومسعر النعرة الجنسية • هذا هو الذى يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر ، أو يؤول بها الى سوء عاقبة ، وأن استقامة الطباع ورسوخ بالفضيلة فى أمة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها • يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حى ، لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ، ولا يرى القدمان فى تطرفهما انحطاطا فى رتبة الوجود وانما كل يؤدى وظائفه لحفظ البدن وبقائه •

وكلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمه بضعف التعصب فيهم استرخت الاعصاب ، ورثت الأطناب ، ورقت الاوتار ، وتداعى بناء الامة إلى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية إلى الفناء ، بعد هذا يموت الروح الكلى ، وتبطل هيئة الامة وإن بقيت آحادها ، فما هى إلا كالأجزاء المتناثرة ، إما أن تتصل

بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون ، وإما أن تبقى فى قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح النشأة الاخرى • (سنة الله فى خلقه) إذا ضعفت العصبية فى قوم رماهم الله بالفشل ، وغفل بعضهم عن بعض ، وأعقب الغفلة تقطع فى الروابط ، وتبعه تقاطع وتدابر فيتسع للاجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بافاضة روح التعصب فى نشأة ثانية •

نعم إن التعصب وصف كسائر الأوصاف ، له حد اعتدال وطرفا إفراط وتفريط ، واعتداله هو الكمال الذى بينا مزاياه والتفريط فيه هو النقص الذى أشرنا لرزاياه ، والافراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء فالمفرط فى تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، وينظر إلى الاجنبى عنه كما ينظر إلى الهمل ، لا يعترف به بحق ، ولا يرعى له ذمة ، فيخرج بذلك عن جادة العدل ، فتنقلب منفعة التعصب إلى مضرة ويذهب بهاء الامة ، بل يتقوض مجدها ، فان العدل قوام الاجتماع الانسانى ، وبه حياة الامم ، وكل قوة لا تخضع العدل فمصيرها إلى الزوال ، وهذا الحد من الافراط فى التعصب هو الممقوت على لسان الشارع صلى الله عليه وسلم فى قوله " ليس منا من دعا إلى عصبية " •

التعصب كما يطلق ويراد منه النعرة على الجنس ، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع فى منبت واحد ، كذلك توسع أهل العرف فيه ، فاطلقوا على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً ، والمتنطعون من مقلدة الافرنج يخصون هذا النوع منه بالمقت ، ويرمونه بالتعس • ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل • فان لحمة يصير بها المتفرقون إلى وحدة ، تنبعث عنها قوة لدفع الغائلات ، وكسب الكمالات ، لا يختلف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو النسب ، وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين فى أقوام مختلفة من البشر ، وعن كل منهما صدرت فى العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانسانى ، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ، ومعاونته على حاجات

معيشته ، وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب.

فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في أصول العقائد بعضهم لبعض إذا وقف عند الاعتدال ولم يدفع إلى جور في المعاملة ، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته ، فهو فضيلة من أجل الفضائل الانسانية ، اوفرها نفعاً وأجزلها فائدة بل هو أقدس رابطة وأعلاها ، إذا استحكمت صعدت بذوى المكنة فيها الى أوج السيادة وذروة المجد ، خصوصاً أن كانوا من قبيل قوى فيهم سلطان الدين ، واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما في أهل الديانة الاسلامية ، على ما أشرنا في العدد الثاني من جريدتنا.

ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط ، فانه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ، ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم والأعمال ، وكذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر ، بل الأجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات ، بل المتباعدة في الصور والاشكال ، ويحول أهواءها المتضاربة الى قصد واحد ، هو تأصيل المجد وتأييد الشرف ، وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم هذا الاثر الجليل عهد لقوة التعصب ، وشهد عليه التاريخ بعد ما أرشد اليه العقل الصحيح ، وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شئ منه .

نشغ جماعة من متزندقة هذه الأوقات في بيان مفاسد التعصب الديني وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به لخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذى يصدهم عن السير الى كمال المدنية ، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمى بهم في ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم ، ومن رأى أولئك المتفقين أن لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية

الدينية ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد وكثيراً ما يرجفون بأهل الدين الاسلامى ، ويخوضون فى نسبة مذام التعصب اليهم •

كتب الخرلصون ، ان الدين أو لمعلم وأرشد أستاذ وأهدى قائد للأنفس إلى اكتساب العلوم والتوسع فى المعارف ، وأرحم مؤدب وأبصر مروض بطبع الأرواح على الآداب الحسنة ، والخلائق الكريمة ، ويقيمها على جادة العدل ، وتنبه فيها حاسة الشفقة والرحمة ، خصوصاً دين الاسلام فهو الذى رفع أمة كانت من أعرق الأمم فى التوحش والقسوة والخشونة ، وسما بها الى أرقى مراقى الحكمة والمدنية فى أقرب مدة ، وهى الأمة العربية •

قد يطرأ على التعصب الدينى من التغالى والإفراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسى فيقضى الى ظلم وجور ، ربما يؤدى إلى قيام أهل الدين لإبادة مخالفيهم ومحق وجودهم ، وكما قامت الامم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتك والإبادة لا للفتح ولا للدعوة الى الدين فى الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب ، وكما فعل الاسبانيوليون بمسلمى الاندلس ، وكما وقع قبل هذا وذلك فى بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحى ، إن صاحب السلطان من المسيحين جمع اليهود فى القدس وأحرقهم إلا ان هذا العارض لمخالفته لأصول الدين قلما تمتد له مدة ، ثم يرجع أرباب الدين الى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل •

أما أهل الدين الاسلامى فمنهم طوائف شطت فى تعصبها فى الاجيال الماضية الا انه لم يصل بهم الافراط الى حد يقصدون فيه الابادة واخلاء الارض من خالفيهم فى دينهم ، وما عهد ذلك فى تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الأقوم على ما نقول ، وهو وجود الملل المختلفة فى ديارهم الى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم فى عنفوان القوة وهى فى وهن الضعف ، نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم فى سلطانهم ، إلا انهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الاديان ، ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من

الملل المختلفة حقه ، ويدفعون عنه غائلة العدوان ، ومن العقائد الراسخة في نفوسهم :

(أن من رضى بذمتنا فله ما لنا وعليه ما علينا) ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن امر الله في قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) اللهم إلا مالا تخلو عنه الطبائع البشرية.

ومن نشأة المسلمين إلى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفيهم عن التقدم إلى ما يستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة ، ولقد سما في دول المسلمين على اختلافها إلى المراتب العالية كثير من ارباب الاديان المختلفة ، وكان ذلك في شبيبتها وكمال قوتها ، ولم يزل الامر على ما كان ، وفي الظن ان الامم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل إلى اليوم (فسحقاً لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم) .

لم يسلك المسلمون من عهد قريب مسلك الإلزام بدينهم والإجبار على قبوله مع شدة بأسهم في بدايات دولهم ، وتغلغلهم في افتتاح الاقطار ، واندفاع هممهم للبسطة في الملك والسلطة ، وإنما كانت لهم دعوة يبلغونها ، فإن قبلت والا استبدلوا بها رسماً مالياً يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلامي ، هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الاولى ، فإنهم ما كانوا يطأون أرضاً إلا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم، والتطوق بدين اولئك المسلطين وهو الدين المسيحي كما فعلوا في مصر وسورية ، بل في البلاد الافرنجية نفسها .

هذا فصل من الكلام سابق إليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصر ، وتذكرة لمن يتذكر ، ثم أعود بك الى سابق الحديث فيما كنا بصدده : هل لعاقل لم يصب برزيئة في عقله أن الاعتدال من التعصب الديني نقيصة ، وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي الا بما يكون به التعصب الديني اقدس وأطهر وأعم فائدة. لاتخال عاقلا يرتاب في صحة ما قررناه فما لاولئك القوم يهذرون بما لا يدرون؟ أى أصل من أصول العقل يستندون اليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي

فقط ، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ، ويعبرون عنه بمحبة الوطن، وأى قاعدة من قواعد العمران البشرى فى التهاون بالتعصب الدينى المعتدل وحسبانه نقيصة يجب الترفع عنها •

نعم إن الافرنج تأكد لديهم إن أقوى رابطة بين المسلمين انما فى الرابطة الدينية ، وادركوا أن قوتهم لا تكون إلا بالعصبية الاعتقادية ، ولأولئك الافرنج مطامع فى ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم إلى بث هذه الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الاسلامية وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها ، لينتقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً ، فانهم علموا كما علمنا ، وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا فى دينهم واعتقادهم ، وتسنى للمفسدين نجاح فى بعض الاقطار الاسلامية ، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلاً وتقليداً فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعد ما فقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس التي يبالغون فى تعظيمها واحترامها حمقاً منهم وسفاهة ، فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيئ لنفسه مسكناً سواه فاضطر للاقامة بالعراء معرضا لقواعل الجو وما تصول به على حياته •

من هذا ما سلك الانجليز فى الهند لما أحسوا بالعراء بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم لقرب عهدها بهم وفي دينهم ما يبعثهم على الحركة إلى استرداد ما سلب منهم ، وأرشدهم البحث فى طبائع الملل إلى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية وما دام الاعتقاد المحمدى والعصبة الملية سائدة فيهم فلا تؤمن بعثتهم إلى طلب حقوقهم فاستهووا طائفة ممن يتسمون بسمة الاسلام ، ويلبسون لباس المسلمين ، وفى صدورهم غل ونفاق وفى قلوبهم زيغ وزندقة ، وهم المعروفون فى البلاد الهندية بالنيجرية أى الدهريين فاتخذهم الانجليز أعواناً لهم على فساد عقائد المسلمين ، وتوهين علائق التعصب الدينى ليطفئوا بذلك نار حميتهم ويخمدوا ثائرة غيرتهم ، ويبددوا جمعهم ، ويزقوا شملهم ، وساعدوا تلك الطائفة على إنشاء مدرسة كبيرة فى (عليكر) ونشر جريدة لبث هذه الاباطيل

بين الهندي حتى يعم الضعف فى العقائد وترث أطناب الصلات بين المسلمين فيستريح الانجليز فى التسلط عليهم ، وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم ، وعز أولئك الغفل المتزندقين أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية ، ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة (تعس من يبيع ملته بلقمة وذمته برذال العيش) ٠

هذا أسلوب من السياسة الأوروبية أجادت الدول اختباره وجنت ثماره ، فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم ، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل فى البلاد العثمانية والمصرية وغيرها من الممالك الاسلامية ، ولم تعدم صيداً من الأمراء والمنتسبين إلى العلم والمدينة الجديدة ، واستعملتهم آلة فى بلوغ مقاصدها من بلادهم ، وليس عجبنا من الدهريين الزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة ، ولكنا نعجب من ا، بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم فى إيمانهم يسفكون الكلام فى ذم التعصب الديني ، ويهجرون فى رمى المتعصبين بالخشونة ، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ، ويفسدون شأنهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المارقين ، يطلبون محو التعصب المعتدل ، وفى محوه محو الملة ودفعها إلى أيدى الأجانب يستبعدونها ما دامت الأرض أرض والسماء سماء٠

والله ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الامم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الافكار بين الشرقيين ولا يخجلون من تبشيع التعصب الديني ورمى المتعصبين بالخشونة ٠ الافرنج أشد الناس فى هذا النوع من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه ، ومن القواعد الاساسية فى حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، وإذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشرى على واحد ممن على دينهم ومذاهبهم فى ناحية من نواحى الشرق سمعت صياحاً وعويلاً وهعات ونبآءات تتلاقى أمواجها فى جو بلاد المدنية الغربيى

وينادى جميعهم : ألا قد ألمت ملمة ، وحدثت حادثة مهمة ، فاجمعوا الأمر وخذوا الأهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا تنخدش الجامعة الدينية ، وتراهم على اختلافهم ، فى الاجناس وتباغضهم ، وتحاقدهم وتنابذهم فى السياسات ، وترقب كل دولة منهم ، لعثرة الاخرى حتى توقع بها السوء يتقاربون ويتآلفون ويتحدون فى توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم ، فى الدين وإن كان فى أقصى قاصية من الارض ، ولو تقطعت بينه وبينهم الأنساب الجنسية •

أما لو فاض طوفان الفتن وطم وجه الأرض وغمر البسيطة من دماء المخالفين لهم فى الدين والمذهب ، فلا ينبض فيهم عرض ولا يتنبه لهم إحساس بل ، يتغفلون عنه ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حده ، ويذهلون عما أودع فى الفطر البشرية من الشفقة الانسانية والمرحمة الطبيعية ، كأنما يعدون الخارجين عن دينهم ، من الحيوانات السائمة والهمل الراعية ، وليس من نوع الانسان الذى يزعم الاوروبيون انهم حماته وأنصاره ، وليس هذا خاصا بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين فى تعصبهم الدينى ، ولا يألون جهداً فى تقوية عصبيتهم وليتهم يقفون عند الحق ، ولكن كثيراً ما تجاوزوه • أما ان شأن الافرنج فى تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب •

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة فى الحرية كجلادستون ، ثم لا تجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب [1] بل لا ترى روحه إلا نسخة من روحه ، (انظر إلى كتب جلادستون وخطبه السابقة) •

فيا أيتها الأمة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها ، ودماؤكم فلا تريقوها ، وأرواحكم فلا تزهقوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت • هذه هى

---

(١) هو داعية الحرب الصليبية •

روابطهم الدينية لا تغرنكم الوساوس ولا تستهويكم الترهات ، ولا تدهشكم زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها العربي بالتركي ، والفارسي بالهندي ، والمصري بالمغربي ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى ان الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وإن تنأت دياره ، وتقاصت أقطاره.

هذه صلة من امتن الصلات ساقها الله إليكم ، وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها ، ولكن عليكم في رعايتها ان تخضعوا لسطوة العدل ، فالعدل أساس الكون وبه قوامه ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم ، وعليكم ان تتقوا الله وتلزموا أوامره في حفظ الذمم ، ومعرفة الحقوق لأربابها ، وحسن المعاملة وإحكام الألفة في المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الأديان المختلفة ، فإن مصالحكم لا تقوم إلا بمصالحهم ، كما لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحكم ، وعليكم أن لا تجعلوا عصبة الدين وسيلة للعدوان ، وذريعة لانتهاك الحقوق فإن دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشد العقاب . هذا ولا تجعلوا عصبيتكم قاصره على مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل تضافروا بها على مباراة الأمم في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية .

اجمعوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كلمتكم ، واجتماع شملكم ، وأخذ كل كمنكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص إلى ذروة الكمال وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان .

"وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا او تذهب ريحكم"

أظلت ولاية الإسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى تونكانى على حدود الصين فى عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء أقطار متصلة ، وديار متجاورة ، يسكنها المسلمون ، وكان لهم فيها السلطان الذى لا يغالب • أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام ، فأداروا بشوكتهم كرة الأرض إلا قليلا • ما كان يهزم لهم جيش ، ولا ينكس لهم علم ، ولا يرد قول على قائلهم • قلاعهم وصياصيهم متلاقية ، ومنابتهم ومغارسهم فى سهوبهم " أراضيهم السهلة الواسعة " وأخيافهم " الأراضى المنحدرة عن الجبل " رابية مزدهية بأنواع النبات ، حالية بأصناف الأشجار ، صنع أيدى المسلمين ، ومدنهم كانت آهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران تباهى مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم ، وتفاخرها بشموس الفضل ، وبدور العلم ، ونجوم الهداية ، من رجال لهم المكان الأعلى فى العلوم والآداب •

كان فى نقطة الشرق من حكمائهم ابن سينا والفارابى والرازى ومن يشاكلهم، وفى الغرب ابن باجة وابن رشد وابن الطفيل ومماثلوهم ، وما بين ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء فى الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية، هذا فضلا عن العلوم الشرعية التي كانت عامة فى جميع طبقات الملة • كان خليفتهم العباسى ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين [1] وترتعد منها فرائص أعظم الملوك فى أوروبا • ومن ملوكهم فى قرونهم المتوسطة مثل محمود الغزنوى وملكشاه السلجوقى ، وصلاح الدين الأيوبى ، وكان منهم

---

(١) فغفور : لقب ملوك الصين

فى المشرق مثل تيمور الكوركان ، وفى الغرب السلطان محمد الفاتح • والسلطان سليم والسلطان العثمانى ، أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم •

كانت لأساطيل المسلمين سلطة لا تبارى فى البحر الأبيض والأحمر والمحيط الهندى ولها الكلمة العليا فى تلك البحار إلى زمان غير بعيد ، كان مخالفوهم يدينون لملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم ، والمسلمون اليوم هم هم يملأون تلك الأقطار آلتي ورثوها عن آبائهم وعديدهم لا ينقص عن أربعمائة مليون ، وأفرادهم فى كل قطر بما اشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداما على الموت ممن يجاورهم ، وهم بذلك أشد الناس ازدراء بالحياة الدنيا وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل ، جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام • ويدعو إلى الفضائل وعقائل اصفات ، فأودع فى أفكارهم جراثيم الحق وبذر فى نفوسهم بذور الفضل ، فهم بأصول دينهم أنور عقلا وأنبه ذهنا وأشد استعداداً لنيل الكمالات الإنسانية ، وأقرب إلى الاستقامة فى الأخلاق ، وربما يرون لأنفسهم من الإختصاص بالشرف ، وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من اظهار شأنهم على شؤون العالم أجمع ولو كره المبطلون ، لا يرغبون بسلطة لغيرهم عليهم ، ولا يحوم بفكر واحد منهم أن يخضع لذى سطوة من سواهم ، وإن بلغت من الشدة أو اللين ما بلغت • لما بينهم من الإخاء الموزر بمناطق العقائد ، يحسب كل واحد منهم ان سقوط طائفة من بنى ملته تحت سلطة الأجانب سقوط لنفسه • ذلك إحساس يشعر به وجدانه ولا يجد عنه مسليا ، وبما ساخ (غاص ورسب) فى نفوسهم من جذور المعارف آلتي أرشدهم إليها دينهم ، ونالوا منها النصيب الأعلى فى عنفوان دولتهم ، يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجدرهم بالفضل •

ذلك شأنهم الأول وهذا وصفهم للآن ، ولكنهم مع هذا كله وقفوا فى سيرهم بل تأخروا عن غيرهم فى المعارف والصنائع بعد أن كانوا فيها أساتذة العالم ،

وأخذت ممالكم تنقص أطرافها وتتمزق حواشيها مع أن دينهم يرسم عليهم أن لا يدينوا لسلطة من يخالفهم بل الركن الاعظم لديهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعي كل ذي شوكة في شوكته • هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون • هل غفلوا عن تكفل الله لهم بإظهار شأنهم على سائر الشؤون ولو كره المجرمون ؟ هل سهموا عن ان الله اشترى منهم لإعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؟ لزلز إن العقائد الإسلامية مالكة لقلوب المسلمين حاكمة في إرادتهم وسواء في العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم •

نعم يوجد للتقصير في انماء العلوم ، وللضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم ، لأنا بينا أن لا جنيسية للمسلمين إلا في دينهم ، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة ، والسلاطين في جنس واحد ، مع تباين الأغراض وتعارض الغايات ، فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض ، فأدت المغالبات وهي أشبه شئ بالمنازعات الداخلية إلى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع ، فضلا عن التقصير في طلب ما لم ينالوا منها ، والاغسار دون الترقي في عواليها ، ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج ، وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام ، وجلب تنازع الأمراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فلهو بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم •

هذا كان من أمراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عندما كانوا منفردين في ميادين الوغى ، لا يجاريهم فيها سواهم من الملل ، ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع الهوى ، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل ، وقنعوا بألقاب الأمارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان ، واختاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف

لهم فى الدين والجنس ، ولجأوا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم ، استبقاء لهذا الشبح البالى والنعيم الزائل •

هذا الذى أباد مسلمى الأندلس ، وهدم أركان السلطنة التيمورية فى الهند ومحا أطلالها وعلى رسومها شيد الانجليز ملكهم بتلك الديار • هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الإسلامية ودهورتها أمانيهم السكاذبة فى مهاوى الضعف والوهن ، قبح ما صنعوا وبئس ما كانوا يعملون ، أولئك اللاهون بلذاتهم ، العاكفون على شهواتهم ، هم الذين بددوا شمل الملة ، وأضاعوا شأنها ، وأوقفوا سير العلوم فيها ، وأوجبوا الفترة فى الأعمال النافعة ، من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدى بنيها •

ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الخسائس ، ما أشد ضررهما وما أسوأ أثرهما ، نبذوا كلام الله خلف ظهورهم وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه ، فاختلفوا والعدو على أبوابهم • وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا فى الكلمة الجامعة ، حتى يدفعوا غارة الأباعد عنهم ، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم ، ماذا أفادتهم المغلاة فى الطمع والمنافسة فى السفاسف ؟ أفادتهم حسرة دائمة فى الحياة ، وشقاء أبديا بعد الممات ، وسوء ذكر لا تمحوه الأيام •

أما وعزة الحق وسر العدل ، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم ، لتعارفت أرواحهم وائتلفت آحادهم ، ولكن وأسفا تخللهم أولئك المفسدون الذيون يرون كل السعادة فى لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهى • هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم ، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب •

الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الأسلامية ، من أشد أركان الديانة المحمدية ، والإعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين ، لا يحتاجون فيه إلى أستاذ يعلم ، لا كتابا يثبت ، ولا رسائل تنشر • إن رعاة المسلمين فضلا عمن علاهم تتصاعد زفراتهم ، وتفيض أعينهم من الدمع حزنا وبكاء على ما أصاب

ملتهم من تفرق الآراء ، وتضارب الأهواء ، ولولا وجود الغواة من الأمراء ، ذوى المطامع فى السلطة بينهم ، لاجتمع شرقيهم بغربيهم ، وشماليهم بجنوبيهم ، ولبى جميعهم نداء واحداً لن المسلمين لا يحتاجون فى صيانة حقوقهم ، إلا إلى تنبه أفكارهم لمعرفة ما به من الدفاع واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه وارتباط قلوبهم الناشئ عن إحساس بما يطرأ على الملة من الأخطار .

ألم تر أمة الروس هل تجد فيها ما يزيد على هذه الأصول الثلاثة ، هى أمة متأخرة فى الفنون الصنائع عن سائر أمم أوروبا وليس فى ممالكها ينابيع للثروة ، ولئن كانت فليس هناك ما يستفيضها من الأعمال الصناعية ، فهى مصابة بالحاجة والعواز غير أن تنبه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم واتفاقهم فى النهوض به وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسطوتها رواسى أوروبا . لم يكن للروسية مصانع لمعظم الآلات الحربية ، ولكن لم يمنعها ذلك عن أقتنائها ، ولم يرتق فيها الفن العسكرى إلى حد ما عليه جيرانها ، إلا أن هذا لم يقعدها عن جلب ضباط من الأمم الأخرى لتعليم عساكرها ، حتى صار لجيشها صولة تخيف، وحملة تخشاها دول أوروبا .

فما الذى أقعدنا عن مشاكلة غيرنا ، فيما هو أيسر الأشياء علينا ، ونحن أشد الناس ميلا إليه : من رعاية شرف الملة والتألم بما يحط منه والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها . مارد الأفكار عن الحركة ، وما أقعد الهمم عن النهوض ، إلا أولئك المترفون ، يحرصون على طيب فى المطعم ، ولين فى المضجع ، وتطاول فى البنيان ، وتفاخر بالخدم والخول ولا يراعون فى حرصهم ما بعد يومهم ، ويحافظون على لقب موضوع ورسم متبوع ، يقنعون منه بالاحتفال لهم فى المواسم والأعياد وهز الرؤوس وثنى الأعطاف ، تعظيما وتبجيلا ، ثم تذييل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات . هؤلاء الساقطون يرضون لتخيل هذه المواثل (جمع ماثل من الرسوم ما ذهب أثره) بكل دنيئة ، هؤلاء يقبلون من تصرف أعدائهم فى بيوتهم مالا يقبله واحد من آحاد الناس دون

موته ، أولئك صاروا فى أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا ، يحبسون هذه الأسود عن فريستها بل يجعلونها طعمة للثعالب ، لاحول ولا قوة إلا بالله.

أيا بقية الرجال ، ويا خلف الأبطال ، ويانسل الأقيال ، هل ولى بكم الزمان، هل مضى وقت التدارك ، هل آن أوان اليأ ، لا ، لا ، معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم ، إن من أدرنه إلى بيشاور دولا إسلامية متصلة الأراضى • متحدة العقيدة يجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن خمسين مليونا ، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة ، أليس لهم أن يتفقوا على الذب والاقدام كما اتفق عليه سائر الأمم ، ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم ، فالاتفاق من أصول دينهم ، هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم البعض ، أليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله فى قوله (إنما المؤمنون أخوة) فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المتدفعة عليهم من جميع الجوانب •

لا ألتمس بقولى هذا أن مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحدا، فإن هذا ربما كان عسيرا ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته بحياته وبقائه ببقائه ، إلا أن هذا بعد كونه أساسا لدينهم تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات ، هذا آن الاتفاق ، هذا آن الاتفاق ، ألا إن الزمان يواسيكم بالفرص وهى لكم غنائم فلا تفرطوا ، إن البكاء لا يحيى الميت ، أن الأسف لا يرد الفائت ، أن الحزن لا يدفع المصيبة ، أن العمل مفتاح النجاح ، إن الصدق والاخلاص سلم الفلاح ، إن الوجل يقرب الأجل ، إن اليأس وضعف الهمة من أسباب الحتف (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) ألا لا تكونوا ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل إقعدوا مع القاعدين ، أحذروا أن تقعوا تحت قول الله: (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون) أن القرآن حى لا يموت ، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن اصيب

من مقته فهو ممقوت ، كتاب اللّه لم ينسخ فارجعوا إليه ، وحكموه فى أحوالكم وطباعكم (وما اللّه بغافل عما تعملون) .

ولعل أمراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين وهموا بملافاة أمرهم ، قبل أن يقضى عليهم ، بما رزئ به المفرطون من قبلهم ، ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث إلى الوحدة وتوقظ من الرقدة ، تصدر عن أعلاهم مرتبة ، وأقواهم شوكة ، ولا نرتاب فى أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى فى هذا العمل الشريف ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

العروة الوثقى

مصادرتها فى مصر والهند وفرض غرامة على قرائها !!

انعقد مجلس الوزراء المصرى فى القاهرة واهتم بالبحث فى شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى وزارة الداخلية المصرية قاضياً عليها بأن تشتد فى منع هذه الجريدة من دخول الأقطار المصرية وتراقب جولاتها فى تلك الديار . فصدر أمر الداخلية إلى إدارة عموم البريد يلزمها بالدقة فى ذلك ، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر ، أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغاً من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً (وهى غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الإنجليز فى مصر !!) أما نحن فلا نظن أحداً من الوزراء المصريين له رأى اختيارى فى هذا القرار ، بل لا نتوهم فى المستوى على كرسى الخديوية ميلا إلى مثل هذا الحكم ولا يختلج فى صدورنا أن مصرياً من أى مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم ، بل ولا شرقياً ممن سكن تلك البلاد يرى فيه جانباً من العدل .

هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم ولها سعى ، بل كل السعى لخيبة آمال أعدائهم ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح فى عمرو فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا وإنما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد . تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التي فغرت أفواهها لالتهامهم . ومن رأيها أن الأشغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق التأهب . هذا منهاج العروة الوثقى علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها إلى الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقياً مسلماً أوغير مسلم يميل لحجبها عن دياره . ولكنا نعلم أن حركات الآمرين فى

القطر المصرى هذه الأيام قهرية لا يخلطها شئ من الاختيار ، والمدير لرحى القهر عليهم هم عمال الإنجليز .

ولا نريد أن نقول للانجليز أنهم ظلموا فى الحكم ، فإن الجريدة لم يوجد فيها إلى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والأجنبية من كشف مساتيرهم وبيان الرزايا التي أصيبت بها الديار المصريى منحلولهم ، لأنهم - الانجليز - الذين أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين فى الهند وإقبال الناس عليه بالاعتبار أسرعوا بجلبه إلى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصلوه إليها يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير إلى آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو إليه ويسأله هل انته معتقد بهذه الأية أو الحديث ، فاذا قال نعم قال له فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا فإذا أجابه : إننى درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادى بهذا إلا لأنه كتاب دينى ضرب له الضابط أجل لربعة أيام أو أقل يبين فيها رأيه فى الأية أو الحديث فإن مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه ولم يبدل عقيدته ولم يبادر بإرسال تحريفه وتبديله وخروجه عن دينه إلى مطبعة من المطابع ليطبع وينشر ، بعث به الحكومة إلى جزيرة أندومان نفياً مؤيداً ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين ، فدولة الإنجليز آلتي تحاسب رعايها المسلمين على خطرات قلوبهم وما يمكن أن يهجس فى حديث نفوسهم لا ريب أنها تعد وجود لفظ الإسلام فى جريدة كافياً لمنعها عن الدخول إلى بلاد لها فيها قدم ثابت أو تسعى فى تثبيته بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصاً علق هذا الاسم من أى جنس كان . فلا غرابة فى صدور مثل هذا الجور منها ، غير أننا نعلن لها أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة فى كل بقعة تحوطها السلطة الإنجليزية الظالمة ذلك بعزائم أولى العزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى .

بلغنا أن بعضاً من الناس يسل سيفه ويشحذ سنانه لمناضلة الولى الحميم ويقابل ثناءه بالذم ومدحه بالقدح وإحسانه بالإساءة يواجه نصيحته بالظنة ولا نظن

أن هذا منه عن عمد ولا إغراء عدو ، وإنما هو لشبهة حجبت نظره عن درك الحقيقة ، فإذا كشفت له الأيام عن الواقع رجع إلى الندم على ما صدر منه وكانت له مثابة إلى الحق وركون إلى الصواب ٠

لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع العروة الوثقى من دخول القطر المصرى وليعلموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها فى هذا المنع ٠ فإن حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شئ فيها سوى الدفاع عن الشرقيين وإنما منشؤه حكومة انجلترا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها ٠

الحكومة الاستبدادية

(نشرت بالعدد رقم (٣٣) من جريدة " مصر " الصادرة بتاريخ الجمعة ١٤ فبراير سنة ١٨٧٩م - الموافق ٢٢ صفر سنة ١٢٩٦ هـ) .

إن طول مكث الشرقيين تحت نير استبداد المستبدين الذين كان اختلاف أهوائهم الناشئ عن تضاد طباعهم ، وسوء تربيتهم مع عدم وجود رادع يردعهم ومانع يمنعهم وقوة خارجية تصادمهم في سيرهم سبباً أوجب التطاول على رعاياهم ، وسلب حقوقهم ، بل اقتضى التصرف في غرائزهم وسجاياهم ، والتغير في فطرتهم الإنسانية حتى كادوا أن لا يميزوا بين الحسن والقبيح ، والضار والنافع ، وأوشكوا أن لا يعرفوا أنفسهم وما انطوت عليه من القوة المقدسة ، والمقدرة الكاملة والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة والعقل الفعال الذي تخضع لديه البسائط والمركبات ، ويطيع أمره النافذ جميع المواليد من الحيوان والنبات ...

وإن امتداد زمن توغلهم في الخرافات التي تزيل البصيرة ، وتستوجب المحو التام ، والذهول المتغرق ، بلى تستدعي التنزل إلى المرتبة الحيوانية...

ومداولتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية التي تكشف عن حقيقة الإنسان ، وتعلمه بواجباته ، وما يلزمه في معاشه ، وتبين له الأسباب الموجبة للخلل في الهيئة الاجتماعية ، وتمكنه من دفعها والسعي في إطفاء نورها بما ورثوه من سفه القول ، وسخف الرأي ، والجد في اضمحلال كتبها ، وضياع آثارها ، واستبدالها بما أوقعهم في ظلمات لا يهتدون إلى الخروج منها أبداً ...

كل هذه الأسباب .. تمنع القلم عن أن يجرى على قرطاس بيد شرقي في البلاد الشرقية بذكر الحكومة الجمهورية ، وبيان حقيقتها ومزاياها ، وسعادة ذويها الفائزين بها ، وأن المسوسين بها أعلا شأناً وأرفع مكانة من سائر أفراد الإنسان ، بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون ما عداهم ، فإن الإنسان الحقيقي هو الذي لا يحكم عليه سوى القانون الحق المؤسس على دعائم

العدل الذى قد سنه لنفسه يحدد به حركاته وسكناته ومعاملاته مع غيره على وجه يصعد به إلى أوج السعادة الحقيقية ، وتصده عن أن يرقم على صفحات الأوراق ما يكشف عن ماهية الحكومة المقيدة ويوضح عن فوائدها وثمراتها • ويبين أن المحكومية بها قد هزتهم الفطرة الإنسانية فنبهتهم للخروج من حضيض البهيمية والترقى إلى أول درجات الكمال • وإلقاء أوزار ما تكلفهم به الحكومة المطلقة ، وتطلب مشاركة أولى أمرهم فى آرائهم ، وكبح شره النهمين منهم الطالبين للاستئثار بالسعادة دون غيرهم •••

ولهذا أضربنا عن ذكرها ، وأردنا أن نذكر فى مقالنا هذا الحكومة الاستبدادية بأقسامها فنقلو :

إن الحكومة الاستبدادية باعتبار عناصر الذاتيى ، وأقانيمها الحقيقية آلتي هى عبارة عن أمير أو سلطان ووزراء ومأمورى إدارة وجباية تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الاول : منها الحكومة القارسية وهى آلتي تكون أركانها – مع اتسامهم بسمة الإمارة والوزارة والإدارة والجباية – شبيهة بقطاع الطريق ، فكما أن قاطع الطريق يقطع طرق السابلة ويسلبهم أموالهم ومؤنهم وثيابهم آلتي تقيهم الحر والبرد وسائر مواد حياتهم ، ويتركهم فى البوادى والقفار حجفاة عراة جياعاً تقطعت بهم حبال الوسائل ، ولا يلاحظ أن منهم الهرم والصغير والعاجز والضعيف الذين لا يستطيعون التخلص من المهالك ، ولا يقدرون على النجاة ولا يبالى بموتهم وهلاكهم عن آخرهم ولا تأخذه فى ذلك الشفقة والرحمة •

كذلك هؤلاء الأركان يغتصبون ضياع رعاياهم وعقاراتهم ويستولون على مساكنهم وبساتينهم ، وينتزعون بالضرب والحبس والكى وغيرها من أنواع العذاب ، ما بأيديهم من ثمرات اكتسابهم ، ويدعونهم فى خاليب المصائب ، معرضين للأسقام والآلام ، وأهدافاً لسهام البلايا آلتي ترميهم بها عواصف الرياح الزمهريرية والسمومية ، ولا يخشون اضمحلالهم وإبادتهم بالكلية ، ومحق حياتهم

بالمرة ، بل ربما يستبشرون بذلك كأنما هم أعداؤهم ، ولا يشعرون بأنهم قوام السلطة وأساسها ، ومن أفراد هذا القسم الحكومة الجنكيزية والتيمورية وغيرهما من حكومات التتر والبرابرة ، كما تشهد بذلك التواريخ ..

القسم الثاني : الحكومة الظالمة :

وأولياء هذه الحكومة يماثل الأخساء المترفين الذين يستعبدون إناساً خلقوا أحراراً ظلماً واعتداء ، فكما أنهم يكلفون عبيدهم بأعمال شاقة ، وأشغال صعبة ، ويجبرونهم على نقر الأحجار وخوض البحار ، ونقل الصخور ، وقلع الجبال ، وطي المفاوز وجوب البلاد في زمهرير الشتاء وهجير الصيف ، ويؤلمون أبدانهم بالسياط إذا مالوا (أنا ما) إلى الراحة التي تجذبهم الطبيعة إليها ، ويحجبونهم بأشغالهم المستغرقة لأيام (حيوة) هؤلاء المظلومين عن مزايا جوهر عقولهم المقدسة حيث لا يجدون فرصة من دهرهم للنظر في الآفاق وفي أنفسهم كي يرتقوا من الإحساس البهيمي إلى عرش الإدراك الإنساني ، ويشاركوا أبناء جنسهم في اللذائذ الروحية ، ويجتنوا ثمار عقولهم ليؤازروهم بنتائجها مع الصنائع البديعة ، والمخترعات الرفيعة ، فيسعدوا مع السعداء ، ومع ذلك يحرسون حياتهم ، ويحرصون على استبقائها استيفاء للخدمة منهم بتقديم قوت من أرداً ما يقات به لسد الرمق ، وثياب خشنة رثة ، لتحفظهم من أظفار العواصف وبراثن القواصف ، فلا يكون حالهم مع سادتهم إلا كحال البهائم والأنعام الأهلية، لا يعيشون إلا لغيرهم ، ولا يتحركون ألا برضاه ، بل بمنزلة آلة غير شاعرة بأيدي مستعبديهم ، يستغلونهم كما يشاؤون .

كذلك هؤلاء الولاة مع رعاياهم ، فإن الرعاي لا يزالون يتحملون المتاعب والأوصاب ، ويكدون أيام سنيهم ، ويسهرون لياليها مشتغلين بلا فتور بالغرس والحرث والحصد والدرس والندف والحلج والغزل والنسج ، مهتمين بالحدادة والتجارة والملاحة والتجارة ، ساعين في حفر الأنهر وإنباع المياه ، وإنشاء الجداول والجسور ، متكبدين آلام التغرب في الحر المبيد ، والبرد المميت ، كي

ينالوا رغد العيش بطيب المطعم والمشرب والملبس والمسكن ، ويحوزوا الراحة والرفاهة ، ويفوزوا بالحظ والسعادة ...

وهؤلاء الظلمة لا يفترون عن السعي في سلب ما بأيديهم جبراً وغصب ثمار مكاسبهم ، وفوائد متاعبهم رغماً ، ولا يدعون لهم مما اكتسبوه بكد يمينهم ، وعرق جبينهم ، سوى ما تقوم به حياتهم الدنيئة حتى تراهم بعد اقتحام هذه الأخطار ، وتحمل تلك المصاعب ، لا يقتاتون إلا بكسرات من خبز ردئة ناشفة يبلونها بدموعهم المنسكبة من جور ولاتهم الفاتكين ، ولا يستترون أبدانهم إلا بخرق رثة مرقشة بدمائهم السائلة من سياط حكامهم الجائرين ، ولا يسكنون إلا في الأكنة المنخفضة والأخصاص الخسيسة كأنهم أنعام حرمتهم الطبيعة من المزايا الإنسانية ، ولا يشاهدون إلا بوجوه مغبرة مقشرة مقفرة ، وتدوم عليهم هذه الحال الرديئة آلتي نشأوا عليها والمعيشة الدنيئة آلتي اعتادوها حتى هؤلاء الولاة عما منحوه من فضيلة العقل إلى رتب البهيمية لا يحسون بمعيشة أكمل مما هم فيه ، ولا يتألمون إلا بالآلام الجسمانية ...

ومن أقسام هذه الحكومة غالب حكومات الشرقيين في الأزمان الغابرة ، والأوقات الحاضرة ، وكذلك أكثر حكومات الغربيين في الدهور الماضية ، ومنها أيضاً الحكومة الإنجليزية الآن في الأقطار الهندية .

القسم الثالث – الحكومة الرحيمة ، وهي تنقسم الى قسمين :

الأول منها : الحكومة الجاهلة ، ودعائم هذه الحكومة تحاكي الأب الرحيم الجاهل . فكما أنه يحث أبناءه شفقة منه على اقتناء الأموال ، واكتساب الثروة ، واستحصال السعادة والاقتصاد في المعيشة بدون أن يبين طرقها ، ويمهد لها سبلها ، لعدم علمه بها ، ويدعوهم رأفة إلى المجاملة والموادعة ، ورفع الشقاق والنزاع من بينهم بغير أن يحدد لهم الواجبات ، ويقدر الحدود اللازمة للإدارة المنزلية لقصور إدراكه عنها فكأنه يدعوهم إلى أمر مجهول مطلق لا يهتدون إليه سبيلا ...

كذلك هؤلاء الدعائم الرحماء الجهلاء يطلبون من رعاياهم السعي في المكاسب والصنائع والتمسك بالتجارة والفلاحة والتشبث بالعلوم والمعارف ويغرونهم على مجاراة الجيران ، ومباراة أهل العرفان ، والتعلق بأسباب النجاح والفلاح بلا تشييد المدارس المفيدة ، وتأسيس المكاتب النفاعة ، وتسهيل طرق المعاملات ، وبث فنون الزراعة جهلاً منهم ، ويريدون من أولئك علرعايا التباعد عن الشقاق والنفاق ، والاحتراز عن الاعتداء والاغتصاب والتجنب عن الفساد والعناد والحيف والميل في الحقوق ، والاحتراس عن كل ما يخل بالراحة العمومية بلا تعيين ناموس عادل حافظ للحقوق معين للحدود ، فاصل للقضايا ، قاطع لما يطرأ من النوازل ، جامع لجميع ما يحتاج اليه الإنسان في اجتماعاته المدنية ...

ومن أفراد هذه الحكومة سلطنة بعض السلاطين المجبولين على الشفقة المطبوعين على الرأفة الذين كانوا يبكون على سوء أحوال رعيتهم مع جهلهم بما يصلح شأنها والسير بذلك ناطقة ...

الثاني – منها الحكومة "عالمة ، وهي تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : الحكومة " الأثينة الغرة " وأقاينها تضاهي الأب العالم المأفول، فكما أن شفقة هذا الأب تسوقه إلى العناية بأحوال أبنائه ، وتقسره عليها، وأن علمه بأسباب الترف والثروة وعلل المعيشة الهنيئة المرضية يقوده إلى الاهتمام بتأديبهم بأحسن الآداب وتعليمهم الفنون وتمرينهم على الحرف ويجبره على أن يبين لهم قوانين العشرة ، ويحدد لهم حقوقهم ولكنه بعد ذلك يتركهم وشأنهم لضعف رأيه وقصر نظره وجهله بأن ملازمة الشباب للآداب واجتنابهم ثمار معارفهم التي اكتسبوها ، واجتهادهم في المكاسب ، لا تكون إلا بقوة حافظة ما لم تمكنهم التجارب لما جبلوا عليه من الميل إلى الشهوات والانعكاف على البطالة ، والتقاعد عن الفضائل ، فينوون في هوية التعاسة ، وتذهب مساعيه سدى .

كذلك هؤلاء الأقانيم يعمرون بيوت العلم ، ويشيدون دور المعارف ، وينشئون المعامل ، ويوسعون نطاق التجارة ، ويواظبون على تشييع سياسة مدنية تثبيتاً للحقوق ، واستتباباً للراحة على مقتضى ما أحاطوا به من أحوال رعاياهم ، ولكنهم لعدم تدبرهم في العواقب ، وعدم تبصرهم بأن افتقار انتظام أحوال العباد وسير أمورهم على نهج العدل ، ونيلهم غاية بغيتهم من مساعيهم إلى العلة المبقية كافتقارهم إلى العلة الموجدة لا يواظبون على أعمالهم هذه ، ولا ينظرون إليها نظرة ثانية ، بل ينبذونها ظهرياً ، ويتركونها نسياً منسياً ، فيتطرق إليها الخلل ، ويعتريها الفساد ويسرى إليها الانحلال كما جبل عليه الإنسان من الحرص والشره والميل إلى الجور والاعتداء المستلزمة لمخالفة القانون ، فيقع كل في العطب والنصب والشقاء والعناء ، ويستولى عليهم الفقر والفاقة ، ويصبرون كأرض موطوبة بتوالى تطاول أيدى جائريهم ، وتعاقب اعتساف معتديهم ، ويشبه أن تكون حكومة المامون وبعض سلاجقة إيران من أفراد هذا القسم .

القسم الثانى – الحكومة المنتظمة :

وأساطينها الحكماء ، وتضارب الأب المتدبر المتبصر الذى لا يبرح ساعياً فى إعداد الأسباب الموجبة لسعادة أبناءه زمن حياتهم ، وتهيئة معداتها القريبة والبعيدة ، ولا يتجافى آناً ما على مواظبة دقائق حركاتهم وسكناتهم وتفقد شئونهم، واستكناه أحوالهم ، ولا يتقاعد لمحة عن تأييدهم فى سيرهم بآرائه السديدة ، وأفكاره الصائبة ، خوفا من التوانى والكسل ، والإهمال والفشل ، وخشية من عروض الموانع آلتي تصدهم عن البلوغ للغاية .

فتجد هؤلاء الحكماء الأساطين يعلمون أن قوام المملكة ، وحياة الرعايا بالزراعة والصناعة والتجارة ... ويعرفون أن كمال هذه الأمور واتقانها لا يكونان إلا بأمرين أحدهماوهو فى الواقع علتهما الأولى العلوم الحقيقية النافعة والفنون المفيدة آلتي لا يمكن حصولها والفوز بها إلا بمدارس منتظمة ومدرسين ماهرين متخلقين بأخلاق فاضلة ، شفوقين على المتعلمين شفقتهم على أبنائهم ، وثانيهما إعداد آلات الزراعة وأدوات الصناعة وتسهيل طرق التجارة البرية

والبحرية ، ويفقهون أن حفظ أساس المدينة ، وصون نظام المعاملات ، وفصل المنازعات ، وكيف يد التعدى ، ومنع المدلسين ، وكبح الأشرار ، وردع الفجار لا يكون إلا بالمحاكم الشرعية والسياسية المؤسسة على دعائم العدل والإنصاف ، وأنها لا تتحقق إلا بقانون حتى لا يغدر صغيره ولا كبيرة حتى أرش الخدش[1]. محفوظاً بأمناء يقظين ، محروساً بعدول نشطين ، محفوظاً بعلماء فقهين ، معززاً بقضاة قاسطين ، مؤيداً بحكام أعفاء ، وأعوان بررة .

ويدركون ببصيرتهم الوقادة مصالح العباد ، ومناهج تعمير البلاد ، ووسائل درء المفاسد الداخلية ، وطرق منع النوازل الخارجية وأن القيام بذلك لا يكون إلا بضرب ضرائب عادلة عليهم ، يجمعها جباة عدول ، تصرف فى منافعهم العامة لدى الضرورة بلا حيف وميل ، وانتخاب طائفة ... ـالهم الموصوفين بالصداقة وعزة النفس ، وعلو الهمة لحفظ الأمنية الداخلية ، ودفع الأعداء الخارجية ، ويشعرون بأن استكمال سعادة المملكة ، وصيانة استقلالها ، لا يكونان إلا بارتباطاتها السياسية ، وعلائقها التجارية مع الممالك الأخرى ، وإنها لا تتم إلا برجال عارفين دهاة متبصرين محبين لأوطانهم (لا كحسن أفندى فهمى شيخ الإسلام الأسبق فى الآستانة الذى كان يقول لعدو وطنه الجنرال أغنابيف سفير الروسية بها - إنك عينى اليمنى وإن حيدر ابنى عينى اليسرى كما ذكره حضرة مدحت أفندى فى كتابه المسمى بأس الانقلاب) ، متدربين محنكين بالسياسة عالمين بالحوادث قبل ظهورها ، محيطين بطرق التجارة ، فيقولون بواجبات ما اقتضته حكمتهم ، وما أحاطوا به علماً ، ولا يتهاونون آناما عن أداء حقوق رعاياهم ، ولا يفتدون راحة أنفسهم بسعادة أولئك الضعفاء ، وزد على ذلك أنهم يدرون أن غالب أفراد الإنسان طبع على الحرص ، وفطر على الشر ، وجبل على الشهوة ، وخلق متهاوناً بواجباته ، متوانياً على إصلاح شئونه ، ونشأ

---

[1] الأرش شرعاً : بدل الدم أو الجناية ، أو للأطراف كالدية للنفس .

على المكر والحيل ، وغرز فيه حب الاعتداء على حقوق الغير ، وعدم الاكتفاء بما ملكته يداه ، وغرس فيه بعض الشرائع والقوانين حين ما يراها سداً يمنعه عن سلوك سبيل الغدر ، وحاجزاً يردعه عن مقتضيات الشره ، وغلا يكف يديه عن التطاول •

وانهم يفهمون أن كل ما يقع فى العالم الإنسانى من المرض والصحة والفقر والغناء ، والنصب والراحة ، بل كل ما يقتضى الشقاء والسعادة ، ويوجب الإصلاح والفساد لابد وأن يكون لإرادة الإنسان وحركاته الاختيارية فيه دخل تام•

ويدركون أن الإنسان مادام على هذه السجية والغريزة فهو كمريض تتنازعه أمراض خطرة مختلفة لا ينجو منها إلا بتمريض طبيب ماهر يعرف العلل والعلاج، ويتفقده أثناء الليل وأطراف النهار ، فيهتمون حكمة وشفقة بتتبع أحوال الرعايا وأفعالهم وحركاتهم ، ولا ينفكون عن مقايسة آرائهم وأخلاقهم ولا يفترون عن تعديل ثروتهم وغنائهم ، وتقويم علومهم ومعارفهم ، وتجارتهم وزراعتهم ، وإحصاء عددهم وتعداد أحيائهم وأمواتهم ، ولا يتوانون عن مقابلة الصادر والوارد فى ممالكهم ، والمعادلة بين قوة حكومتهم ، واقتدارها واقتدار الغير وقوته كى يقتدروا على تدارك مصالح البلاد قبل تمكن الفساد ، ويقدربوا على جبر السكر ، وسد الثغر ، ورفو الخرق وإزالة جراثيم الرزايا والمصائب ، وإبادة أسباب الخل والمصاعب ، وإذا لم يمكنهم القيام باستقصاء دقائق التعديل والتقويم ، وجزئيات الموازنة والمقايسة مباشرة انتخبوا رجالا يقظين عارفين بأحوال الدول وقواها ، متبصرين بشئون الممالك وأسباب سعادتها وشقائها ، عالمين بنفون التجارة والزراعة والصناعة ولوازمها ، مهندسين محاسبين لأداء هذه المصالح وتسجيلها فى السجلات بغاية الدقة والاتقان ، وعرض كلياتها على هؤلاء الولاة الحكماء مع بيان موارد النقص والخلل ، وأيضاح أسبابها وغير خاف أن تسجيل المعادلات وحفظ الموازنات للدول ألزم من تقييد التاجر معاملاته فى دفاتره اليومية ، فإنه لا يلزم من إهماله فى التقييد والتثبيت إلا أن يضيع رأس ماله على جهل منه ، ويصبح مفلساً وهذا ضرر خاص به ، وأما إهمال الدول

فى حفظ المعادلات وتسجيل الموازنات فيوجب خراب البلاد ، وهلاك العباد ، ومن أجل هذا تجد للدول الغربية عناية تامة بهذا الشأن المسمى عندهم بالاستاتستيك •

فهناك يأيها الإنسان الشرقى ، صاحب الأمر والنهى ، حكومة رحيمة حكيمة ، وعليك بهذا والقيام بشأنها ، وحفظ واجباتها ، وإلا فبحياتك آلتي افتديتها براحة العالم ، أن تعفونا عن تحمل ثقل تمشدقك بالرحمة والعدالة ، والحكمة والفطنة •

أتريد أن تظلمنا فكافئك بالشكر !! وتغصب حقوقنا ونجازيك بالثناء ؟؟ أو تظن أنك تقدر أن تغر كل العالم وتعمى بصائرهم وأن تنزل بالملك عندهم منزلة الحق ؟؟ وأن تجلس جورك مجلس العدل ، وأن تقيم سيئاتك مقام الحسنات ، وأن تقعد رذائلك مقعد الفضائل ، ولعلك اغتررت بتمجيد المتملقين ، وتعظيم المتبصبصين ، وتبجيل المنزلفين امامك •••

ويحك لو كنت تعلم مقامك فى النفوس ، ومنزلتك لدى أرباب البصائر والعقول لو دعت هذه الدنيا الخسيسة آلتي ألهتك ، وفارقت حياتك العزيزة آلتي طالما فاديتها بالمروءة والإنسانية •

وأما أنتم يا أبناء الشرق فلا أخاطبكم ولا أذكرنكم بواجباتكم فإنكم قد ألفتم الذل ، ورضيتم بالمعيشة الدنيئة ، واستبدلتم القوة بالتأسف والتهلف ، وصرتم كالعجائز لا تقدرون على الدرء والإقدام ، والجلب والدفاع والمنع والرفع •

فإنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

كتاب دائرة المعارف

(نشرت بالعدد رقم (٤٢) من جريدة " مصر" الصادرة بتاريخ الجمعة ٢٥ ابريل سنة ١٨٧٩م – الموافق ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٩٦ هـ) .

أن الإنسان باعتبار أقنومية المتجانبين المتدافعين وهما جوهره النوراني ، وهيكله الهيولاني الظلماني ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : وهو القسم الأعظم سواداً الأكثر أفراداً وهو الذى تتقلب فيه جنبته البهيمية الظلمانية على أصله العقلي الذى به قوام إنسانيته ، فتستعمله لقضاء أوطارها من جلب الملاذ الحسية الجسدانية وتمهيد طرق الشهوات الجنسية الحوانية فلا يهتم إلا بالمآكل والمشارب والتفنن فيها ولا يسعى إلا لتزيين الملابس ، وتشييد المساكن ، لا يدرك اللذائذ العقلية ، ولا يتطلبها ولا يسعى فى تحصيلها بل ينكرها ويسخر ويهزأ بمن يجتهد لنيلها والوصول إليها ، ولا يعقل الفضائل الحقيقية فيميل إلى التحلي بها ، ولا يفقه الرذائل فيجنح للتخلي عنها ، ولايشتاق إلى المحامد فينزع أليها ..

وهذا القسم وأن كان على صورة الإنسان إلا أنه فى الحقيقة من البهم والعجماوات بل أحط منها منزلة فإن حيواناً ما من الحيوانات لم يهمل شيئاً مما أودع الله فيه من الخواص آلتي تتأدى به إلى كماله الواجب بخلاف هذا القسم من الإنسان فإنه قد أهمل أشرف خواصه وهى خاصة العقل آلتي بها يمتاز عن غيره من أصناف الحوانات ، وقد ذهب عليه أن المأكل والمشرب والملبس إنما هى مقاصد بالتبع لا بالذات يرام نيلها لاستبقاء الحياة كى يكتسب بها المعارف العقلية والملكات الفاضلة ..

والقسم الثاني : هو الذى يبتغى لذة أخرى فوق اللذائذ الجسمانية بل كثيراً ما يكف نفسه عن اللذائذ الحسية ويذرها رغبة فى استحصال تلك اللذة وهو ينقسم إلى قسمين .

أحدهما السلاطين والأمراء وذوو المناصب والرتب فمن هؤلاء من يتقشف في معيشته مأكلا ومشرباً وملبساً ، ويصرف فكرته أثناء الليل وأطراف النهار ، ويتجافى عن مهاد الراحة والدعة إلى وهاد التعب والمشقة ، ويتباعد عن السكون والطمأنينة إلى الاضطراب والحركة ، بل قد يقتصر من الوازم حياته على الضروريات آلتي لا يمكن التعيش إلا بها ، ولا يبالي بفقد ما عداها من الحاجيات والكماليات ، فهو بالحقيقة معذب الجسم ، مؤلم البدن ، يحمل نفسه على تحمل كل ذلك سعياً في توسيع الممالك ، وفتح البلدان وقهر السلاطين ، واستحصال المراتب العالية ، والمناصب السامية ، ليمكن بذلك هيبة من القلوب ، وعظمة في النفوس ، ينال من الناس محمدة وثناء ، ويكون ذلك غاية لذته ، ومنتهى مطلوبة ولا يعدو ما سواه لذة ..

وهؤلاء وإن طلبوا لذة روحانية إلا أنهم راموها من غير وجهها ، وأتوها من غير بابها ، فإن أعمالهم هذه لا توجب توقيرهم من النفوس ، ولا انطلاق الألسنة بالثناء عليهم خصوصاً عند ذوي العقول والبصائر لما أنه لم يترتب عليها فائدة في العالم الإنساني ومع ذلك قد أخطأوا المرمى لأنهم قد اتخذوا لمقصدهم هذا وسائل القتل والنهب ، والقهر والسلب ، وإحقاق الباطل وإبطال الحق ، وتخريب البلاد ، وتدمير العباد ، وهذه الوسائل المشئومة قد انتزعت محبتهم من القلوب ، ونفرت منهم الطباع ، وبدلت التعظم بالتحقر ، والمدح بالذم والثناء بالثلب لدى المعارف العامي والعالم والجاهل وها هي كتب التواريخ مشحونة بمثالبهم ومعائبهم ، وأطلال القرى ، ورسوم المدن المخضبة بدماء ساكنيها تشهد بشناعة أعمالهم ، وقبح مساعيهم ، وخروجهم عن حد الإنسانية إلى خطة السبعية والافتراس حتى ترى أن أفضلهم وأنزههم لا يوصف إلا بعدم الظلم والجور والارتشاء وغير ذلك ، وليس بخاف أن هذه الاعدام لا تعد مدائح إذ ليس لهم حق في التعدي حتى يمدحوا بالكف عنه على أن مادحهم بهذه الاعدام لم يأتوا ذلك إلا كمدح بعض الآحاد بأنه ليس بسارق ولا مختلس مثلا ..

الثانى : الحكماء والمثقفون والعلماء المؤلفون والعرفاء المخترعون ، هؤلاء هم الذين رفضوا مقتضيات الجنبية الهيمية ، ونزهوا أنفسهم عن الصفات الخبيثة السبعية ، وبذلوا راحتهم ، وصرفوا نفيس عمرهم فى تجلية عقولهم بأنوار العلوم الحقيقية ، والمعارف العالية ، ونفوسهم بالصفات والأخلاق الكاملة ، بل أبت نفوسهم الشريفة ، وهممهم العلية أن تقف بهم عند هذا الحد من الكمال أعنى تحصيل الفضائل القاصرة على ذواتهم ، بل بذلوا الوسع ، وأجهدوا النفس فى نشر العلوم والآداب ، ووضع القوانين العادلة ، واختراع الصنائع النافعة ، والفنون العالية وغير ذلك مما لا يقوم النوع الإنسانى قائم إلا به ، لا يختصون بذلك جنساً دون جنس ، ولا وطناً دون وطن ، ولا يبتغون بذلك سوى لذة الكمال العقلى ، واستحصال المحمدة الحقة بما قلدوا به أعناق أفراد النوع البشرى من نتائج أفكارهم ، وآثارهم أعمالهم ، فصار توقيرهم فى النفوس ، وتعظيمهم فى الأفئدة فرضاً على كل شخص من النوع الإنسانى بالطبع ، إن أنكره لسانه شهدت به جوارحه وجنانه ، بل حازوا السلطنة الحقيقية فى المملكة الإنسانية لا لا يعزلون عنها بموتهم ، ولا تزول سلطتهم المعنوية الحقيقية ، ما دامت السموات..

انظر إلى سلاطين اليونان والرومان والفرس والكلدان قد محيت أسماؤهم من صفحات الأذهان لا يطلع عليها إلا المتوغلون فى قراءة التواريخ وسير الأمم، أما فيثاغورس وسقراط وأرسطو وأفلاطون وبزر جمهر وجاماسب فلا تزال الألسنة رطبة بذكراهم ، ناطقة بفضائلهم ومزاياهم ، والنفوس معترفة بعوارفهم ، ومذعنة بعظمتهم ، وإن هؤلاء العظماء الفضلاء من الشرقيين والغربيين فى الأزمان الغابرة ، والأوقات الحاضرة بعد حلول جميعهم من الشرف مكاناً علياً ، واستحقاقهم المحمدة الحقة والثناء الخالص ، يتفاوتون فيهما على حسب تفاوتهم فيما حازوه من الفضائل وما ترتب على مؤلفاتهم ومصنفاتهم ومخترعاتهم من الآثار والفوائد ، فمن كان منهم فى المعارف أوسع دائرة ، وبالآثار أعم فائدة ، وأتى من الأعمال ما يقيم نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر،

كان أحق بالمدح وأجدر بالثناء ، فيجب على كل من وضع قدمه فى أولى جردات الإنسانية أن يقدم له الشكر والثناء على قدر طاقته قياماً بأداء الحق ، واستنهاضاً للنفوس الخاملة لأن تنال ذاك المقام الأسمى ، والشرف الأعلى ..

ولهذا رأيت من الفرض علىّ أداء الشكر ، أصالة عن نفسي ونيابة عن كل عارف باللغة العربية الشريفة أن أنشر عطر الثناء على حضرة العالم الفاضل المتبحر " بطرس أفندى البستانى " مما أودعه فى مؤلفه " دائرة المعارف " من الفوائد الجليلة والمنافع العميمة آلتي قلد بمنتها أعناقنا قائلا " أن هذا المؤلف الفاضل فضلا عن سائر مؤلفاته كمحيط المحيط ، وقطر المحيط وغيرهما ، وقد أتى لنا بكتاب دائرة المعارف محيطاً بجميع ما يحتاج إليه الإنسان فى معاشه ومعاده إذ قد حوى جميع التواريخ من سير الأمم والسلاطين ، وأخبار الأنبياء والحكماء والمقدسين ، وجغرافية البلاد وعلوم الطبيعة والكيمياء والنباتات والحيوانات والحساب والجبر والهندسة والفلك وغير ذلك من الفنون الجميلة ، فمن وهبه اللّه أدنى عقل غريزى وكان ل÷ أقل إلمام بمبادئ العلوم فله أن يستغنى بهذا المؤلف عن تجسم الجلوس بين يد الأساتذة لأن صعوبة العلوم بصعوبة الوقوف على اصطلاحاتها ، وهذا الكتاب قد كشف حجاب الخفاء عن جميع الاصطلاحات بأوضح بيان ، وألطف عبارة ، وأرق إشارة ، غير أننى مع ذلك لا أتمالك أن أظهر أسفى من أن هذا المؤلف لم يبرز بتمامه فى عالم الوجود، ولست أتوهم أنه من فتور فى همة المؤلف الفاضل ، ولكنه لقصور فى رغبة الشرقيين فنوجه إليهم الخطاب قائلين :

يا أبناء الشرق .. إفلا تعلمون أن سلطة الغربيين وسيادتهم عليكم إنما كانت بارتفاع درجتهم فى العلوم والمعارف ، وانحطاطكم فيها ، فلم لا تتقد أحشاؤكم بنيران الشوق لهذا المؤلف البديع وأمثاله حتى يبرز بمعدات رغبتكم ، وكمال شوقكم من عالم القوة إلى الفعل : هل رضيتم بعد ما كان لكم ذروة الشرف بواسطة العلوم والمعارف أن تدوم لكم تلك الحالة الوخيمة آلتي أوصلتكم إليها الجهالات والضلالات حتى عادت ترق لكم قلوب الأعداء فضلا عن

الأصدقاء .. فهلموا لاقتناء المؤلفات ، واقتناص صيد المعارف ، واعتصموا بعرى الاجتهاد فى نيل العلوم ، واستضيئوا بسنا الحق ، لتسترجعوا مجدكم وتنالوا استقلالكم ، فتفوزوا مع الفائزين .

* * *

خطبته بالإسكندرية

(نشرت بالعدد رقم (٤٧) من جريدة " مصر " الصادرة بتاريخ السبت ٢٤ مايو سنة ١٨٧٩م – الموافق ٤جمادى الآخرة سنة ١٢٩٦ هـ) ٠

(مقدمة جريدة مصر)

فى عيشة يوم الجمعة الماضى ، وفد على الإسكندرية سيدنا فهرست كتاب الكمال ، وفذلكة حساب الجلال ، أستاذنا الأجل الفيلسوف الأكبر – السيد " جمال الدين الأفغانى " فابتسم له الثغر عن درر الهناء به ، وغرر الثناء عليه ، وسعى إليه النبهاء والوجهاء وما من جارحة فهم إلا وهى تود لو كانت أذنا فتلتقط درره وجواهره أو عيناً ليتجلى مطالعه ومناظره ، وأعد له وجهاء الثغر وفى مقدمتهم جناب الفاضل الوجيه الحريص على حب العلم ورجاله جبرائيل أفندى المخلع ، وجناب المكرم نجل البارون دى منشى مأدب فائقة الحسن والظرف تأخذ باللب والطرف ، جامعة لمحاسن الكمالات ، وكمالات المحاسن ، متوفرة أسباب الهناء والسرور ، كاملة وسائل الأنس والحبور بما أبدى الوجهاء المشار إليهم من اللطف والإكرام ، بل كانت مجالس فضل وإفادة تلتقط بها الأسماع مما يلقيه سيدنا الأستاذ المشار إليه در الكلمات التي هى وسائط الآداب ، وصياقل الألباب ٠٠

ثم اتصل ببعض شبان الإسكندرية الوجهاء النبهاء خبرى قدوم سيدنا الأجل المشار أليه إلى الإسكندرية ، فوفدوا عليه ليمتعوا الأبصار بأنواره كما تمتعت الأسماع بأخباره ، ثم سألوه أن يخطب فيهم خطبة عمومية يستفيدون من بيانها حكمة وأدباً ، فأجابهم إلى ذلك وخرجوا من لدنه يطلقون ألسنتهم بالثناء إليه ، ثم شكلوا لجنة منهم للاهتما بشئون محفل الخطاب ، فاستقر رأيهم على أن يكون ذلك فى مساء الأربعاء فى قاعة زيزينيا ، ورفعوا الأمر إلى حضرة أستاذنا المشار اليه ، فوافق عليه ، ثم رأى أن يجعل لهذا السعى أثراً مفيداً حسياً فضلاً عن أثره الأدبى المعنوى بأن يكون الدخول لذلك المحلف بأوراق ، تعين قيمتها

لإعانة فقراء الإسكندرية ، وكلف أعضاءاللجنة بذلك ، فترطبت ألسنتهم بالشكر له ..

وفى مساء الأربعاء الماضى كانت قاعة زيزنيا محفلاً لنبهاء الناس أحدقت فيهم الأعين من الحجرات والمقاعد بروح الفضل والحكمة ، المتجسم فى ذات سيدنا الأستاذ ، وانفتحت الأسماع لالتقاط در ألفاظه الحكيمة ، والتشنف بجواهر أقواله الفلسفية ، فقام أعزه الله فى ذلك الجمع خطيباً يصقل الألباب ويمهد مناهج الآداب بالكلام البرئ من الكلف ، حتى تمنت الجوارح لو كانت كلها آذاناً تلتقط درر حكمته ، وودت الأعضاء لو كانت بأسرها عيوناً تتمتع بأنوار رؤيته ، وقد وعينا من نطقه الكريم ملخص خطابه الفائق الوضع ، الجيد الوقع ، الذى ارتفع له حجاب السمع ، وانخفض له جانب الطبع ، فأثبتناه مع الاعتراف بانحطاطه عن الأصل ، فما هو إلا رسم لحقيقة ذلك الخطاب ؛ وشتان ما بين الحقيقة والرسم .

خطبتـــه

يا أيها السادة ، ويا أيتها السيدات ..

أرى من الواجب علىّ أولا أن أثنى على الجرائيم الشريفة الشرقية آلتي مضت عليها الدهور ، ومرت العصور ، وهى فى حالى الكمون فمنع الموانع الخارجية ، وقصر القواسر الداخلية ، ومع ذلك لم تفقد مزاياها العالية ، ولم تعدم سجاياها السامية ، بل برزت ونمت فرأينا أصولها الشريفة سادة شرفوا هذا المحضر لإعلاء كلمة العلم ، ورفع منار المعارف ، وتأييد أمر الفضل ، اعتقاداً أن العلم سلطان عادل حكيم إذا حل ببلد قوم تبعه الغنى والثروة لأنهما لا يحصلان إلا بالتجارة والزراعة والصناعة آلتي لا تحصل إلا بالعلم ، ولزمه الطمأنينة والراحة لأنه يعين الحدود ، ويبين الحقوق ، فيكون لكل الناس حظ لا يتخطاه ، وحد لا يتعداه ، ووليته الحرية لأنه يبين للإنسان مقدار نفسه ، فيعرف بذلك قدر غيره ولا يخضع لمن يتوهم فيه السيادة خضوعاً أصم ، ولا يطيع لمن

يعتقد به الرئاسة طاعة عمياء ، فلا يأخذ إلا بالقانون ولا يدين إلا للشريعة ، وتليه الشفقة لأنها لا تحصل إلا بأن يدرك الإنسان ما ألم بغيره من المصائب إدراكاً بحسم ذلك في خياله حتى كأنه يشعر بألمه ، وهذا الإدراك هو عين العلم ... علماً بأن الجهل سلطان غشوم جاهل يتبعه الفقر والفاقة ، ويواليه الارتباك والاضطراب ، ويألفه الذل والعبودية ، وتلزمه القسوة والشراسة ، ولذلك فإني أقدم الشكر للأفاضل الكرام والأرومات الشرفاء الأصول الذين اجتمعوا في هذا المقام لإحياء العلم الموجب لتلك المزايا ، ودفع الجهل الداعي لهذه المصائب ..

وثانياً .. إنه لمعلوم أن الأمة المؤلفة من طبقات الناس تمثل الشخص الواحد ، المؤلف من الأعضاء والجوارح ، فكما أن قوام الأعضاء ونموها ، يكون بالقوة الحيوية تقوى بازديادها وتضعف بضعفها على نسبة واحدة ، كذلك جسم الأمة لا تحصل لطبقاته القوة إلا بروحه الحيوية آلتي هي عبارة عن الميل إلى المعالي ، والشوق إلى الكمالات ، وليس بخاف عنكم ما ألم بروح الجنسية في الأمم الشرقية من الضعف والوهن المستلزم لضعف سائر الطبقات ، فلا تؤاخذوا من قام فيكم خطيباً أن رأيتم في صوته تهدجاً ، وفي عبارته قلقاً ، وفي معانية اضطراباً ، فما الخطيب إلا من طبقات الأمة آلتي ألم الضعف بروحها الكلي فسرى إلى طبقاتها وأعضائها ، ولهذا فإذا رأيتم في خطابتي نقصاً فلابد من التجاوز عنه لكوني رجلاً شرقياً ...

وإذا تقرر لي ذلك فاني أشرع في بنيان المطلب فأقول :

لا أريد أيها السادة أن أذكركم بمجد آبائكم الكرام ، وأنكم إما أن تكونوا من أبناء المصريين ، أو من حفدة الفينيقيين ، أو من سلالة الكلدانيين ، وإن المصريين قد بلغوا من الهندسة ذروتها ، ومن الحساب غايته ، ومن المساحة قاصيتها ، ومن فن جر الأثقال منتهاه ، وعلّموا اليونان الحكمة والفلسفة ، بل أن شخصاً واحداً منهم قد بعث في اليونان روح المعرفة ، وعلمهم فن تدبير المنزل على ين كانوا همجاً متوحشين ، وأبان لهم كيفية الزراعة والصناعة على حين

كانوا يتعيشون بالصيد والقنص ، وأن جل علمائهم ، ومعظم حكمائهم لم ينالوا الفلسفة إلا بما تعلموه فى مدرسة مصر العظيمة ...

ولا أذكركم بالفينيقيين وأنهم وضعوا أصل الصناعة ، وخاضوا غياب البحار ، وكانت إنجلترا واليونان من مستعمراتهم ولا تزال أسماء بلاد أسبانيا (وسلاتيتا) شاهدة بأنهم رفعوا على تلك الأقطار ألوية تمدنهم ، وأن أهلها كانوا لا يعرفون الصناعة ولا التجارة ، بل كانوا يقدمون لجدودهم كنوز الطبيعة ومعادنها الثمينة ليأخذوا منهم الأقمشة والآلات ، وسائر ما يحتاجون إليه ، وأنهم علموا اليونان الخط وكان أعظم حكمائهم منسوباً إليهم وهو (تاليس الصورى) ولا أعيد ذكر الكلدان جدودكم الأولى الذين أنشأوا صناعة النحت ، وقسموا الفلك بالدوائر ، وعرفوا معول النهار ومنطقة البروج ، ودائرة نصف النهار ، ووضعوا الإسطرلاب ، وعرفوا القطب ، واخترعوا الكرة ذات الحلقتين ، لا أذكركم بجميع ذلك لأنكم تعلمونه علم اليقين ، ولا تخافون فيه منكراً أو معترضاً، فإن الهرمين والمسلات وأعمدة الكرنك تفقأ بأصابعها الدهرية أعين المعترضين الذين يرمون الشرقيين بالهمجية والنقص فى النظرة ، وأن تلول نينوى وأطلال صور وبعلبك ومنفيس وثيبة ما بقيت إلا لتثير الغبار على أبصار المنكرين الذين ينظرون إلينا بعين الاستخفاف والاحتقار ، وإنما أريد أن أعطف نظركم إلى حالتنا الحاضرة فأنكم علمون بما حصل لنا من الانحطاط ، وما حاق بنا من الذل والهوان ، وأن النوائب قد خفضت منارنا ، والأجانب اقتسمت ديارنا ، ولا شك أن هذا حادث من الحوادث فلابد له من علة يوجد بها ويعدم بعدمها ، وبعبارة ثانية إنه قد وضع فى دائرة الوجود عوالم متعددة ولكل منها مركز يكون بمنزلة شمس تجذب توابعها بحبال الجذبات الستيكية آلتي تدفع تارة وتجذب أخرى وترسل إليها رسل الأشعة حاملة عناصر الحياة ، وإنه قد وضع فى كل نبات وفى كل حيوان من التغذية ما هو حافظ لنفسه ومن التوليد ما هو حافظ لنوعه ، ولا شك أن ما وضع فينا من قوى الإدراك لم يكن إلا لتنال مرادنا من السعادة

فلابد أن يكون لحرماننا من تلك الأمنية مانع ، وإذا سبرنا الموجودات سبراً فلسفياً فلا نجد لتأخرنا غير سببين أصليين هما : التعصب ، والاستبداد .

فأما الأول فهو عبارة عن سوء استعمال الدين ، فإنا إذا نظرنا بعين المتأمل البصير إلى الشارعين من عهد " مهاديو " إلى " زردشت " إلى " موسى " إلى " عيسى " إلى " محمد " (صلى الله عليه وسلم) لا نجد في شرائعهم إلا الدعوة لمعرفة مبدأ حق وهو الله ، والحث على الفضائل وفعل الخير والزجر عن الرذائل والشرور وبعبارة ثانية لا نلقى بها إلا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنا إذا نظرنا إلى الكثير من الذين تبعوهم فإنا نراهم قد استعملوا تلك الشرائع للشقاق والنفاق ، واتخذوها وسائط لإضرام الفتن ، ووسائل لإلقاء المحن حتى أمكن للشاعر العربي أن يقول :

إن الديانات ألقت بيننا إحنا ... وأودعتنا أفانين العداوات

وما مثل هؤلاء إلا كمثل رجل قلد السيف لقتل الأعداء فاستعمله في قتال الأحباء ، فلبئس ما كانوا يفعلون ...

وأما الاستبداد فهو أن تكون أمة من الأمم مقيدة بسلسلة رأى واحد من الناس لا تتحرك إلا بإرادته ولا تفعل إلا لرضاه ، فإذا كانت الأمة على هذه الصورة لزمها لا محالة أن يصرف كل منها ما أودع فيه من العقل والذكاء لمرضاة شخص واحد فيكون الكل فانياً فيه ، ومن المعلوم أن الرجل الواحد لو انفرد في العقل والذكاء والهمة وعلو النفس لا يستطيع جلب السعادة فضلاً عن جلبها لأمة كبيرة . وها هنا يمكن لي أن أبشركم بأن قد زال عنا هذا المانع بما نلناه من الحكومة الشورية فلم يبق إلا أن تسعوا في صيانتها وتأييدها ، ولا تكتفوا بمجرد حصولها إذ لا يخفى عنكم أن الحكومة هي كسائر الأجسام الطبيعية والاجتماعية، فلابد لها من استمداد الغذاء الجديد وإلا فإنها تزول كغيرها من الأجسام بما يطرأ عليها من التحيل .

وحيث إنا شعرنا بالألم ، وعلمنا بسقوطنا فى هذه المهواة ، وأن أنفسنا تميل إلى الخروج منها فلابد لنا من البحث عن الدواء الحقيقى لهذا الداء الحادث ، فإذا رجعنا إلى بصيرتنا النورانية وفطرتنا الأصلية علمنا بأنه لا يمكن الخروج عن هذه الخطة إلا بالسبب ، فإن المتحرك لا يسكن ، والساكن لا يتحرك إلا بالعلة ، ولا أرى لخروجنا من علة سوى الغيرة ، فهى المحركة للنفوس الداعية إلى المجاراة والمباراة والباعثة على الاهتمام والإقدام على قدرها تأتى العزيمة ، وترتفع القيمة ، وعلى حسب تأصلها فى الأنفس وضعفها يكون صعود الأمم إلى معارك العز والثروة ، وهبوطها إلى دركات الذل والفاقة .

ولا شك أن الغيرة لا تحصل إلا بحزب من الوطنيين يعلمون أن لا شرف لهم إلا بجنسهم ، ولا قوة لأمتهم ولا فخراً إلا بوطنهم ، وأنهم إذا أرادوا تحصيل الشرف بالانتماء إلى غيرهم يكونون بمنزلة الرقعة فى الثوب الجديد ، أو بمنزلة العبد الذى يفتخر بسيده ، ولهذا أرجو منكم أيها السادة أن تقيموا حزباً وطنياً يصون لوطنكم حقوقه ، ويحفظ عليه بهاءه ، على أنى لا ألومكم على انتماء بعضكم إلى الأجنبيين فإن ذلك لم يكن إلا فراراً من الظلم ، وحصراً على الحقوق الإنسانية والمدنية ، ولكنى أومل منكم أن تؤيدوا أمر الوطن ، وتشيدوا فيه الحكومة الشورية ليستقيم أمر العدل والإنصاف ، فلا يعود بكم من حاجة إلى حماية الأجنبية بل تمزقوا أوراق الانتماء ، وتذاكر الحمايات حتى يكون شرفكم منكم وإليكم ، وحمايتكم فى ظل قوانينكم ، ولا تكونوا رقعة بالية فى ثوب الأجنبى الجديد ...

ولا شك أنكم تعلمون أن الحزب الوطنى لا تحصل له القوة ولا يكون له البقاء ما لم يكن لأهل الوطن لغة جامعة مهذبة التراكيب جيدة الأساليب ، فإن لم يكن لهم ذلك ، لا تستقر فهم المعارف ولا تقيم بأحيائهم العلوم ، وإن ذهب جماعة كثيرة منهم إلى أوروبا ، وتعلموا اللسان الأجنبى ، فإن معارفهم المكتسبة تكون سريعة الزوال ، ووطنهم يكون كالبلد الذى لا ماء فيه يجلب لأهله الماء من ضواحيه ، فهو عرضة للظمأ وسوء الحال ، وأهله على شفا الاضمحلال .

فإن سأل سائل كيف يمكن بث الغيرة ، وإنشاء الحزب الوطنى ، وإحياء اللغة قلنا : إن معظم الأسباب الموجبة لحصول هذه المزايا إنما هو إنشاء قاعة للخطابة يقوم فيها الخطباء الأباء ، وينطقون عن الغيرة والحمية بما يبين لنا الحقوق ، ويعين الواجبات ، ويذكرنا بمجد آبائنا ، وذل أبنائنا ويرينا حالة الأجنبيين وما هم عليه من القوة والثروة والمجد والسطوة ، فنعلم أسباب السقوط ووسائل الهبوط ، ويتبع ذلك إنشاء الجرائد الحرة القائمة بأمر الوطن بأطراف الحق ، فإنها تقرب الأقصى باللفظ الموجز ، وتنبئ بأخبار السلف ، وتبين لنا أحوال جيراننا ، فترينا المصالح والمفاسد لنجتلب تلك ، ونتجنب هذه ، ولا شك أنه لابد فى عالم المدينة من كل منهما ولا يمكن البلوغ إلى غاية السعادة إلا بهما، ولا فرق بينهما ، إلا أن الخطابة تحرك الدم بحركة الخطيب ، وقوة المشافهة ، وأن الجرائد تثبت المطالب فى الأذهان بإعادة النظر إلى ما أثبت فى الصحائف.

ولكنى أجلكم أيها السادة عن أن تحسبوا أنكم تنالون مزايا المدنية ، وتحوزون المعارف والعلوم ، وتستكملون أسباب التقدم والسعادة ، وتبلغون ذروة المجد والشرف إن كان العلم فيكم مقصوراً على الرجال .. بل أعيذكم من أن تجهلوا أنه لا يمكن لنا الخروج من خطة الخسف والجهل ، ومن محبس الذل والفاقة ، ومن ورطة الضعف والخمول ، مادامت النساء محرومات من الحقوق ، وغير عالمات بالواجبات ، فانهن الأمهات اللواتى تصدر عنهن التربية الابتدائية، والأخلاق الأولية ، ولا شك أن أول ما ينقش فى لوح ذهن الإنسان يكون ثابتاً صعب الزوال ، وقد قيل " العلم على صغر كالنقش فى الحجر " وأقول إن هذا النقش هو السبب الأصلى فى اختلاف المذاهب ، وتنوع المشارب ، فإن وجدت فيه الكدورة فلا صفاء فى الذهن ، ولا سلامة فى المشرب ، ولكن إذا كانت الأمهات عالمات عارفات بحقوق الإنسانية ، متأدبات على ما تقتضيه أحكام الشرف والمدنية ، فلا شك أن أولادهن يخلقون بأخلاقهن ، ويكتسبون منهن تلك المزايا الفاضلة ، وعندى أنه إذا حصل التساهل فى تربية المرأة وكان رجال الأمة جميعاً راخسين فى العلم والمعارف ، مترقين فى درجات الكمال ، فلا يمكن بقاء

الأمة على تلك الحال المكتسبة إلا مدة بقاء أولئك الرجال ، فإذا انقرضوا ، وخلفتهم الأبناء المتخلقون بأخلاق أمهاتهم على ما بهن من النقص فى الكمالات العلية ، رجعت أمتهم إلى ما كانت عليه من الخسف وسوء الحال ...

أقول هذا وفى يقينى أن حلمكم يقينى الملام ، وأن تلطفكم يضمن لى حسن الختام ... أ هـ ...

* * *

خاطرات

جمال الدين الأفغاني الحسيني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بعث فى كل أمة نذيراً ، وأرسل خاتم النبيين محمداً سراجاً منيراً، وأنزل عليه " وَمن يؤتَ الحكمةَ فقد أوتيَ خَيرا كَثيراً " والصلاة والسلام على سائر الانبياء والمرسلين هداة الخلق إلى الحق وعلى آلهم وصحبهم أجمعين •

تمهيد

إن هذا الكتاب (خاطرات جمال الدين الأفغانى) قد كتبت مواضيعه فى دور السلطان عبد الحميد ، ما بين سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ / ، إلى سنة ١٣١٤هـ - ١٨٩٧م ، على كمال الاحتراز ، بل الخوف من شدة المراقبة ، ووفرة الجواسيس ، وكثرة الافتراء فى ذلك الزمن على الأبرياء خصوصاً على السيد جمال الدين ، وعلى من كان يكثر الاجتماع عليه ، أو يدخل بيته •

فالمطالع له الآن ربما لا يرى فيه كبير أهمية ، ولكن إذا أرجع النظر إلى ما قبل أكثر من ثلث عصر ، وإلى أن مواضيعه تحررت فى الآستانة ، وأن تلك الأفكار ، والاقوال لم تحور ، ولم يطرأ عليها أدنى تغيير ، يعلم خطر أمرها • كذلك لا بد للمطالع أن يرى مواضيع الكتاب غير متسلسلة والسبب فى ذلك أنها لم تكن فى موضوع أو مطلب واحد ، بل هى أحاديث بعضها بنى على الحوادث، وبعضها أتى على سبيل السؤال والاستفهام ، والبعض الآخر على سبيل الجدل مع آخر ، ومنها ما هو عفواً وبغير مقدمة • فأثبتنا الجميع على علاتها وكيفية صدورها •

على أثر إعلان الدستور العثمانى توهم كثير من أصدقائى الذين يعلمون بوجود (خاطرات جمال الدين) أن الزمان قد حان ، وآن أوان نشر الكتاب بعد ذلك الطى والخفاء •

وأتتنى عدة رسائل من إخوانى فى مصر ، وممن لا معرفة بينى وبينهم من أنحاء الهند يستحثوننى على سرعة طبع الكتاب ، فما كدت أن أباشر الطبع إلا

ورأيت فى مقال جمال الدين تحت عنوان " الأحزاب فى الشرق " ما ينطبق على حال رجال جمعية الاتحاد والترقى من أثره ، وأنانية ، وكذب الأمانى آلتي منوا الأمة بها وذهبت هباء منثوراً •

فرأى لفيف من الأصحاب خطراً على الكتاب أن يعدم ، وعلى المنتظر أن يحرم ، فرأينا التأجيل للوقت الأنسب أولى ، وللسلامة أدعى •

مرت سنون ونحن على طبع الكتاب بين إقدام وإحجام حتى كانت سنة (١٣٢٩ هـ – ١٩١٢م) إذ أعادت الأصدقاء الكرة فى مقدمتهم بعض أرباب الصحف الأفاضل يطلبون نشر الكتاب •

فنشطنا لتلبية الطلب ونشرنا فهرست الكتاب مطبوعاً ؛ وما فرغنا من إذاعته إلا وجو السياسة أخذ يتعكر صفاؤه ، ومخاوف بعض كبار موظفى الاتحاديين أخذت تبدو من مواضيع كتاب يعلمون حقيقةً أنه لم يقصد به تقريع أشخاص أو تقبيح أعمال هيئات ، أو قلب حكومة ما • ثم أعقب ذلك شبوب الحرب الكونية ، فاحتلال الحلفاء البلاد ، ثم تقطيعها إلى دويلات •• الخ – فاضطررنا أيضاً بحكم تلك العوامل أن نرجئ النشر ولكن ليس إلى يوم النشر ،

والسبب الذى حمل على تدوينها هو أن المرحوم السيد جمال الدين بعد مقدمه الأخير للاستانة أو استقدامه اليها من عاصمة الانجليز أوائل عام ١٣١٠هـ• ومكثه فيها إلى أن توفاه الله لم يكن له من الآثار مطبوعاً أو غير مطبوع[1] يجمع ما كان يجول فى نفسه من تلك المخدرات من معانى الحكمة آلتي نزلت عليها آية الحجاب فى تلك الديار وما لاقاه ، مع شدة عارضته ، وقوة عزمه ، وعدم مبالاته فى القهر ، ومناهضته المتغلبة من الحكام ، وتحمل الجور منهم فى سبيل نهضة الشرق ، وما كان يرمى اليه من سامى الغرض فى طلب

---

(١) نعم ترك رسالة فى " نفى مذهب الدهريين " كتبها فى الهند وقد أدرجناها برمتها فى آخر هذا الكتاب •

الحرية الحقيقية وإعطاء العدل حقه ، بالتوزيع بين طبقات النوع الانسانى •

فكنت من يوم وفد على القسطنطينية ألزم له من الظل فى عزلته ، سهل ذلك على ميله رحمة الله عليه ، وقرب الدار والجوار (فى مجلة نيشا نطاش) فكاشفته بلزوم تدوين عمله ، وما تكنه سرائره من الحكمة ، ونافذ النظر وثاقب الرأى لنفع النوع •

فكانت تلك الرغبة منى فى بداية الأمر لا يبالى بها كثيراً ، ولا يتلقاها لقاءً حسناً ، ولكن فى الأخير رأى فى طلبى حقاً ، ولمح منه للشرق وأهله نفعاً ، فقبل أن يؤخذ عنه وأجاز بقوله : سل ما تريد يا شيخ بنى مخزوم واكتب ما تسمع واحفظ ما تراه ، وقبل كل شئ ألفت نظرك لأمر ربما أنت ملاقيه فخذ له من الحذر عدة ، ومن التحمل درعاً ، إذا سلمت فى كتابة خاطراتى من خطر الطاغية [1] وطواغيته – يعنى جواسيس السلطان عبد الحميد – فستصادف من أهل الجمود عنتاً وتخرصاً ، وقلياً للحقائق فلا تبالأ بهم ، فما خلا الكون منهم يوماً ليخلو زمنك ، ولا نجا منهم مخلص لتنجو أنت ؛ ولسوف تعثر بأفاس دينهم التنقيد لا حباً بتمحيص الحقيقة واستجلائها وإنما دأبهم وما يرمون اليه أن يقال : قام فقال ، وانتقد واعترض ، فمثل هؤلاء ربما يخدمون الحق ، وينشرون الفضيلة من حيث لا يردون ولا يشعرون فأعرض عنهم وقل لهم سلاماً • انتهى قوله بالحرف •

---

(١) وعواقب ملك الروم •

مقدمة المؤلف

قبل الدخول فى ترجمة حياة جمال الدين المدونة فى متفرق المطبوعات أقول ما اختبرته بالذات : انه رحمة اللّه عليه كان غير مغرور بنفسه كثير الاستخفاف بكل من كان يخاطبه : بدولتكم ، أو سماحتكم ، او كان بطريه بالفلسفة ، والتبريز بالحكمة ، والتفرد بالخطابة واحتقار الموت وغير ذلك مما هو متصف به حقيقة من المزايا والصفات العالية ، وكان يقول : يهمنى أن أصل من كل هذه الصفات للطمأنينة القلبية فقط أننى استطعت فى حياتى أن قلت الحق ولم أكتمه لا رغبة ولا رهبة بل جاهرت به ، وأنى بلغت من الشجاعة مرتبة فعلت معها بعض ما أقول ٠

وقد ذكرت له يوماً أن بعض أصدقائى [1] من محبيه على البعد يرغبون فى الحصول على ترجمة حاله ليزينوا – على اصطلاح أرباب الصحف – أعمدة جرائدهم بها ٠

فابتسم السيد وقال :

إن العيان لا يحتاج الى ترجمان ٠ قل لهم ما قاله فلان عنى ، وكان داء الحسد من المعاصرين قد تفشى ، خصوصاً بعد إقبال جلالة السلطان عبد الحميد عليه ، واحتفائه به ، بأحبوا أن يضعوا من قدر جمال الدين فقالوا عنه انه " سرسرى " يعنى متشرد ، تائه فى الارض ٠ وهذا ما يعنيه بالقول عنه .

---

(١) وهو المأسوف عليه صديقنا جرجى زيدان صاحب مجلة الهلال وكان طلبه هذا على خلاف ما اعتادته مجلته اذ كانت لا تنشر الا تراجم مشاهير الرجال بعد وفاتهم – وهكذا جرى وقد بعثت له بترجمة جمال الدين بعد وفاته كما سيأتى ذلك اذ لم يتيسر لى إرسالها وهو حى أما الهلال فلم ينشر الترجمة كما بعثتها بل نشر قسما وأغفل قسما وقد أتينا على السيرة بتمامها ٠

فقلت لا ينبغى للاستاذ الحكيم ان يضن على أهل عصره بما ينفعهم ولا يضره • قال :

وأى نفع لمن يذكر أننى ولدت سنة ١٢٥٤ هـ ، وعمرت أكثر من نصف عصر ، واضطررت لترك بلادى " الافغان " مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض ، وأكرهت على مبارحة الهند ، وأجبرت على الابتعاد عن مصر ، أو إن شئت قل نفيت منها ، ومن الآستانة ، ومن أكثر عواصم الارض . كل هذه الاحوال – خاطرات [1] – لا تسرنى وليس فيها أدنى فائدة للقوم •

أما القول بأنها لا تسرنى ، لا بمعنى أنى نفيت من البلاد ، أو سجنت كلاً لأنى أعتقد ان السجن بطلب الحق من ظالمين العتاة " رياضة " ، والنفى فى ذلك السبيل " سياحة " ، والقتل " شهادة " وهى أسمى المراتب •

---

(١) كنت سميت هذا الكتاب بعد ان أخذت بتحريره (جمال الدين الافغانى فى البلاط السلطانى) : فلما سمع منى هذا وانه عنوان للكتاب نفر قائلا : ان هذا العنوان ليس لهذا المقال بطبيق • قل " خاطرات " ولا تزد • فأجبت انى افعل • ولكن نبهنى الى كلمة " خاطرات " احد الاصدقاء – وهو من المنهمكين فى قواميس اللغة – اذ قال لا يصح ان تجعل عنوان ذلك الاثر المفيد مما تنتقده أهل اللغة لان خاطرات لم ترد بالمعنى الذى تريده من جمع وكتابه آراء وأفكار جمال الدين والاقرب للصواب ان تقول (خواطر) ولا أن تقول (خطرات) لانها تفيد الوساوس (فلما كاشفت جمال الدين بذلك تبسم وقال : رحم الله الفيروز آبادى حيث قال (خذوا فنكم من أعجمى) • ورحم الله الفرزدق ، وجرير ، والحيئة حيث قالوا : للمتهوسين بالمتعامل المشهور ، القائم مقام ضوابط وقواعد اللغة والاتها ، من صرف ونحو اليوم – (علينا ان نقول وعليكم أن تتقولوا) • قال : ويعجبنى أحدهم إذ مضى بانشاد قصيدته على مسمع من معارضة ومهاجيه ، فاورد ذكر الجمل مكان الناقة فقال معارضه " استنوق الجمل • ثم ذهب مهرولاً • ذلك شأن أساطين اللغة فى أبان شبابها ، وزهوها ، ونضارة بلاغتها • قل (خاطرات) ولا تبال بمن فسد لسانهم ولا يصلحون الا إلى الاجوف، والمهموز • ولا يحسنون جملة تنقر حبة القلب او تطرب السمع ، انتهى – فعملنا بقوله رحمه الله وعنونا الكتاب كما ترى " بخاطرات " •–

فأنا عن نفسى غير راض ذلك لأن الخمول قد قعد بى فلم يوصلنى الى أسمى مرتبة وهى مرتبة الشهداء ، وحطنى فى مصاف المنفيين من أرض إلى أرض والمسجونين فيها ، فما أبعدنى فى كل هذا عن أولى الهمم ، وما قام بالاعمال الخطيرة " لو المطلب الجلل " اهـ

مع أن جمال الدين رحمة الله عليه لم يترك عملاً من الاعمال الخيرة لخير النوع الانسانى عموما ، والشرقيين خصوصاً ، الا واقتحمه ، ببسالة كادت ان تخرجه عن الهيئة المتوسطة ، وتتجاوز به فضيلة الشجاعة الى نقيصة التهور ، وكان على علاته حكيماً خطيباً ، قوى الذاكرة ، وكان فى ذاكرته سريع الحفظ ، سريع الذكر ، بطئ النسيان • وانه ليذكر خطاباً ألقاه ارتجالاً ، أو مقالاً أملاه لو كتبه من سنين بالحرف الواحد ، وكأنما يتلوه من كتاب ، شديد البعد عن التعصب، نفوراً منه ولن ذكر المسلمين فى أكثر مقالة ، ذلك لانهم العنصر الغالب بأكثريته فى الشرق ، والملة المسلوبة ممالكها ومقاطعاتها • ولهذا أكثر من إيقاظهم ، وتنبيههم وتقريعهم ، والا فهو أكثر الفلاسفة توسعاً بمعنى المساواة، وميلاً للعمل بها فعلاً بين نوع الانسان ، خصوصاً فى الحقوق العمومية ألتي لا يصح لها معنىً الا بالحرية المعقولة • يهمه الشرق والشرقيون على السواء ، وبدون إستثناء ، مهاباً أكثر مما هو محبوب لاول نظرة ، شجاعاً ، جريئاً ، كريماً لحد الأسراف ، تواضعاً مع الوسط ومن دونهم لدرجة الذل ، متكبراً على الملوك والعظماء لحد التجبر ، حاد الذهن ، قوى الحجة ، نافذ النظر ، يجذب مخاطبه اليه ، ويرضخه لبرهانه ، ولو لم يكن ساطعاً ، له أسلوب خاص فى المقدمات تأتى نتائجها بكيفها ، عظيم النفس ، كبير الهمة ، محب لخير البشر ، يحمل كل من خاطبه على العظائم ، ويذلل لديه المصاعب ، صحيح العقيدة ، مؤمنـــــاً

---

* وقد عرف جمال الدين بكثرة أخذه بالقياسى ونفوره من التقيد بالسماعى وسيأتى فى غير هذا الموضع قوله يوماً • " سياسة بقروتية فى مملكة فرعونية " ولما قيل له فى ذلك قال : كيف صح قولهم ملكوت وجبروت هكذا يصح عندى " بقروت " والسلام •

بالالوهية ، شديد التمسك بحكمة الدين ، نفوراً من التقليد فى المذهب ، " مجتهداً " وله فى اجتهاده بعض الغرابة لمخالفته المألوف ، من جهة التفسير يقدم حيث يحجم الناس ، ويتكلم حيث يسكنون رغبة او رهبة ، متسرعاً ببادرات ذهنه ، وأكثر آرائه ، يتعذر غالباً إقناعه جلاً ، لاسلوبه الخاص فى إبطال الحجة عليه أو التخلص منها ، غير مكابر بالاجمال ، وكثيراً ما أعطى خصمه الحق ، بعد ان يفحمه ، وينبهه ويدله على ما أغفله من الحجج أثناء الجدل ، ولكن كان لا يخلو من الحدة لمزاجه العصبى •

رأيه فى المجلس النيابى :

قال جمال الدين مجاوياً : " ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية ، وإخلاص ، إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكن غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به لسموكن وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى إشراك الامة فى حكم البلاد على طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن الامة تسن القوانين ، وتنفذ باسمكم وبإرادتكم، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم " هذا أهم ما جرى فى هذه المقابلة آلتى كان بها سمو الخديوى غير راض وأسر فى نفسه البطش فى جمال الدين ولكن لم يظهر له شيئاً من ذلك •

خرج جمال الدين من مجلس سمو الخديوى ومضى إلى تنفيذ خطته فى المحفل الماسونى وأخذ يخطب خطباً تستفز الخامل وتوقظ الغافل وتصير الجبان شجاعاً ، والرعديد أسداً ضارياً ، وأشار على تلاميذه ومريديه بنشر الفصول الناطقة بالحقوق المهضومة لأهل البلاد من المصريين • وكان فى مقدمة كتب

الادباء السوريون وفى مقدمتهم المأسوف عليه (أديب بك اسحق [١])

وعلى أثر ذلك بدأت الحركة الفكرية الوطنية فى الظهور ، وأخذت الحكومة تحتاط لتلك الحركة ، وتجامل الوطنيين ، وتتقرب من الشعب بالمواعيد الحسنة ، وحسن النية ، من إنالتهم مجلساً نيابياً إذا هم حافظوا على السكينة ولم يفرطوا فى المطالب الوطنية .

فطلب الاحرار من جمال الدين أن يضع خطة للمجلس النيابى المصرى العتيد ، وبياناً واضحاً للشعب كى يسير بمقتضاه نحو انتخاب نوابه فقال :

أيها الاخوان : إن القوة النيابية لأى أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى إلا إذا كانت من نفسة الأمـة ، وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لهما ، فاعلموا أن حياة تلك القـوة النيابيـة الموهومة ، موقوفة على إرادة من أحدثها .

فعزة الملك ينتصها نهضة الشعب المملوك ، خصوصاً إذا هو صادم إرادة مالكه أو أميره ؛ والتاريخ لم ينقل لنا أن ملكاً أو أميراً أو دخيلاً بقوته على شعب، يرضى عن طيب خاطر أن يبقى مالكاً اسماً ، وأمتـه هى المالكة فعلاً ، وزمام أمورها على مطلق المعنى ؛ وأعظم أمانى الشعوب المملوكة ، التملص مـن رقـة الاجنبى وتحكمه .

ثم قال : سترون عما قريب إذا تشكل المجلس النيابى المصرى ، سيكون ولا شك بهيكله الظاهرى مشابهاً للمجالس النيابية الاوروبيـة ، بمعنى أن أقل مـا سيوجد فيه من الاحزاب ، حزب للشمال وحزب لليمين . ولسوف تـرون إذا تشكل مجلسكم ، أن حزب الشمال ل أثر له في ذلك المجلس ، لأن أقل مبادئه أن

---

(١) كان جمال الدين لآخر نسمة من حياته عند ذكر أديب بك اسحق يسترجع ويقـول : كان طراز العرب وزهرة الادب ، قضى نحبة في شرخ الشبيبة وعنوان الفتوة وترك لنا قلوبـاً أسفة وشجوناً فائضة انا لله وانا اليه راجعون .

يكون معارضاً للحكومة ، وحزب اليمين لن يكون من أعوانها •

قال : تستغربون قولي هذا اليوم ، لان ما نبحث فيه هو أمر تصوري لم يخرج لحيز العمل بعد ، ولكن متى رأيتم المجلس النيابي الموهوم تشكل ، ورأيتم كل عضو يفر من أن يكون في حزب الشمال (الناهض والمعارض للحكومة) فراره من الاسد إلى حزب اليمين " إذ ذاك تقولون : صدق جمال الدين " •

نعم أكون صدقت ، ولكن ليس لي في هذه الفراسة ، وفي صدق التصور التصديقي أدنى فضيلة ، إذا رجعتم وعلمتم ، أن المقدمات الصحيحة هي آلتي تنتج النتائج الصادقة • فمقداما مجلس نيابي ، قوته المحدثة له ، خارجة عن محيط الامة ؛ والمحدث له ، قوة خارجة عن الأمة ومجلسها ، يعارضها منافع متضادة ، وهدفان مختلفان ؛ فمثل هذا المجلس لا قيمة له ، وكما أنه لا يعيش طويلا كذلك لا يغني عن الأمة فتيلاً •

ثم قال ضاحكاً ضحكة متألم : سترون أن الذي سيكون نائباً عن شعب لا أعدد مصائبه ، ولا أنواع رزاياه ، لفقدان حريته بكل معناها ، هو الذي كان آلة صماء ، بيد تلك القوة آلتي عملت على وصلو وطنه ومواطنيه ، إلى ما وصلوا اليه •

تعرفونه اذا شئتم ان تتفكروا قليلاً • وإن شئتم وصفه فأنا أقول لكم :

نائبكم سيكون على مقتضى ما مر من مبينات مصركم في زمانكم هو : ذلك الوجيه الذي امتص مال الفلاح بكل مساعية ، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم أسقط منه همة ، ذلك الرجل الذي لا يعرف لايراد الحجة ، تجاه الحاكم الظالم معنىً ولو كانت من الحجج الساطعة ، ذلك الرجل يرى في إرادة القوة الحائرة ، كل خير وحكمة ! ويرى في كل دفاع عن وطنه ، ومناقشة للحساب ، قلة أدب ، وسوء تدبير!! وعدم حنكة وتهوراً ! وبالتالي يرى، ان كل صفات العزة النفسية ، والمقومات الاهلية القومية ، مآلها الويل والثبور •

وكل ما يدعو الى الذل ، واحتقار القومية ، وسحق ما تنو به حرية الأمة ، هو من مجالى حكمته العصرية !!

هذا مع الاسف الذى أراه سيتكون منه مجلسكم النيابى الموهوم - اذا صحت الاحلام - والذى سيخالف قاعدة كلية ، لقواعد فلسفة ، أقرب على أن الوجود خير من العدم ، فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده •

غرض جمال الدين الأسمى فى حياته :

قال : وأول نظرة نظرتها فى الكون وفشلت بها ، أننى وضعت الكرة الأرضية بين يدى ، وقستها ببعض الاجرام ، فرأيت منها ما يكبر الأرض ، بمئات الملايين من المرات ، ثم تمعنت فيما حوته من الحيوان الناطق (الإنسان) فوجدته لا يتجاوز الألف وخمسمائة مليون تقريباً ، وهو مقدار زهيد بالنسبة لسطح الأرض •

ثم افترضت ذلك الجرم الذى يكبر عن الأرض بمئتى مليون مرة ، وأن الرجل هناك يعيش ألف سنة ، وأن ذلك الرجل صاحب أراض واسعة فيه ، فتخيل لى أنه يملك من الأراضى ما مساحتها مساحة الكرة الأرضية ، وأن أولاد وأحفاد أحفاده ، من الممكن أن يبلغ عددهم ، إذا ازدوج بمئات من السناء مع طول العمر ، عدد أهل الأرض هذه ، أو ما يزيد • فإذا صح مع هذا الخيال ، أن تكون الأرض برمتها ملكاً لرجل ، فى قرية من جرم المريخ مثلاً ، ونسله عدد أهل الأرض ، هل يكون بين أهل تلك القرية الذين هم أبناء رجل واحد ، مثل ما هم عليه أهل هذه الكرة من الاختلافات ؟ !!

أجابنى الخيال : كلاّ ! بل يكون كل أهل القرية آمنين مطمئنين ، لا تحاسد بينهم ولا هم يحزنون ، يغرسون يزرعون ، ويجنون فيأكلون ، لا يعرفون للحرب معنى ، إذ لا ملك عليهم وليس بينهم أولى مطامع • ملك شاسع واسع ،

وخيرات مما يشتهون يعبدون مع أبيهم ، صاحب القرية إلهاً واحداً ، خالق الكل ومبدع الكائنات •

قال : ثم رجعت لأهل جرم الأرض ، وبحثت فى أهم ما فيه يختلفون فوجدته (الدين) فأخذت الأديان الثلاثة ، وبحثت فيها بحثاً دقيقاً مجرداً عن كل تقليد ، منصرفاً عن كل تقيد ، مطلقاً للعقل سراحه • فوجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان ، أن الأديان الثلاثة ، الموسوية والعيسوية ، والمحمدية ، على تمام الاتفاق فى المبدأ والغاية • وإذا نقص فى الواحدة شئ من أوامر الخير المطلق ، استكملته الثانية •

وإذا تقادم العهد على الخلق ، وتمادوا فى الطغيان ، أو أساءت الكهان فهم الناموس ، أو أنقصوا من جوهره ، أتاهم رسول بإرفاد وتأييد ، فأكمل لهم ما أنقصوه ، وأتم بذاته ما أهملوه •

وعلى هذا لاح لى بارق أمل كبير ، أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان فى جوهرها وأصلها وغايتها ، وأن بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطى نحو السلام خطوة كبيرة فى هذه الحياة القصيرة •

قال : وأخذت أضع لنظريتى هذه خططاً ، وأخط أسطراً ، وأحبر رسائل للدعوة ، كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكثب ، ولا تعمقت فى أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد ، وتفرقهم فرقاً ، وشيعاً وطوائف •

ولكن لما علمت أن دون اتحاد أهل الأديان ، تلك الهوات العميقة ، وأولئك المرازبة الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة " حانوت " وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة ، ورأس مال تلك التجارات ، ما أحدثوه من الاختلافات الدينية والطائفية والمذهبية ، على حد قول الشاعر :

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره   وقد فتحت لك الحانوت فى الدين
صيرت دينك شاهيناً تصيد به   وليس تفلح أصحاب الشواهين

علمت أن أى رجل يجسر على مقاومة التفرقة ، ونبذ الاختلاف ، إثارة أفكار الخلق ، بلزوم ائتلاف ، رجوعاً إلى أصول الدين الحقة ، فذلك الرجل هو هو يكون عندهم قاطع أرزاق المتجرين فى الدين ، وهو هو فى عرفهم ، الكافر الجاحد المارق ، المخرق المهرتق المفرق ... الخ .

ولما انتهى بى العلم إلى ذلك الحد ، انقلبت أفراحى بالخيال أتراحا ، ورجعت عن نظريتى ، والفشل ملء إهابى وجبتى .

ثم جمعت ما تفرق من الفكر ، ولممت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتنى الأفغان ، وهى أرض مس جسمى ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلى ، فإيران بحكم الجوار ، والروابط وإليها كنت صرفت بعض همتى ، فجزيرة العرب ، من حجاز مهبط الوحى ومشرق أنوار الحضارة ، ومن يمن وتبابعتها ، وأقيال حمير فيها ، ونجد ، وعراق ، وبغداد وهارونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها والاندلس وحمراؤها ، وهكذا كل صقع ودولة من دول الاسلام فى الشرق وما آل اليه أمرهم فيه اليوم .

فالشرق ! الشرق ! وقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض فى سبيل توحيد الكلمة فيه ، داء انقسام أهليه وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا ، ولا تقوم على هذا لقوم قائمة .

نعم عُرف جمال الدين بغرضه ، وسعيه الحثيث ، لجمع شتات أهل الشرق، وإيقاظ الهمم من أهله ، والاشراف بهم على الخطر الغربى ، المحدق بكياتهم ، والآخذ بخناقهم ، ليعملوا على جمع كلمتهم ، ويأخذ كل ملك ، أو أمير فى الشرق على ترقية شعبه وتحسين ملكه ، وتحصينه بالحكم الشورى الدستورى ، وتمكينه بما يربط الاقرب فالأقرب ، وتقويه بالتحالف والاتحاد حتى يرجع الكل ، إلى الانضواء تحت راية الخلافة العظمى .

هذا مختصر مرتئاه ، وكان لا يقنط من الوصول اليه ، بدليل سعيه المتواصل ، وتحمله أنواع المكاره ، والمصائب ، والنوائب ، فى سبيل ذلك المطلب •

نعم كان يراه بعيداً ، ولكن ما كان ليراه مستحيلاً ، بل رأيناه يستبشر بكل ضغط ، وعسفٍ ، وجور ، يحصل على الممالك الشرقية من الدول الغربية ، ويقول :

" بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة ، والأزمة تلد الهمة " ، وسيأتى تفصيل ذلك فى بحثه عن الانكليز ومصر •

رأيه فى الاحزاب السياسية فى الشرق :

قال : الاحزاب السياسية فى الشرق نعم الدواء ، ولكنها مع الأسف لا تلبث حتى تنقلب إلى بئس الداء •

نحسن نحن الشرقيون تأليف الأحزاب السياسية ، لطلب الحرية والاستقلال، وكل العالم لنا أصدقاء ، ونضطر لتركها والكل لنا أعداء •

والسبب العامل فى ذلك عدم التكافؤ فى القوى بين الأمة وأحزابها السياسية•

يقوم الحزب السياسى بعنصر ضعيف ، أو بأفراد قلائل ، بينهم اللسن والمحنك ، ويعلنون تفانيهم بخدمة الأمة لتحريرها من ربقة الاستعباد والاستبداد ، ويسرون خدمة أنفسهم • فتتألف على أهل الحزب القلوب وتجتمع حولهم الكلمة، بسوق الضرورة وداعى الحاجة ، ويستحسن عملهم الغريب ، ويهوسهم الدخيل ، شأن الحوادث المستجدة ، فى انقلاب الأمم من طور إلى طور •

فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب ، سعادة ورفاهاً وحريةً واستقلالاً ومساواةً على أوسع شكل قد لا يمكن حصوله فى البعيد الآجل ، فضلاً عن القريب العاجل • فيؤازرون الحزب بكل معانى الطاعة والانقياد والنصرة

والتضحية ... الخ فاذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة ، واستحكم له الامر ، ظهرت هنالك في رؤساء الاحزاب ، الأثرة والأنانية ، ومد حب الذات عنقه ، فتتقلص من القلوب تلك الطاعة وتنكمش النفوس عن ذلك الانقياد ، وتحصل بالنتيجة النفرة العامة ، فتضطر عندئذ لترك الحزب ، وينفرط بالطبيعة عقده ، والكل له أعداء .

وضرب لنا عدة أمثلة ، منها ما حصل في الأفغان وغيرها وما حصل في حوادث عرابي وحزبه في مصر ... ثم قال : لا ينبغي أن يؤخذ من قولي هذا أن لا فائدة من الأحزاب على مطلق الرأى والمعنى ، فـأن الشرق بعد أن أخنى عيه الدهر بكلكله ، ومرت عليه زلازل العسف والجور ، وأشكال الاستعباد حتى تأصل في نفوس أبنائه بذور الذل والاستكانة لكل قوى اكتسح بلاده ؛ إن هذا الشرق وهذا الشرقي لا يلبث طويلاً حتى يهب يوماً من رقاده ، ويمزق ما تقنع وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل ، فيأخذ في إعداد عدة الأمم الطالبة لاستقلالها ، المستكرة لاستبعادها .

على هذا الأساس الاجتماعي التدريجي ، لا مانع يمنع الشرقي من الانخراط في الحزب بعد الحزب ، ويقبل من المواعيد ما يصدق وما لا يصدق ، حتى يظهر في الشرق ما ظهر في الغرب من أفراد يرون الموت في حياة وطنهم مغنماً ، والحياة في موت وطنهم مغرماً .

حينئذ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذى هو نعم الدواء من داء استعباده ، فيجمع شتات أبنائه الذين كانوا أذلة ، ويصيرهم بنعمة الاخاء والاتحاد والتعاون أعزة، فيجمع شتات أبنائه كانوا أذلةً ، ويصيرهم بنعمةً الاخاء والاتحاد والتعاون أعزةً ، بلادهم لهم وهم لبلادهم نعم الامناء ، يعملون متضامنين على صالح مجموعهم ، ونصرة مظلومهم ، يأخذون ما لهم من حق ، ويؤدون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون .

رده على من زعم أن حكمته بلسانه أكثر مما هى من قلبه

خالف جمال الدين أهل عصره ، بكثير من الصفات ، ولو جاراهم وحاكاهم فى كل ما هم فيه من المزايا ، لما كان له تلك الميزة ، ولا نوه بذكره وحسب من كبير حكماء هذا العصر .

كان - كما ذكرنا - جهرياً ، متسرعاً ببادرات ذهنه وآرائه ، يجهر بها ولو كان بها كل خطر وضرر .

فزعم الكثيرون من مريديه أن حكمته بلسانه ، أكثر مما هى من قلبه وكاشفه بعضهم بقوله : لا أحد ينكر أن الاستاذ لم يقم نظيره فى عصرنا حكيماً اجتماعياً ، جاب البلاد ، وتحمل جفاء العباد ، لمطلبه الشريف ، وغرضه الأسمى ، ولكن نراه يقول من الحكمة مالا تنفع قائلها ، وتضر فى الغالب من قيلت له ، فيحمل سامعه على العظائم ، ويقتحمها مغرراً بنفسه من غير جدوى ، ذلك مما دلنا على أن حكمته بلسانه أكثر مما هى من قلبه .

فلم يرق لجمال الدين هذا القول ، وظهرت على وجهه علامات الغيظ وعدم الرضى فقال :

لا ينفع فى الشرق لسان ولا قلب ، طالما خلق المالك والمملوك ، الامير والصعلوك ، العالم والجاهل ، سواء فى العالم الصورى .

يرون فى الحقيقة مرارة ، وفى الوهم حلاوة ، وفى الذل الهناء ، وفى طلب العلى والعز الشقاء والعناء .

كل مسلم مريض ودواؤه فى القرآن وما على طالب الحكمة إلا أن يتدبر معانيه ، ويعمل بأحكامه .

فهل المسلمون اليوم عاملون بما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم أو مقتدون به كما اقتدى به الاصحاب أو التابعون .

لم تقولون إن محمداً لم يكن حكيماً حكمته من قلبه ، تلك الحجة الواهية لمرضاء القلوب ، وساقطي الهمم ، ومتكأ أهل الذل ٠

ياقوم إن محمداً جاء نبياً مرسلا ، وقبل النبوة كان أميناً صادقاً ، لم يقنع بأسود بيته ، مثل عمه حمزة ، وابن عمه على بن ابى طالب ، وأبطال قريش والأنصار ؛ أن يخوضوا وحدهم غمرات الموت فى الحروب لمن تحداهم وناهضهم من كفار قريش ، بل هو ، بذاته الكريمة ، وقدا أفرغ عليه الدروع ، وتقلد الصارم البتار ، واقتحم الوغى ، فتكسرت ثناياه وتخضب وجهه بالدم ، انتصاراً للحق ومقاومة للباطل ، علمكم بنفسه وأرشدكم بقوله وفعله ٠

أين المسلمون اليوم ، من شئ من هذا الاقدام وتلك الهمم ٠

واأسفاه !! بئس الخلف نحن ، ونعم السلف من قد سلف ٠ ترتعد فرائصكم إذا سمعتم ذكر ما أنتم فيه من غريب الذل ، خوفاً من أن تدعوا لنزع نيره عنكم، فترجعون إلى بارد القول ، وسفيه الرأى ، فتطلبون حكمة من قلب لا حكمة من لسان ، قتل من كان على هذه الشاكلة من إنسان ٠

فندم من تحرش بالسيد وعلم أن قوله الحق ٠

رأيه في مصر والمصريين وصورة الحكم الذى يجب أن تحكم فيه مصر خصوصاً والشرق عموماً :

كان جمال الدين محباً لمصر وللمصريين ، شديد الارتباط بهم ، كثير البحث فى القضية المصرية ، وما آل الأمر من سقوطها بين براثن بريطانيا ، ويذكر خطيئات للدولة العثمانية كان بالإمكان إذ ذاك تجنبها ٠ ويعد عدم إرسال الدولة جيشاً لتسكين فتنة عرابى من أكبر الهفوات ومن أعظم الأدلة على سفه السياسية والتفريط ٠

وكان يقول :

" كأن القوة الفرعونية أخذت على الدهر عهداً أن لا تبرح وادى النيل ، فكلما قضى فرعون تقمص بآخر ، وكلما انقرضت عائلة فرعونية ادعت إرثها عائلة ، وجاءت ولو من وراء البحار والتصقت بالنسب الفرعوني ولو بأقل مشابهة ، من خلق الغطرسة والتأله على الناس . وكثيراً ما كان يردد " باستخف قومه فأطاعوه " ... ويقول :

عجيب هو نصيب المنتصر لمصر والمصريين ، إذا مكث بين ظهرانيهم ، فموسى خرج منها خائفاً يترقب ، متهماً موشى به من مظلوم نصره على ظالمه. وفرعون معبود فيها ، ويوسف الصديق زُجّ في السجن متهماً وهو لم يأت الفاحشة.

نعم ، في النتيجة حصحص الحق وزهق الباطل . ولسوف تخلص مصر لأهلها إذا هم عملوا بالحزم ، وهيئوا ما يلزم من العزم ، وما يتطلبه حكم الذات من القوى . ولسوف يفعلون ذلك بعوامل الضغط ، والمسك بالخناق ؛ وإذا ما فعلوا واجتمعت الكلمة ، وتوحدت الأهواء نحو الغاية ، حصل البأس . وإذا لم يضعوا هذا البأس بينهم بسوق التحاسد ، أو بفعل الدسائس ؛ فل تم الأمر وفاز القوم ، ودخلوا في دور الحياة الصحيحة .

لا تحيى مصر ، ولا يحيى الشرق بدوله وإماراته ، إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلاً قوياً عادلاً ، [1] يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان. لأن بالقوة المطلقة الاستبداد ولا عدل إلا مع القوة المقيدة .

---

(١) قلنا إن المتداول بين الناس عن لسانك : " يحتاج الشرق الى مستبد عادل " قال هذا من قبيل جمع الأضداد وكيف يجتمع العدل والاستبداد ، وخير صفات الحاكم " القوة والعدل " ولا خير بالضعيف العادل كما أنه لا خير في القوى الظالم .

وحكم مصر بأهلها ، إنما أعني به ، الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح • ثم قال : إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب ، فأهم هذه الأشياء (الحرية) و (الاستقلال) • لأن الحرية الحقيقية ، لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر ؛ والاستقلال كذلك •

بل هاتان النعمتان ، إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم ، أخذاً بقوة واقتدار؛ يجبل التراب منها بدماء أبناء الأمة ، أولى النفوس الأبية ، والهمم العالية •

أما تغيير شكل الحكم المطلق ، بالشكل النيابي الشوري ، فهو أيسر مطلباً ، وأقرب منالاً ، إذ يكفي فيه أحياناً ، إرشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه ، فيفعله ويشرك معه أمته ورعيته ؛ ويرى بعد التجربة راحةً ، وتضامناً على سلامة ملكه ، وعزةً بالتفاف طبقات الرعية حول عرشه ، بقلوب خالصة مخلصة، وحب صميمي • فيكون للملك الدستوري عظمة الملك ، وعلى نواب الأمة أعباء نوائب المملكة ، ودرء المفاسد عنها ، والذود عن سلامتها ، بالأموال والأرواح •

ولكم رأينا من عقلاء الملوك من حكم عقله فأرشده إلى استبدال مطلق الملك، بالملك الشوري ، فاستراح وأراح •

وهذا هو الشكل من الحكم الذي يصلح لمصر ، ولدول ، وإمارات الاسلام في الشرق •

استنتاجه أن ترك الأثر مع التفريط في صون الملك وعدم حفظه أدعى للتأثر وليس فيه شئ من الفخر

قال : إن عدم ترك الأتراك أثراً بعد أن توغلوا في فتحهم لأوروبا ، ودخولهم " فينا " وتخليهم عن تلك الأمصار بدون آثار أدبية أو عمرانية لا يعد حطة ، كما أن بقاء آثار العرب في الاندلس لا يحسب لهم شرفاً ، بعد أن استؤصل ظلهم وزال ملكهم وانقرضت دولتهم ، بل في معتقدي أنه من أقدس وجيبات من استطاع أن يأتي بتلك الآثار ، وتجشم لابرازها وإبداها تلك المهالك

والاخطار والاموال ، أن يعد لحفظها فى حوزته وتحت سلطانه ما استطاع من قوة ، لا أن تبقى أثراً بعد عين .

والأثر فى مثل هذه الحال أدعى للحزن لانه أفصح من كل بلاغة على التفريط ، وأنطق على السفه وعدم الكفاءة من كل حجة وبرهان . بل أرى أن عدم ترك الأثر على هذا النمط أولى من تركه ، لعدم التأثر - وإن خالف هذا القياس بعض الاوروبيين .

فالافرنسيس مثلاً ، ألف مهرة كتبتهم شناعات الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠، وصوروا ضعفهم تجاه الالمان ، وعدم تدبرهم للأمور ، وهفوات قوادهم وأسباب خذلانهم ، وما أتاه عدوهم من الهوائم والتمثيل ، بصورة أفظع من أن يصورها العدو الالماني ، فهم يذكرون ذلك ليثأروا ولكن على اهتمام متواصل ، لترقى الأمة ، وإعداد ما يستطيعون من قوة .

وأما العرب والترك ففى كل فتوحاتهم ، سواء فيه من ترك آثاراً أو لم يترك، فقد تركوا من بعدهم خلفاً من الابناء يذكرون مجد الفتح ويفتخرون بأعمال آباءهم وأجدادهم . وعن إعداد القوة هم غافلون وعن واجباتهم لاهو وإن ذكرتهم لا يذكرون ، وإن أيقظتهم لا يفيقون ، بل هم فى غفلتهم راقدون ، وعلى القدر كل شئ يحيلون .

ولو عملوا بالقانون الإلهى ، وبقوله : "وأن ليس للانسان إلا ما سعى" لكان أوفر خيراً للامة ، و (السعى) أدل السبل على النجاح ، وأحسن ما تربى عليه الناشئة .

قوله فى تأثير آداب اللسان

قال : أما انتشار اللسان العربى فيما عدا بلادهم ، فليس للفاتحين أدنى دخل فيه ، ولا اتخذوا له أسباباً ووسائل ، بل إن ما وجد فى اللسان العربى من الآداب الباهرة ، والحكم والأمثال والمواعظ ، ذلك هو الذى أحله من الانتشار هذا المحل.

حتى أن العرب قبل الاسلام ، وهم فى تلك الحالة الجاهلية ، والبداوة المحضة ، وبعدهم عن كل حضارة ، كانوا يحلون بآداب لسانهم من أعظم الملوك مثل كسرى أنو شروان ، محلاً رفيعاً ، ويأخذون الجوائز ، ويثرون بتجارتهم مع الأعاجم ، بآداب لسانهم ، وما يجرى على ألسنتهم من الحكمة آلتي تأخذ بمجامع القلوب •

هكذا كان الذكاء العربى الفطرى المتوقد ، يناسبه سلاسة اللسان وأدبه • فكان إذا ظهر بين العرب حكيم طبيب مثل الحرث بن كلدة مثلاً استطاع بآداب اللسان وفرط الذكاء ، أن يقارع ويضارع أكبر حكيم من الفرس مع حضارته ومدينته • وكذلك الشاعر فى قبيلته إذا نبغ ولو كان وضيع النسب أجلته القبيلة ، واعتبرته حامى ذمارها بأدبه وشعره ، وأغنته بالمال والماشية •

وأما فى الحضارة الاسلامية وفى دولها ، فكثير ممن برع بالادب فأوصله إلى مرتبة الوزارة فالامارة ، وأما من أثرى بأخذ جوائز الخلفاء والملوك من الأدباء فلا يعدون كثرة •

هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادى ، وأما التأثير المعنوى فيكفى أنه من أكبر الجوامع آلتي تجمع الشتات ، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر • فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة ، وترقبت الفرص ونهضت بعد دهر فردت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها، والعامل فى ذلك إنما هو اللسان ، قبل كل ما سواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم ، وظلوا فى الاستعباد ما شاء الله •

فيما عرف عن جمال الدين من مزية الاقناع فى حالتى السلب والايجاب والسبب فى ذلك :

كان جمال الدين من أكابر علماء الكلام ، وإماماً فى المنطق يحب الجدل والحجاج وقد أحاط بضروب السفسطة ، ليسلم فى جدله م، شراكها ، قوى الحجة

كما ذكرنا . أوتى قوة الاقناع لدرجة يخال الانسان أنه قادر على الاقناع فى حالتى السلب والايجاب .

والسبب فى ذلك ، هو أن جمال الدين ، مع حكمته وسرعة خاطره وتوقد ذكائه ، وسعة اختباره للأخلاق البشرية ، وكثرة مخالطته الامم فى مختلف الاقاليم ، وحصول الملكة له فى وجوه المباحث التي كان يطرقها . فقد أحاط على وجه إجمالى بأخلاق العرب والترك والفرس والاوروبيين ، وعلم أشياء كثيرة عن مرامى القوم وحالاتهم الروحية ، وأعظم ما كان يحرص عليه فى تتبعاته أن يراقب حسنات كل قوم - ولو لم يكن يحبهم - ويحفظها فى ذاكرته ، كما يحفظ سيئاتهم وخطيئاتهم . وهكذا شأنه مع الافراد حتى مع خادمه ، فكان يرقب حركاته وأعماله فى كل يوم ، فاذا أخذ يذكر حسناته اعتقد السامع أنه الرجل الكامل ، ثم إذا أتى على ذكر سيئاته جعله أسفل وألام خلق الله .

وقد كثر ورود أمثال ذلك فى محاضرات جمال الدين ، ومحادثته وإقناعه مخاطبه فى حالتى الاستحسان والاستهجان للشخص الواحد والشئ الواحد ، حتى توهم البعض أنها من المواهب الخاصة لجمال الدين .

ولما ذكر له ذلك قال :

ليس فى الأمر شئ من المواهب ، إذ لك خط طرفان ، ولكل إنسان وجه وقفا ، وفيه صفات قبيحة ومزايا طيبة . والحكم على الاشخاص والاشياء إنما يختلف باختلاف الزمان والمكان والموقف ، ورغبة القائل .

أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يُربط أبو سفيان فى خطم الجبل لتمرّ عليه جيوش الله فاستحق هذا الاذلال فى ذلك الموقف ، ثم فى موضعه من قريش وأنه من كبارهم قال بحقه (إن كل الصيد فى جوف الفرا) ثم لما برز أبو دجانة لقتال كفار قريش ، وأخذ يتبختر قال صلى الله عليه وسلم : (مشية يكرهها الله إلاّ فى مثل هذا الموضع) .

وهكذا قال : (نعم الأدم الخل) تطييباً لقلب ذلك الصحابى الفقير الذى لا يملك سوى الخل ، فقدمه طعاماً فى دعوة رسول الله • وقال (بئس الأدم الخل) إذ قدمه ذلك الصحابى الموسر •

فكان اختلاف الحكم على الشئ الواحد ، لاختلاف الوضع والواضع • وهكذا يكون الحكم على ما يماثل ما ذكرنا من الأشخاص والأشياء •

ومن صفات جمال الدين أنه كان لا يغالى فى المدح ولا يسترسل فى الذم والقدح وله أسلوب كاد أن يكون خاصاً به •

مثال ذلك أنه فى مجلسه رجل من أرباب الصحف المشهورة فى مصر ، فأوسعه الحاضرون استحساناً واستهجاناً حتى انتهى الأمر لقول جمال الدين ليكون الفصل ، فما زاد على أن قال : (هو مثل الهر) ثم سكت فرضى بهذا القول المستحسن والمستهجن ، والمادح والقادح • ثم ما مضى وقت طويل حتى أفضى الحديث أيضاً إلى ذكر ذلك الرجل فأثنى جمال الدين على عصاميته ، وإقدامه ، وتمنى لو يكون بين المصريين والشرقيين عدة أفراد مثله •

فما وسع من كان حاضراً فى مجلس تمثيله فى الهر إلا أن قال : يا أستاذ فى الأمس هجوت الرجل واليوم أخذت فى مدحه •

فقال بماذا هجوته ؟ – فذكر عبارة الهر •

قال : نعم قلت ذلك وليس فى هذا التشبيه شئ من الهجو ، بل يجب ا، نكرم الهرة والهر ، فالرجل يطوف كالهر ليتقط الحوادث من منابعها ، فيكاشف بها الأمة ، ونعم ما تصف به وما يفعله •

ولقد جرى لجمال الدين بحث وجدل مع كبير من العلماء فى قول (ليس فى الامكان أبدع ممّا كان) فأخذ السيد الوجه السلبى وقال : نعم فى الامكان أبدع مما كان ، ها نحن اليوم نعجز بالعين المجردة عن رؤية الأشباح والأجرام البعيدة، ونستعين بالمجاهر والنظارات ، فلو كانت عدسات أعيننا أقوى ،

والانعكاسات النورانية أشد ، لكان ذلك أبدع مما نحن فيه من ضعف البصر وعدم رؤية البعيد.

فوقف الشيخ وظهر عليه العجز ، ولم يستطع لبرهان جمال اليدين رداً.

فلما انفضّ المجلس قال السيد لجلسائه : أخذ الشيخ بالسفسطة وغلب بها ، وكان الغلب له لو قال أن النظارات إنما فائدتها لرؤية البعيد فقط ، وأما إذا استخدمت للقريب فلا يمكن أن يُقرأ سطر ولا أن يُرى قريب .

وعلى هذا يكون الحق في جانب القول في الخلق (ليس في الامكان أبدع مما كان)

فيما سبق إليه العرب من العلوم والفنون

قال جمال اليدين : أخذ المنصفون اليوم من علماء الغرب بالاعتراف للعرب ببعض الفضل بما سبقوا إليه .

كالجبر : وهو من موضعات العرب وواضعه " ابو السمح " .

والجاذبية ، والمركز [1] لم يكن المكتشف لهما " إسحق نيوتون " مع الاعتراف بفضل الرجل .

وكذلك التحليل والتركيب [2] ، واكتشاف الفوسفور [3] واستحضاره

---

(١) اكتشفها ابو بكر بن بشرون من الجيل الثالث للهجرة ، وعرفها بقوله ، عند ذكر مركبات الكمياء " قوة حاسة قابضة منعكسة الى المركز الارض " !!

(٢) وكذلك التحليل والتركيب من مكتشفات ابن بشرون تلميذ أحمد بن مسلمة المجريطي الذي عاش في الجيل الثالث وذكر ذلك في رسالته لأبي السمح في الكيمياء الموجودة في مقدمة ابن خلدون تحت تعبير " الحل والعقد "

(٣) اكتشفه ابن بشرون كذلك في الجيل الثالث للهجرة ، والمؤرخ الالماني " هفر " في كتابه تاريخ الكيمياء يقول صراحة انه وجد في المكتبة الملوكية رسالة ترجمت الى اللاتيني ليشير من علماء العرب الموجود قبل أعصر يعرف استحضار الفوسفور من الادرار ويسميه " الياقوت الجمري الاصطناعي " .

واستحضار الاوكسجين من حجر المغنيسيا [1] ، ووصفهم لغاز الاوكسجين والدلالة عليه بخاصته أنه غاز حساس ، وكذلك الايدروجين وخاصيته وان الواحد منهما لحاسته يطفئ الأجسام الملتهبة ، ويصعد مرتفعاً ، والثانى يلهبها وهو نحط من الاول .

وحامض الآزوت [2] ، وحامض الكبريت [3] ، والكبريتى وغيرها من عمادات مباحث الكيمياء ، كل ذلك من مكتشفات العرب .

وكان الأساتذة فى علم الكيمياء للبجل الثالث للهجرة أحمد بن مسلمة المجريطى ، وتلميذه ابن بشرون ، وابى السمح وقد تقدمهم مثل جابر بن حيان الحرانى ، ومن بعدهم زكريا ابو بكر الرازى وغيرهم .

أدلة جمال الدين على أن الكيمياء قد تتم بالصناعة ، وتفنيده لأدلة ابن خلدون :

قيل لجمال الدين : إن المجريطى ، وتلميذه ابن بشرون ، وأبى السمح ورد ذكرهم فى مقدمة ابن خلدون فى بحث الكيمياء ، فما رأى الاستاذ فى هذه الصناعة ؟

قال : أما احمد بن مسلمة المجريطى ، وهو من انتهت اليه الرياسة فى مختلف العلوم فى الاندلس " فى الجيل الثالث لهجرة وما بعده " فما كتب فى قوله

---

(١) وهو من مكتشفات ابن بشرون وعرفه بخاصته فى الرسالة المار ذكرها لابى السمح وتعبيره عنها بروح حساسة أى غاز "

(٢) حامض الآزوت وهو من مكتشفات جابر بن حيان الكوفى ولم يستطع الغربيون إنكاره أو ادعاءهم لكتشافه . وجابر عاش فى الجيل الثانى للهجرة وفى العصر الثامن للميلاد يعنى قبل ألف وثمنية سنة تقريباً

(٣) اكتشفه ابو بكر محمد بن زكريا الرازى المولود فى مدينة (الرى) فى بلاد العجم سنة ٢٤٦ وتوفى سنة ٣٢٩ وعرف استحضاره وذكره فى كتابه (الحاوى) فى فن الكيمياء باسم (روح الزاج) وانه بتقطير (زاج قبرس) التى هى (كبريتيت الحديد) يستحصل حامض الكبريت الذى هو اهم الحوامض وألزمها وأنفعها فى الصنائع .

" إن الكيمياء ثمرة الحكمة " وأنها " تتم بالصناعة " أى يتم عمل المعادن الخسيسة، وترقيها للذهب ، أو الفضة (صناعة) •

أقول هذا لا تقليداً للطغرائى ، ولا لانى عانيت هذا الأمر ، أو أشير على أحد أن يعانيه ، أو يُولع به • وليس ذلك لاستحالته كما يتوهمون بل لعدم توفر أسبابه العلمية والفنية ، وعدم وجود الأستاذ فيه ، وشغف الخلق في معدن الذهب معلوم ، الأمر الذى يذهب معه كل عقل ودربة • فيحاول المولع ثمرة الحكمة بمحض الجهل ، والتخبط بتجارب وأمور لا تثمر الاّ الخيبة •

أمّا براهين ابن خلدون فى إنكاره على المجريطى وابن بشرون قولهما بصحة الكيمياء ، وموافقته لأستاذه " التليفى " وحكمهما باستحالة صحتها – الكيمياء – لم يكن بالاستناد منهما إلى علم ، بل جل برهان ابن خلدون وأستاذه ، أن رسالة ابن بشرون فى الكيمياء من قبيل الألغاز ، ومعانيها لا تكاد تبين !! مع أن الرسالة بكافة ألفاظها ومعانيها صناعية محضة ، وفنية صرفة • وعلم الكيمياء له اصطلاحات خاصة ، يفهمها من يعاني ويدرس ذلك العلم •

ولما كانت الكيمياء ثمرة الحكمة والعلم – كما صرح به المجريطى – كان فهم ما يكتب فى شأنها عويصاً يحتاج الى تحقيق فى النظر ، وممارسة فى العمل•

ولم يدّع ابن خلدون أو أستاذه التليفى أنهما عانيا هذا الفن ولا هما فنّدا ما ورد فى الرسالة عن طريق علمية ، أو أتيا بالحجج والبرهان • بل غاية ما قالاه كما سبق " أن الرسالة لما كانت من قبيل الألغاز أو لا تكاد تبين فهى إذاً لا تتم – يعنى الكيمياء– الأ بالسحر أو بإرفاد مما فوق الطبيعة) •

مع أن الرسالة كما قدمنا ، صناعية فنية صرفة ، تنطبق فى معانيها على فن الكيمياء الحديث ، المأخوذ بدون شك عن جهابذة العرب ، أولئك الأعلام الذين وصلوا من كل فن إلى الغاية منه خصوصاً فيما نحن فى صدده " الكيمياء"•

ولابد أن يأتى زمن ، إن دام الحال على هذا المنوال ، من البحث والتنقيب والتجربة ، أن يتوصلوا إلى فهم حقائق هذا الفن الجليل واقتطاف ثمراته •

قلنا ان علم الكيمياء قد أخذه الأوروبيون عن العرب بشكل ناقص لغريب اصطلاحاتهم فيه ، والتزامهم التعمية بأكثر مباحثه ، لانه لم يكن قصدهم منه ترقية الصناعة ، وإيجاد الاصباغ والاجزاء الكيماوية على نحو ما فعل الاوربيون بعلم الكيمياء ، بل كان غرضهم (العرب) عمل الذهب بالصناعة ، ومع كون أوروبا لم تعتن ولم تهتم الا بقشور ذلك العلم وهى مقدمات لنتيجة ، فقد قامت تلك القشور لدى الغربيين مقام تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب بدليل ما انتفعوا بها فى شعبات الصنائع والتجارة •

ثم إن ابن بشرون – فى رسالته لأبى السمح – قد دل بإشارة ، وبتعبير خاص على المادة آلتي يمكن بها العمل – وهى ما يسمونه باصطلاحهم (الحجر الفلسفى ، أو المكرم ، أو حجر الحكمة) – وأنصف كل الانصاف بقوله " إن معرفة المادة وحدها لاتفى بالغرض المقصود ، ولا تثمر إذا لم يتمكن طالب ذلك العلم من معرفة عمادات تلك الصنعة ، ومنها التحليل والتركيب " ، هذه الصراحة فى اساس فن الكيمياء وجدت مسطّرة فى رسالة ابن بشرون العربى قبل الجيل الثالث للهجرة وبعده ؛ وعلماء اوروبا يدعون بدون محاشاة أو مبالاة ، أن المعلم لافوازيه ، هو أول من تنبه فأثبت التحليل والتركيب !

نعم إن ابن بشرون لم يذكر بلسانه العربى لفظه " تحليل " و " تركيب " بل قال " الحل و " العقد " ، وهو الأصح فناً وفهماً •

ثم ذكر ابن بشرون بعد الحل والعقد ، عماداً آخر ، وهو " التقليب " وفسره بقوله تقليب الشئ من جوهره إلى جوهر غيره ارتقاء – قال فالتراب يستحيل نباتاً ، والنبات حيواناً ، وإن أرفع مواليد النبات أدنى طبقات الحيوان ••• سلسلة تنتهى عند الانسان إذ هو آخر الاستحالات الثلاثة ونهايتها الخ " •

وقد ذكر فى معرض التحليل والتركيب أو الحل والعقد قائلاً : اننا لو أخذنا مادة مركبة وحللناها ثم أعدنا تركيبها ، وهو ما يسمى اليوم فى علم الكيمياء الحديث " أصول سانتاز " يستحيل أن ترجع تلك المادة إلى ما منه تركبت ، لتبادل أجزائها الفردية ، واتحادها مع بعضها على القانون الفنى ، الذى كان بلا ريب معروفاً عند علماء العرب .

وقد صرح ابن بشرون أيضاً بإمكان حصول جسم مستقيم معتدل بالتفاعل الكيماوى طبعاً . وهذا هو المفهوم اليوم عند من درس مقدمات الكيمياء ، وعلم أن الأسس مثل " البوتاس " مثلاً ، إذا تعامل مع حامض الأزوت فعلى التدريج تذهب خاصة الأساس وخاصة الحامض ، ويحصل هناك جسم معتدل ليس هو بالأساس ولا بالحامض ويسمونه " ازوتيت البوتاس " لا يؤثر على الترنسول ، ولا على ما هو أشد منه إحساساً .

هذا نوع من أنواع ما يسميه علماء العرب الاقدمون " التقليب " فمن لم يدرس ذلك الفن ، ويعلم أصوله ، ويتوهم لا شك كما توهم بعض المغاربة الطوافين فى الأرض ، الذين يموهون على السذج من الخلق (بعلم الكيمياء) ويفهمونهم أن " التقليب " عبارة عن قص أوراق على شكل الدينار والدمدمة عليها، وحرق البخور والعزائم ، فتنقلب الورقة ديناراً !!

فأين هذا من أقوال ومقاصد ابن بشرون ، وأستاذه المجريطى ، اللذان وصلا بلا ريب إلى الغاية ، والثمرة المطلوبة من هذا الفن .

ثم ذكر بعد التقليب ، عماداً آخر هو " التنشيف " . وهذا العماد غاية فى الأهمية ، ويكفى أنه لا يتم الأمر بدونه مع استكمال شروط العمادات الأخر .

وقد ثبت فى الفن الحاضر أن التنشيف أو التجفيف ، على أنواع :

فمن المواد ما يسمونها صابونية لا يمكن تنشيفها بالهواء ، ولا بالشمس ، ولا الحرارة ، لانها لو وضعت على حرارة مهما كانت درجتها خفيفة ، أو

معتدلة ، أو شديدة – وهى تحت تماس الهواء – فلا تجف ، لتواصل امتصاصها ما فى الهواء من الماء .

فلذلك يرلجعون فىمعالجتها أنواعاً كثيرة من أصول التجفيف ، أو التنشيف.

منها ما يضعونه فى ناقوس من زجاج ضمنه حوض فيه حامض الكبريت الصرف ، وفوق الحوض أو الإناء تلك المادة آلتي يراد تنشيفها ، فتوضع على لوح من زجاج تطلى أطرافه بمادة لزجة يوضع عليها الناقوس لمنع الهواء من الخارج وبتلك الطريقة يمتص حامض الكبريت ماء الهواء ورطوبته ، لشدة حرصه على الماء ، وبالتالى يمتص ما فى المادة من ماء ورطوبة ، فيحصل تجفيفها .

والنوع الثانى للتجفيف : وهو وضع المادة تحت مخلية الهواء وتوالى استعمالها حتى تجف وتنشف .

والنوع الاخير وهو لم يذكر فيما طالعته من كتب الكيمياء الحديثة ، وإنما وجدته فى كتب القوم – أي علماء العرب – وكان ذكرهم له من قبيل الشارة إذ قالوا بعد البحث فيما الحرارة والرودة من التأثير ، ذلك البحث الدقيق – بقولهم " مادة (١) حساسة "استحضارها يكون من برادة النحاس بعد إخراج سواده حتى يصير نحاسياً ، ومعاملته بحامض الكبريت (الزاج) الخ .

ولا نرى هذا الوصف ينطبق على غير الحامض الكبريتى الذى يعمل بواسطته الثلج اليوم لشده برودته بتبخره السريع .

---

(١) كذلك فى رسالة أبى بكر بن بشرون لابى السمح فى مقدمة ابن خلدون فى علم (الكيمياء)

ثم ذكر من العمادات " التنقية " لمنع المادة من الفساد وتطهيرها من دنسها . وإخراج آفتها منها .

وهذا معروف بالفن الحاضر " بالتطهير " ومواد التطهير كثيرة - منها الكحول الصرف والأوكسجين " مولد الحموضة " وقد رجحوه على الكلور لحفظه المادة العضوية من غير تخريب ، ويفيد بالتبييض أكثر من فائدة الكبريت أيضاً .

ثم ذكر " التكليس " في عداد العمادات المهمة ، فمن التكليس ما يتم بالاحتراق تحت تضييق الهواء النسيمي ومنه ما يحصل بتفاعل الحوامض الخ .

فمن هذا كله نعلم أن علم الكيمياء لا يمكن الحصول عليه إلا بالتعلم الصحيح ، والنظر الدقيق ، والتجارب المتمادية عند فقد الأستاذ ، وبالاجمال فالكيمياء صنعة من أدق الصنائع ، وفن من أجل الفنون ، ولا ريب أنه ثمرة العلم والحكمة - كما قالوا حقاً - .

إن ابن مسلمة المجريطي ، وتلميذه أبا بكر بن بشرون قد صرحا بأن معرفة الحجر ، أو المادة آلتي يمكن العمل بها غير كاف وحده إذا لم تكن المعرفة تامة بتلك العمادات آلتي هي روح تلك الصناعة .

وابن خلدون لم يدّعِ ، ولم يقل إنه عثر على المادة ، وأتقن هذه العمادات " كما سبق القول " بحسب الأصول الفنية ، وأنه جربها على ما يتطلبه العلم ولم " ينجح " ليصبح إذ ذاك إنكاره ، ويكون قوله حجة على إبطالها ، وإخراجها من عداد الصناعات وأنها لا تتم إلاّ بالسحر ، أو بإرفاد بعالم مما فوق الطبيعة أو بالنفوس الخيرّة أو الشريرة ، وما كانت حجته على هذا القول إلا أنه وجدا الرسالة من قبيل الالغاز كما ذكره وهكذا وافقه أستاذه التلفيقي وليس هلما من برهان غير أنهما وجدا معانيها " لا تكاد تبين "

فيا ترى لو أخذ ابن خلدون أو أستاذه التلفيقي كتاب الكيمياء الحديث اليوم ورأى (ك ١/٤) وان تلك معناه حامض الكبريت أو (ذي٢ ك) انه كبريت الزيبق ، وهو لم يدرسه أو يعاني ذلك الفن ، أو يأخذه عن أهله بالتعلم . لا شك

كان ينكر ذلك ويقول أنه ليس بعلم . بل أحاجى وألغاز وأضاليل بحروف مقطعة وأرقام ، أو كان يقول إنها من قبيل السحر لأنها لم تبن له واضحة ، ولا لأستاذه التلفيفى كما تظهر بسائط الأمور .

ثم إن ابن خلدون قد صدّق بحالومية أحمد بن مسلمة المجريطى وهى :

" طماغس بعد ان يسواد وغداس توقنا غادس " - وقال : إن تلك الكلمات والأسماء الاعجمية ، إذا تلاها الإنسان قبل النوم ، بعد رياضة وصدق توجه ، فإنه يرى بها ما يحب أن يراه مما تتوق نفسه لمعرفته .

وقال ابن خلدون أيضاً " أنه بها مراءٍ غريبة كانت نفسه تتشوق للوقوف عليها " - وبالنتيجة - قد قال بصحتها " وأن التجربة قد أثبتتها إلخ " مع أن تلك " الحالومية " لا تنطبق على علم بأصول ، ولا على فن يحصل بالمزاولة ، والممارسة ، أو ما يقوم عليها برهان عقلى .

من الغريب أن يصدق ابن خلدون مثل هذه الحالومية - وربما يكون تصديقة حقاً - وينكر علماً مثل الكيمياء الذى لم يعان أمره واصطلاحاته ، مع اعترافه بأن الكيمياء صناعة غريبة المنحى ، بعيدة التناول عن جيل البداوة ، مفتقرة إلى صحة النظر ، والتدقيق فى علوم من تقدم من اليونان القدماء ، والكلدانيين قبل جابر بن حيان الحرانى .

ثم قال جمال الدين : هذا ما رآه ابن خلدون ، وهذا ما ارتأيته فى هذا المطلب .

ولا يصح أن يرتاب المنصف بأن ابن خلدون من مفاخر الأمة ، وأنه أغزر العلماء مادةً وأدقهم نظراً ، وأصحهم قياساً ، وانفاهم للخرافات عن الدين ، وأسرعهم أخذاً بالمعقول ، وأكثرهم رداً للباطل من القول ، وأبعدهم عن التقيد بالمألوف عن غير علم بالفائدة ، وبالاجمال ، فالعالم عالة على فضل ابن خلدون فى حكمة التاريخ إذ هو الواضع لها ولا منازع .

إنكار جمال الدين على من يقول بسد باب الاجتهاد :

عرف جمال الدين باستنكافه ، ونفوره من التقليد من غير تمحيص ، فكان يأخذ بالأحسن من الأقوال ، ويرد الضعيف منها ، ويجتهد للاستنباط للأولى ، ويتناول الأقرب للصواب ، وما يقبله العقل .

ذكروا يوماً فى مجلس جمال الدين قولاً للقاضى عياض ، واتخذوه حجة واشتد عمسكهم بذلك القول حتى أنزلوه منزلة الوحى بأنه لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من أمامه – فقال جمال الدين : ياسبحان الله إن القاضى عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله ، وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه ، وأصح من قول القاضى عياض أو غيره من الائمة ؟

وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس ، هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم ، قد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا وقالوا ، وأدلوا دلوهم فى الدلاء فى ذلك البحر المحيط منه العلم ، وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم ، وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان .

فقيل : يفهم من قول الأستاذ أن القاضى عياض أو من تقدمه من الأئمة إذا قالوا قولاً جاز لمن بعدهم أن يقول ما يتراءى له سواء أكان مخالفاً أو موافقاً ، ولا يخفى أن مثل هذا القول يحتاج إلى الاجتهاد ، وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود ، لتعذر شروطه .

فتنفس جمال الدين الصعداء وقال :

ما معنى باب الاجتهاد مسدود؟! وبأىّ نص سدّ باب الاجتهاد ؟! أو أىّ إمام قال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه بالدين ؟ ! أو أن يهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث ، أو أن يجدّ لتوسيع مفهومه منهما ، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية ، وحاجيات الزمان وأحكامه ؟!!! ولا ينافى جوهر النص .

إن الله بعث محمداً رسولاً بلسان قومه " العربى " ليفهمهم ما يريد إفهامهم – وليفهموا منه ما يقوله لهم (وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه) وقال :

(إنّا أنزلناه قُرآنا عربياً لعلكم تعقلون) وفى مكان آخر (إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون) .

فالقرآن ما أُنزل ألاّ ليفهم ، ولكى يعمل الانسان بعقله لتدبر معانيه وفهم أحكامه والمراد منها .

فمن كان عالماً باللسان العربى ، وعاقلاً غير مجنون ، عارفاً بسيرة السلف، وما كان من طرق الإجماع ، وما كان من الأحكام مطبقاً على النص مباشرة أو على وجه القياس ، وصحيح الحديث ، جاز له النظر فى أحكام القرآن ، وتمعنها والتدقيق فيها ، واستنباط الأحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس .

ثم قال : لا أرتاب بأنه لو فسح فى أجل أبى حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وعاشوا إلى اليوم ، لداموا مجدين ، مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكماً من القرآن والحديث ، ولكما زاد تعمقهم تمعنهم ، ازدادوا فهماً وتدقيقاً .

نعم إن أولئك الفحول من الائمة ورجال الأمة ، اجتهدوا وأحسنوا " جزاهم الله عن الأمة خيراً " ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، أو تمكنوا من تدوينها فى كتبهم ، والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر وتحقيقهم واجتهادهم ، إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم ، والحديث الصحيح من السنن والتوضيح إلاّ كقطرة من بحر ، أو ثانية من دهر " والفضل بيد الله يُؤتيه من يشاء من عباده " وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

نفور جمال الدين من قول سنى وشيعى ، وان لا موجب لهذه التفرقة آلتي أحدثتها مطامع الملوك لجهل الأمة :

قال : ظهر لآل البيت النبويّ فى أوقات وأزمنة مختلفة ، أحزاب وشيع ، فمنهم من ضل " كالمؤلهة " وهم من يقولون بألوهية على بن أبى طالب ، ومنهم " المفضلة " و " الغلاة " فى محبة أهل البيت ، وقد دخل الاثنان تحت حكم من قال " يهلك فينا أهلَ البيت اثنان : محب غالٍ وعدو قالٍ "

أما المفضلة من الشيعة وهم يقلدون فى المذهب الإمام جعفر الصادق وهو من أكابر فقهاء أهل البيت ، فهذا الجمهور من المسلمين لمجرد تقليدهم للامام جعفر ، ومَغالاتهم فى حب الآل ، وتفضيلهم للامام علىّ ، لا يجب أن نخرجهم من عداد المسلمين ، ونجسم أمر هذه الفروق فى الفروع ، ونجعلها واسطة للتفرقة وللنزاع ، فللخصام فللاقتتال ، تلك الامور آلتي سهل وجودَها جهلُ الأمة، وسفه الملوك الطامعين فى توسيع ممالكهم •

فالملوك من السنيين هوّلوا ، وأعظموا أمر الشيعة لاستهواء العوام بأوهام غريبة ، وعزويات عجيبة على شيعة أهل البيت ليتسنى لهم بذلك تخريب الاحزاب وتجييش الجيوش ليقتل المسلمون بعضهم بعضاً ، بحجة الشيعة والسنية، وجميعهم يؤمنون بالقرآن وبرسالة محمد صلّى اللّه عليه وعلى آله •

أما مشألة تفضيل الامام علىّ، والانتصار له يوم قتال معاوية ، وخروجه عليه ، فلو سلمنا أنه كان فى ذلك الزمن مفيداً ، أو ينتظر من ورائه نفع لإحقاق حق أو أو إزهاق باطلٍ ، فاليوم نرى أن بقاء هذه النعرة ، والتمسك بهذه القضية آلتي مضى أمرها وانقضى مع أمةٍ قد خلت ، ليس فيها إلاّ محض الضرر ، وتكيك عرى الوحدة الاسلامية •

ثم قال : لو أجمع أهل السنة اليوم ووافقوا المفضلة من الشيعة - من عرب، وعجم - وأقرّوا ، وسلموا بأن علىّ بن أبى طالب كان أولى بتولى الخلافة قبل أبى بكر • فهل ترتقى بذلك العجم ؟! أو تتحسن حال الشيعة ؟! أو لو وافقت الشيعة أهل السنة ، بأن أبا بكر تولّى الخلافة قبل الامام على بحق ، فهل ينهض

ذلك بالمسلمين السنيين ، وينتشلهم مما وقعوا فيه اليوم من الذل ، والهوان ، وعدم حفظ الكيان ؟ !! •

أما آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة ؟! ومن هذا الموت قبل الموت ؟!

يا قوم ! - وعزة الحق - إن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب لا يرضى عن العجم ، ولا عن عموم أهل الشيعة إذا هم قاتلوا أهل السنة ، أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبي بكر ؛ وجميعهم لا يحسنون أمر دنياهم ، " والناس أبناء ما يحسنون "

وكذلك أبو بكر ، فلا يرضيه أن تدافع أهل السنة عنه ، وأن تقاتل الشيعة لأجل تلك الأفضلية آلتي مرّ زمنها ، والتي تخالف روح القرآن الآمر أن يكونوا " كالبنيان المرصوص " •

أما قضية التفضيل فلو استحقت البحث بعد تلك الاجيال لكفى أن يقال لحل إشكالها " أن أقصر الخلفاء الراشدين عُمراً تولى الخلافة قبل أطولهم عُمراً "

فلو تولى الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم عليّ بن ابي طالب ، لمات ابو بكر وعثمان ، ولم يتيسر لهم خدمة الاسلام والمسلمين ، بما استطاعوا ان يخدموه به ، رضوان الله عليهم أجمعين ، حكمة الله في خلقه ، (وإن أكرمكم عند الله أتقاكم) •

رأيه في الاديان الثلاثة وأنها متفقة في المبدأ :

الناس تجاه الأديان الثلاثة : الموسوية ، والعيسوية ، والمحمدية ، وكتبها ، لابد أن يكونوا أحد رجلين ، أما رجلٌ يعتقد أن رجال الأديان الثلاثة قد أرسلهم الله ، وأوحى اليهم بالتوراة ، والانجيل ، والقرآن ، والقصد من إرسالهم أرشاد الخلق إلى الحق ، وإراءتهم الصراط المستقيم الامور التعبدية • ومن بيان الحلال والحرام ، وصون مصالح العباد بما شرعه لهم من الشريعة ، وإلزامهم العمل

بها، وبالاجمال ، وبيان مشيئة اللّه بما يريده من خلقه ، وما يريد أن تكون خليقته عليه •

وعلى هذا فلا يمكن ا، يكون قصد اللّه إلا واحداً ، ومشيئته إلا واحدة ، وكتب الوحي وما أنزله على الرسل ، لابدَّ وأن تكون متفقة في المقصد والغاية ، ولا يصح التباين في جوهرها ، ولا أن تخالف بعضها بعضاً •

فلننظر الى الأمر الرئيسي الذى جاء في التوارة من أمر العبادة ، وما أراده اللّه من عباده هناك ، فنرى أن اللّه قد نادى موسى من جانب الطور وكلمه قائلاً: إنى أنا اللّه لا رب سواى فاعبدنى أنت وبنو إسرائيل ، ومختصر ما ورد فيها أن طاعة اللّه وعبادته ، والعمل بما يبلغه الرسول – كل ذلك له في الآخرة ثواب ، وسعادة سرمدية ، فضلاً عن عاجلة الدنيا •

والانسان بسوق الحب الذاتى ، لا يريد ، ولا يحب أن يعتقد أنه سيذهب سدىً بعد الموت – لأن الاعتقاد بذلك مزعج للنفس ، مقبض للروح – يرجو بعد الفناء الظاهرى أن يبعث ، ويكون له معاداً ، وأن يحيى حياة أبدية •

ثم لننظر ما جاء في الانجيل ، وما قاله المسيح " فنرى أنه قال : " ربما معناه – أعطيتنى سلطاناً على كل جسدٍ لأعطى حياة أبدية لكل من أعطيته وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفون أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته " •

فالعيسوية هى ناموس جاء متمماً مكملاً لما قبله من التوارة – كما قال المسيح " جئت لأتمم الناموس " لا لأنقضه " •• الخ •

ثم أذا نظرنا الى المحمدية – نرى القرآن مشحوناً بتوحيد اللّه ، ولزوم طاعته وعبادته ؛ بقوله : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ، قل إنى أمرت أن أعبد الله) ، (ولا أشرك بـه أحداً ••) و (الحمد للّه رب العالمين •••" و (إياك نعبد وإياك نستعين) و •••

هكذا ترى الاديان الثلاثة متفقة فى الامور التعبدية بلا أدنى تباين أو تخالف.

ثم ننظر فى المعاملات ، وما أجيز منها فى تلك الأديان ، وما نهى عنه فيها. نرى أن ما جاء به موسى ، أو ما أمره الله به من الوصايا ، قد عمل بها المسيح ، ولم ينقض او ينقص منها شيئاً . وكذلك محمد فانه جاء مصدقاً لما بين يديه من التوارة والانجيل .

قلنا : إن الناس تجاه الاديان الثلاثة وكتبها ، أحد رجلين : رجل يعتقد بالوحى ويؤمن بالانبياء والرسل ، ورجل يجحد الوحى ولا يؤمن بالانبياء ولا بارسالهم من عند الله .

أما الرجل المؤمن ، فقد بحث ودقق ، وطبق كتب الاديان الثلاثة على بعضها كما مرّ ، فلم يجد فيها أقل تباين ، بل وجدها متفقة فى المقصد والغاية .

واما الرجل الكافر ومنكر الوحى ، فيقول : ان الكون مع حوادثه من حيث حقيقتهما ليس فيهما شئ جديد . وما نراه جديداً ، فانما هو فى شكل الابراز ، وصورة الالقاء والتلقى . فيأتى فى قرن من القرون ، أولوا بصيرة ولبّ ودهاء، فيعلمّون تعليماً بشكل خاص ، وصور معلومة عندهم ، تأخذ من نفوس الخلق كل مأخذ ، ويتعبد لها إذا وضعت فى شكل تعبدى ، أو يعمل بها إذا أفرغت فى قالب تعليمى .

فالتعليم بتوحيد الله وتقديسه معروف عند قدماء المصريين قبل موسى بأجيال . والتثليث من تعاليم الوثنيين وقد قال به فيثاغوروس الفيلسوف اليونانى قبل المسيح بخمسمائة عام . وان موسى وعيسى محمداً ، هم رجال عقلاء حكماء امتازوا عن وسطهم ، وجمعوا من معتقدات الأقدمين قواعد وأقوالاً ، وضعوها فى كتب ، لا يعقل ان تكون من إله السماء .

ويقول ذلك المنكر ، إنه لو سلمنا أن فى كتب الاديان شيئاً عن النفع ، فهو لا يوازى مضار ما نراه بين أهل الدين نفسه والاديان ، من الاختلاف والتنافر

والمشاحنة والبغضاء • ولو كانت من الاله حقيقة ، لجعلهم ان يتفقوا عليها ولا يختلفوا ، ثم يستحيل ان يكون فيها ما يرى من الخرافات ••• الخ •

قال جمال الدين : هذا غاية ما عند الجاحد المنكر من القول والجحاج •

والمطلوب منه فى موضوعنا هنا ، ليس الايمان بالوحى وبالانبياء ، بل إذا كانت كتب الأديان الثلاثة متفقة بالتعاليم الجوهرية ، وفى المقصد والغاية ، أم لا؟

أما اتفاقها ، وعدم تخالفها فقد ثبت ، ولا يستطيع أحد جحوده ، وإنكاره • وأما يراه المنكر ، ونراه نحن أيضاً ، من اختلاف أهل الأديان ، فليس هو من تعاليمها ، ولا أثر له فى كتبها ، وإنما هو صنع رؤساء أولئك الاديان الذين يتّجرون بالدين ، ويشترون بآياته ثمناً قليلاً ساء ما يفعلون •

رؤساء الاديان ، وما أنفعهم إذا اصلحوا ، وما أضرهم إذا افسدوا •

فالاديان فى أصلها وجوهرها " وازع عظيم ، ودواء نافع مفيد لكثير من أمراض البشر " هذا إذا أحسن الاطباء – وهم هنا رؤساء الاديان – عدم خلط ذلك الدواء ، بالضار من الاجزاء ، وراعوا قابلية العقلو قبل الاجسام ، وأعطوه منه بقدر معلوم ، بقول مفهوم ، وبيان معقول •

قال : سألنى أحد نواب الهند عن أشياء يعتبرها شبهات ، كادت أن تخل فى عقيدته الاسلامية ، وتريبه فى إنزال الكتاب ، أهمها : إذا كان القرآن كلام الله وقوله " ودين الحقّ ليظهره على الدينِ كلهَ ولو كرهَ المشركون " حقاً •

فلمَ الاسلام فى هذا العصر فى أعظم دركات التقهقر والانحطاط ، وعلى خلاف صراحة الآية • وأطال فى القول حتى إذا انتهى ، قلت له :

اعلم أن كل دين يجب أن يكون حقاً • فالاسلام اسم ومسماه الحق • فلو أتاك رجل اسمه " عالم " وهو فى حقيقته جاهل ، هل تنكر لمرجد الاسم وعدم انطباقه ، فضل المسى ، وتقول لان اسم هذا الرجل " عالم وهو جاهل " ، إذاً لافضيلة العلم •

ولو أتتك الملايين باسم الاسلام ، كما هو الحال فى هذا العصر ، وهم لم يقوموا بحق المسمى من الحق ، هل ينبغى لمجرد مخالفة الاسم أن ينكر فضل المسمى ، وهو حقيقة " الاسلام " كلا .

لذلك قال الله تعالى " ودينِ الحق ليظهرَه .. الآية "

ولم يقل : ومن تسمى بدين الاسلام ليظهره .. الخ . على أن الاسلام ، ومن دان به من المسلمين لما عملوا بحق الدين ، ظهروا ظهوراً طبّق الأرض نوراً ، وملأها عدلا .

فالظهور للحق وللحقيقة ، وليس للاسلام اسماً مجرداً . وما تراه اليوم فى المسلمين من التقهقر ليس من حقيقة دين الاسلام بل من جهل المسلمين " حقيقة الدين " . وفي هذة الآية (ودينِ الحق ليظهرَه على الدين كله) ما يفهمنا أن هناك " كل " من " بعض " .

فالأديان فى مجموعها هى " الكل " وأجزاؤها " الموسوية " " والعيسوية " والاسلام " . فمن كان من هذه الاديان كلها على الحق فهو الذى يتم له " الظهور والغلبة " .

لأن الظهور الموعود به الدين أنما هو " دين الحق " كما قلنا وليس دين اليهود ، ولا النصارى ، ولا الاسلام اذا بقوا أسماء مجردة ، ولكن من عمل من هؤلاء بالحق فهناك " الدين الخالص " .

قال الله تعالى " إنا أنزلنا أليك الكتاب بالحق فاعبد اللّه للدين الخالص .. الآية " .

المسألة الشرقية وموتناه في حلها ، وتبجيله لفكرة السلطان محمد الفاتح ، والسطان سليم باتخاذ اللسان العربي لساناً رسمياً والأخذ بتعميمه

مختصر المسألة الشرقية ، هي عراك بين الغربي والشرقي ، وقد لبس كل منهما لصاحبه درعاً من الدين . فالغربي تذرع بالنصرانية ، والشرقي بالاسلامية . وأهل الديانتين كالآلة الصماء بأيدي محركيهما .

فالقائمون بالنصرانية يسخّرون الدين لأجل الدنيا ، ويحسنون أمر دنياهم وما تتطلبه مظاهر الحياة . والعاملون بالاسلامية يسخّرون الدنيا لأجل الدين ، وإذا هم لم يعملوا بأحكامه يخسرون الدين والدنيا معاً .

إن فتح القسطنطينية – تلك العاصمة الصماء – من قبل السلطان محمد الفاتح سنة ٨٥٦ – ٨٥٧ هي التي ولدت الحقد في الملوك المسيحيين ضد المسلمين وأخذت من ذلك الوقت تجمع كيدها وتحصر همها لمناصبة الدولة العثمانية ، وتعمل على إذلالها وتضعضعها ، وإخراجها من فتوحاتها الاوروبية بكل وسيلة ، وفي كل سانحة وفرصة .

والأكثر في الحروب والتغلب ، والانتصار فيهما ، إنما يكون بالقوة وبالعلم، ولو أن الدولة العثمانية راعت من يوم تأسست ، أو من يوم ما استقلت به سنة ٦٩٩ وراقبت حركات العالم الغربي ، وجرت معه حينما جرى في مضماء المدنية ، والحضارة ، وقرنت إلى فتوحاتها المادية القوة العلمية ، على نحو ما فعلت اليابان أقله .

نعم لو فعلت ذلك لما كان ثمة مسألة شرقية ، أو لما ظهر ذلك التباين الذي لا يثبت معه الحكم طويلاً ، وهو تحكم الجهل بالعلم ، أو " حكومة جهل تحكم حكومات علم " ولا يتسنى اليوم للسف المجرد أن يحكم بأمة يدافع عنها مدافع العلم ، وما مسألة الدين إلاّ ذريعة ، تظهر بعد استكمال القوة للوصول لتلك الغاية، وهي دفع الجهل والحكومة الجاهلة ، عن الحكم بأمة عالمة لها تاريخها ولسانها وآثارها ، ولو كانت بالية .

وإذا كان للضغينة الدينية شئ من الدخل فى إيجاد المسألة الشرقية ، والاحتفاظ بها ، فإنها ليست هى كل أسباب المسألة ، بدليل أن سلاطين آل عثمان فتحوا وتوغلوا وضموا الممالك ، وكانوا يدينون بالاسلام •

ومن دخل فى ملكهم ، وتحت سيطرتهم ، كانو نصارى وأشد تمسكاً بالنصرانية مما هم الآن • فلو كان أمر الدين هو الباعث على هذا الحقد والمناهضة ، لكان الأولى أن يظهر إذ ذاك ، وعدم ظهوره بل رضوخ الطوائف والأمارات النصرانية للحكم العثمانى الأسلامى ، أكبر دليل على أن مسألة الدين لم تكن هى وحدها الفاعلة فى أمر المسألة الشرقية ، آلتي امتدت وستمتد إلى غير تركيا ، وستعم كل قارة وكل حكومة تتفق فى شكلها وحكمها وتفريطها مع حكومة تركيا •

وإذا تفحصنا عوامل تغلب الدول الاسلامية على الحكومات النصرانية لوجدنا منحصراً " فى القوة والعلم " •

وهكذا يدول أمر الدول انتصاراً وانكساراً •

والدول المسيحية اليوم إنما يغلبون الحكومات الاسلامية بالعلم مصدرة القوة، ويتغلب المسلمون بالجهل مصدر الضعف •

علم الأتراك يوم تسنى لهم فتح الممالك " علم الحروف وتعبئة الجيش "؛ وجهل الاوروبيون ذلك ، ولم يضارعهم فيه ، فانتصر الأتراك ، وانكسر الفرنجة•

التزم الأتراك والسلاطين العظام منهم جانب الدين وكان على منصة المشيخة الاسلامية علماء أعلام ، وفقهاء ، وأجلاء عالمون ، عاملون بحقيقة وأحكام الاسلام ، يصدر السلطان وأكابر دولته عن رأيهم ، وينزل على حكمهم ، فعدلوا فى الرعية ، وأمنوا من دخل ف متهم وسهلوا لهم الصعاب ، وحافظوا على جامعاتهم من دين ، ولسان ، وعادة ، فرضخ المستعمرون من الطوائف

النصرانية لقوة العثمانيين وعدلهم وعلمهم ، بالنسبة لجهل غيرهم فى تلك الأعصر .

فظل النصارى فى طاعة العثمانيين ، وظلوا فى كل المعانى رعية لهم ، ما دامت تلك المؤهلات والصفات فى الفريقين : القوة والعلم فى الحاكم ، والضعف والجهل فى المحكوم .

حتى إذا انعكس الأمر ، وبان الجهل مصدر الضعف فى الأمة الحاكمة وظهر العلم مصدر القوة فى الأمم المحكومة ، نهضت للتخلص من رقة الاستعباد لمن دونهم فى العلم ، واستبسلت فى الرجوع لحكم ذاتها بذاتها .

وقد سهل عليهم كل صعب فى هذا السبيل ، إقرار الدولة لهم على جامعاتهم الكبرى ، من دين ولسان وتاريخ ، تلك النعمة آلتي كانت وتكون على الدولة أكبر نقمة . ولا مناص لها من تحمل أعباء ذلك ، وهى سنة الوجود . لأن الأمم المحكومة إذا تيسر لها المحافظة على جامعاتها من دين ولسان وتاريخ ؛ ولم تستحل ، وتتحلّ فى يغر عنصرها ، فهى أرقب الناس للفرص وأعلق الخلق بإعادة وتجديد وإعادة سيرتها الاولى . ولن يثنيها أشد العوامل عن المطالبة بها . وتزداد نشاطاً وتستمد قوة معنونة كلما آنست من حاكمها المستهين بها استطالة بغير حق ، واستهضاماً لحقها بغير وجه مشروع وبقهر ليس له من الانصاف نصيب ، وبقتل يحيى ميت العزائم .

ثم قال : ومن ينظر إلى تاريخ الدولة العثمانية ونشأتها لا يتمالك نفسه من الإعجاب بنشاطها ، وكثرة ما فتحته من الممالك ، وأخضعت لسلطانها من الأمم .

ويأخذ به الاستغراب كل مأخذ ، من تفريطها وعدم جريها مع أحكام الزمن ، وحرمانها نفسها ومن دخل فى حكمها من الأمم ان تجرى وإياهم فى ميدان الحضارة ، أو أن يبقى لها أثر من الآثار ، فى تلك الممالك والامصار .

نشأت فى الجيل السابع للهجرة ، أو آخر القرن الثالث عشر للميلاد بآسيا الصغرى • فاستخلص السلطان عثمان الاول ما بيد السلجوقيين من الملك وهو القسم الشرقى ومشوا على ما بيد الروم من القسم الغربى •

وقد حول العثمانيون أنظارهم وصرفوا قوتهم ، وهمتهم إلى شبه جزيرة البلقان تلك البقعة الغربية فى وضعها الجغرافى ، إذ وقعت فى أقصى الجنوب الشرقى من أوروبا ، وإلى جانب آسيا • وبحيء انقسام المملكة الرومانية إلى شرقية وغربية ، كانت شبه جزيرة البلقان فى المملكة الشرقية ، وفيها غير تركيا ، اليونان ، والصرب ، والبلغار ، ورومانيا ، والجبل الأسود؛ ولكل من هؤلاء الأمرم عنعنات ومطامع وعروف وأنساب ، ونزعات طائفية ، واختلافات مذهبية وأميال سياسية ، كانت معها البلقان فى سائر الأعصر مهد الفتن والقلاقل ، ولا تزال كذلك ، وسيُعم بلاء البلقان أهله ، ويتعدى إلى ما سواه من الممالك •

لأن كل دويلة من هذه الدويلات الصغيرة تطمح فى تكبير حوزتها، وهذا الكبر لا يتم إلا بتصغير جارتها ، أو بابتلاعهاومن وراء هذه المطامع فى حكومات البلقان وابتلاع بعضهم بعضاً ، الدول الضخمة كروسيا والنمسا ومن ساعد على استقلالهم وإخراجهم من الحكم العثمانى وهم بمساعدة البلقانيين على الاستقلال إنما يريدون أن يبتلعوه ويملكوه جزءاً بعد جزء ، وستكون الحجة عنصر السلاوى والصقلى ، وكانت الحجة من قبل تخليص النصرانية من الحكم الاسلامى • والصحيح ، قوىّ يحاول اقتناص وابتلاع الضعيف •

ثم قال : هذا بحث يطول ، ولنعد إلى ما كنا فيه من النظر إلى ما ترك العثمانيون من الأثر فيما افتتحوه من الممالك •

افتتح السلطان مراد الثانى بلغاريا سنة ١٢٨٢م وبقيت تحت حكم العثمانيين وفى حوزتهم نحواً من أربعة أجيال ، والبلغاريون قوم أشداء وأصلهم من المغول مثل المجر والفنلنديين ، نزحوا من جهات قازان فى روسيا أوروبا ونزلوا بلاد البلقان في الجيل السابع للميلاد ، وهى من أول نشأتها ألفت الاستقلال وحافظت

على مكانتها ، وكانت دولة البيزانطيين تخشى بأسها ، ثم أخذت فى التقهقى فافتحها الروسيون ، ثم ناهضتهم وأعادت استقلالها فى القرن الحادى عشر ، ثم دخلت فى حوزة الروم وصارت جزءاً من المملكة الرومانية الشرقية ثم استقلت ثالثة ، ولم يفقد البلغاريون استقلالهم أربعة أجيال إلاّ مع العثمانيين ، وماذا فعلوا مع البلغار فى مدى تلك الاجيال ، وأى عثمانى تركوا فى بلغاريا ؟ لا شئ بلى !! تركوا لهم جامعاتهم الكبرى ، من دين ولسان وتاريخ يسيرون مع الحضارة والدنية مع السائرين ، وحكامهم الأتراك مع القاعدين ، مكتفين بالفخفخة والغطرسة والفخر بالأسلاف •

هذه أربعة قرون ، وبلغاريا تحت حكم العثمانيين ، وهى لا تزداد إلاّ انحطاطاً حتى إذا ما صرت أيالة ممتازة بموجب معاهدة برلين ، نهضت ، وقطعت شوطاً بعيداً فى الحضارة والعمران والترقى ، وصار لها جانب يخشى حتى من الدولة العثمانية •

أما الصرب فهى أيضاً من فتوحات مراد الثانى سنة ١٣٨٩ وبقيت كذلك فى حوزة العثمانيين أكثر من أربعة قرون ، وقد حاولت التخلص من حكم العثمانيين مراراً ، وآخر ثورة قام بها الصربيون دامت أربعة عشر عاماً نال بها الصربيون من الباب العالى نوعاً من الاستقلال • وسنة ١٨٧٨ استقلت تماماً بمقتضى معاهدة باريز ، ولحقت بجارتها بلغاريا •

وكذلك اليونان فقد أخضعتها الدولة العثمانية مع من أخضعت من ممالك البلقان وظلت فى حوزتها وتحت حكمها إلى سنة ١٨٢٩ فاستقلت بمناصرة أوروبا وبعد حروب طويلة دامت سبع سنين ، واشتركت فيها العمارة المصرية بقيادة ابراهيم باشا إذ أرسلها محمد على باشا الكبير إلى الموره • الأمر المعروف •

أما رومانيا وكانت فى القرن الثانى عشر عبارة عن امارتى فلاخيا ، ومولدانيا وقد خضعوا للعثمانيين وكانوا يؤدون الجزية من سنة ١٣٩٢ إلى سنة

١٧١٦ • ثم بعد ذلك دخلوا تحت سلطة الحكم العثمانى ، ثم احتلت روسيا البلاد وأعادت لهم امتيازاتهم آلتي كانت لهم وخسروها من سنة ١٧١٥ ثم كانت ثورة سنة ١٨٦٦ وانتهت باختيار الرومانيين البرنس شارل دى هوهنزلرن الالمانى •

ثم قرر مؤتمر برلين استقلال الولايتين " المعروفتين بالفلاخ والبغدان " أستقلالاً تاماً ودعاهما باسم رومانيا ، وفى سنة ١٨٨١ جعلت الامارة مملكة ونودى بأميرها ملكاً •

أما الجبل الاسود – وله من اسمه نصيب – فهو مقاطعة صغيرة ، جبلية وعرة ، لا تزيد مساحته عن ٣٦٣٠ ميلاً مربعاً وسكانه مئتين وسبعة وأربعين ألفاً ، وهم من العنصر الصقلى ، وأكثرهم فلاحون رعاة ، على غاية من شقاء العيش ؛ هذه الامارة الحقيرة قديمة العهد بالاستقلال ولم يرضخها ، ويفتتحها من العثمانيين ألاّ ذلك السلطان العظيم سليمان القانونى ، الذى وصلت السلطنة العثمانية فى عصره إلى منتهى المجد والعظمة •

ولما كان الجبل الاسود على ما ذكرنا من الفقر والوعورة ، وأهله أولى بأ وشدة ، واستبسال فى الدفاع عن استقلالهم ، فكانت الدولة تعد الجبل من ولاياتها، والجبليون من حين لآخر يجاهرون بالعصيان ، حتى إذا حملت عليهم جيوش العثمانيي يتظاهرون بالرضوخ وهكذا من سنة ١٥٢٦ إلى زمن البرنس نقولا " وهو ملك الجبل الحالى " ظل معترفاً بسيادة الدولة إلى سنة ١٨٦٢ ثم جاهر بالعصيان والتمرد ، حتى إذاكان مؤتمر برلين ، " ذلك القضاء المبرم على الدولة ، فقد ألن استقلال الجبل الاسود والتحق باخوانه أمراء شبه جزيرة البلقان ، وتخلصوا من حكم آل عثمان •

هذه هى شبه جزيرة البلقان آلتي افتتحها العثمانيون ، وبقيت فى حوزتهم وتحت سلطانهم الاجيال ، فماذا أحدثت فى تلك الممالك من آثار العمران ؟ وماذا تركت فى تلك الشعوب من الذكرى ؟ وماذا أعدت من الحزم والرأى والتدبير لبقاء تلك المقاطعات والامارات فى حوزتها ؟ وإذا كان الجواب " لا شئ" •

حينئذ يضطرنا الانصاف إلى أن نقول : ان الدولة العثمانية فى فتوحاتها ، وما شاهدناه من تفريطها ، لم تكن لتحسن الاستعمار بل بقيت سداً منيعاً للأمم المحكومة منها ، يحول بينها وبين الاخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الامم الراقية فى مدينتها وعلومها وصنائعها • شعوب من ذكرنا من ممالك البلقان يزيدون عن السبعة عشر مليوناً • ولكل أمة ومملكة ، جامعات ومميزات ، من تاريخ ودين ولسان ، وعادات وأخلاق ، وهى فى كل هذا ، على طرفى نقيض مع العثمانيين الاتراك ، فلو أخذت الدولة بالحزم بعد الفتح ، وعملت بصائب الفكر والرأى ، لعلمت أن بقاء تلك الممالك فى حوزتها يحتاج لإيجاد جامعات تجمعها مع شعوبها فتعمد إلى وسائل تعميم لسانها ، بإحداث دور علم وغيرها ، حتى إذا استطاعت وتسنى لها فى ظرف جيل أو جيلين أن تعمم لسانها ، وكان لها أحدى العوامل الكبرى للبقاء ، ولعدم سرعة الانفصال والتفكك • إذ يكونوا أتراكاً باللسان مثلاً ، أو بالدعوة الدينية كما يفعل اليوم دول الاستعمال ببث المبشرين من الانجليليين والرهبان ، وتشييدهم " دور العلم " •

فاذا انتشرت الدعوة الدينية ، وقبلتها الأمة المستعمرة ، اشتركوا بجدامعة ثانية ، وهى اللسان والدين ، فكان الارتباط أشد وأوثق •

وهكذا إذا فازت على مدى أربعة أجيال ، أن تعمم الجامعات آلتي لها بين تلك الشعوب ، اشتدّت عرى الاتحاد وانتفى التغاير ، وأسباب النفرة ، أما والدولة العثمانية لم تفعل فى ممالك البلقان ما ذكرنا ، ولم تفكر فيه فضلاً عن أن تسعى إليه ، فكان خروج تلك الممالك من حوزتها واستقلالهم ، أمراً محتماً ووقوعه لا مردّ له (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) •

ثم النظر فى فتوحات الدولة للممالك الاسلامية من مصر والشام ، فحلب فبغداد وتونس وسائر الممالك العربية • فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة والحروب • وكان لجامعة الدين التأثير العظيم فى قبول الحكم العثمانى، ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها ، وعملت بالفكرة من عهد السلطان محمد

الفاتح ، أو السلطان سليم ، بأن يتخذ اللسان العربى ، وهو لسان الدين ، لساناً رسمياً ، وتسعى بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك ، لكانت فى أمنع قوة ـ وآمن حصن من الانتقاض ، والخروج عن سلطانهم • ولكنها فعلت العكس ، إذ فكّرت بتتريك العرب ، وما أسفهها سياسة ! وأسقمه من رأى ! لأن تدين الاتراك بالدين الاسلامى ، على جهل باللسان العربى ، جعل لهم فى القلوب منزلة ، سالت وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين •

فما قولك لو تعربت ، وانتفى من بين الامتين النعرة القومية ، وزال داعى النفور والانقسام " التركى وبالعربى " ، وصاروا أمة عربية بكل ما فى اللسان من معنى ، وفى الدين الاسلامى من عدل ، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق، وفى مكارمهم من عادات •

لا ريب لو تيسر ذلك لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسوراً ، وجمع شتات الممالك الاسلامية تحت لواء سلطان عادل همام مثل الفاتح ، أو السلطان سليمان ، أو السلطان سليم ، غير عسير •

ولكن مع الاسف عدم قبول فكرة السلطان الفاتح ، أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربى ، خطأ بيّنٌ ، لا يضاعره إلا توغل العثمانيين فى أوروبا ، وشبه جزيرة البلقان ، وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة •

لأن المستعمرة مهما عظم موقعها ، وطاب هواؤها ، لا يصح أن تتخذ قاعدة أو عاصمة الملك ، لاسباب أهمها ، أن المستعمرة كما سيأتى بيانه كالثوب العارية قابل للاسترداد ، والممالك لا تسقط ولا تتبعثر أجزاؤها ، إلاّ من ضعف السلطان فى عواصمها وبسقوطها •

ومنها بعد المستعمرة على الغالب عن مجموع القوة ، وإحاطتها بأعداء الملك وأعوانه •• الخ •

انظر ، هل ترى دولة أوروبية جعلت عاصمة ملكها فى غير مملكتها ، وفى غير مكان نشأة تلك الأمة •

فالانكليز لم يجعلوا عاصمتهم – مع سعة ملكهم – إلاّ جزيـرة بريتانيا وفـى قلبها مدينة " لندن " وهى الجزيرة ألتي سكنها البريتانيون ، فى دور توحشهم •

والفرنسيس ، فى باريس ، قلب بلاد الغاليين •

وهكذا بقية الدول ، لأنه على تقدير ذهاب المستعمرات كلها ، وانتقاضه فأنه يبقى من البلاد ما كان لهم ملكاً خاصاً •

وعلى هذا جرى الخلفاء الراشدون ، فمقرهم كان المدينـة وهـى قلب البلاد العربية ؛ محاطة بقوة العرب من سائر الجهات •

ثم الأمويون ، ففى الشام •

ثم العباسيون ففى بغداد ، والعاصمة أنشأها المنصور إنشاءً وكـان فىملكهم من المدن ما هو أطيب هواء ، وأمنع موقعاً مـن بغداد ، ومـع ذلك فلـم يستبدلوا العارية بالملك الصرف •

نعم إن فتح القسطنطينية فيه من الفخر للفاتح ما لا يمحوه الدهر ، خصوصاً بعد أن حاوله الأمويون وبعثوا بالجيوش تحت قيادة يزيد ، ومعه خالد ابو أيوب الانصار صاحب المقام المعروف بالسطان أيوب ولم يظفروا • ثم العباسيون ، واكتفى الرشيد ومن بعده بأخذ الجزية من ملكها • وغيرهم من ملوك الاسلام ، ولم يظفر بالفتح ويمعنى الحديـث الشريف " لتفتحـن القسطنطينية ، فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش ، إلاّ ذلك الفـاتح العـادل الكبير السلطان محمد طيّب اللّه ثراه •

ولا أرتاب أن فتح القسطنطينية لو تيسر للأمويين أو للعابسيين ، لما جعلوها عاصمة ملكهم • بل جعلوها كما جعلوا غيرهـا مـن الممـالك ، مستعمرة تتقوى المملكة بجباية الأموال منها ، وفوضوا أمر إدارة شؤونها لأحد الدهـاة منهم كمـا فوضوا مصر ، والاندلس ، والسند ، وبخارى ، وبلاد الفرس وغيرها للمقتدرين من العمّال ، وهذا هو الحزم ، وغاية الصواب •

وأما شبه جزيرة البلقان ، فإن كان في ظاهر أمر فتحها من الأتراك ما يدل على القوة والبأس ، فإن في حقيقة الأمر كانت مصدر بلبال الدولة ، وإضعاف قوتها إذ لم تسكن فيها القلاقل ، والفتن ، ولم تفتر الدولة من تجييش الجيوش ، وإراقة الدماء في سبيلها ، كل ذلك وبالنتيجة كان البقاء في البلقان غير مضمون ، بل كان استقلال ممالك البلقان مجزوماً فيه من كل عال ٠

قال : ولقد سمعت من المرحوم عالي باشا ذلك الصدر الأعظم الكبير العقل النافذ النظر ، وهو يعتقد أن داء البلقان سوف يضعف جسم الدولة ، وسوف تضطر مكرهة على التخلي عن البلقان ، بعد خسارات مادية ومعنوية لا يمكن تعويضها ٠ وأنه وجد طريقة للتخلص من البلقان ، مع حفظ شرف الدولة ، والاستعاضة عنه بمبالغ جسيمة يمكن إصلاح بقية المملكة بها ٠ وتعزيز قوتها في آسيا ، وافريقيا ٠

وبالأسف كيف أن هذا الرجل الكبير لم يتوفق لتحقيق هذا الفكر السليم ، والعمل الذي فيه كل خير ، وكان أمر الله مفعولاً

فلو فعلت الدولة ، وأخذت برأي عالي باشا وغيره من حكماء الوزراء، أو بالذي تصورته لها من اتخاذ بغداد عاصمة ملك ، ومقر الخلافة ٠ وعندها الدجلة ، والفرات ، والخابور ، والبصرة وشط العرب – ذلك النيل الذي يفيض كل أربعة وعشرين ساعة مرة ٠ وتلك السهول الخصبة آلتي على جانبي وضفتي نينيك النهرين العظيمين ، والتي مساحتها عشرة أضعاف أراضي مصر على أقل تعديل ، وأعظم منها خصباً ٠ وأكثر إنباتاً ٠

ثم قال : رحم الله محمد علي باشا ذلك الأمي الكبير ، نابغة رجال أعصار وأجيال ، فقد طوى تحت جبته هماً تتكدك الجبال ، وقلباً يقدم به على هائل الأعمال ، وتحت عمامته دماغاً فعالاً، وعقلاً جوالاً ، وبصراً نافذاً ، وفكراً ورأياً صائباً ٠

بلغ الرجل من حدة الذهن ، وفرط الذكاء والدهاء ، وبعد النظر ، أنه بعد أن حسّن خراب مصر تحسيناً بيناً ، ونظّم ما اختل من أمورها ، واستنهر النيل القناطر الخيرية • ومنها يجرى فى الجداول والترع • عرض على الباب العالى والتمس من السلطان أن يعيضه بالبصرة عن مصر • وأنه يعد إسعاف هذا المسئول منةً وفضلاً فتأمل ؟؟

هذا الرجل العظيم ، لو لم يعلم يقيناً أن البصرة خير من مصر ، لما طلب ما طلب • هذه هى البصرة ، وأما الموصل " ذات الربيعين " فما شئت عنها فقل•

ثم إذا علمنا أن المسافر من بغداد فى عصر الرشيد كا يمشى فى ظل الاشجار حتى يبلغ غوطة دمشق ، ومصب نهر " قويق " فى حلب • ثم إذا اتجه من هناك للشمال ورأى سيحون وجيحون يجريان فى سهول أطنه ، وفى الجنوب عند دمياط ورشيد ، والاسكندرية يصب النيل المبارك ، وان كل تلك الممالك والأمصار والأنهار ، هى ملك خاص للمسلمين ، لاينازعهم فيه منازع إلاّ أولوا القوة من أهل المطامع ، ونزاعهم بالختل والخداع ، وبالحيلة والمكر ليس إلاّ •

فلو أنصف الترك أنفسهم ، وأخذوا بالحزم واستعربوا ، وترأسوا تلك الملك، وعدلوا فى أهله ، وجروا على سنن الرشيد ، أو المأمون على الأقل ولا نقول على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين • فمن كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة ؟ أو أعز جانباً ؟ ، وأمنع حوزة ؟ من ؟؟ ولكن الأسف ، إن إخواننا الأتراك لم يحسنوا من أعمال الدنيا غير " الحرب " وهم فيما عدا ذلك ، وفيما يختص فى شؤون العمران أقل روية وعملاً من سواهم ، يسوؤنى وأنا ممن يحبهم ، وأتأثر كلما افتكرت بما ارتكبوه من الخطأ فى عدم قبولهم اللسان العربى، وأن يستعربوا وازداد تأثراً إذ أراهم يرتكبون خطأ أقدح ، وهو جريهم وراء تتريك العرب واستبدال اللسان العربى لسان الدين الطاهر ، والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر ، باللسان التركى !!

وذلك اللسان الذى لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية ، لكان أفقر لسان على وجه الأرض ، ولعجز عن القيام بحاجيات أمة بدوية • ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسنة لما رأينا للأتراك شعراً يقرأ ، أو منثورا يفهم ، أو بياناً يترجم عن جنان • وهو فى حالته هذه إذا وزن مع لسان من الألسنة الحية ، تجه قد خف وزناً ، وانحط معنىً •

فكيف يعقل تتريك العرب ، وقد تبارت الاعاجم فى الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربى لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر ، فالأمة العربية هى " عرب " قبل كل دين ومذهب ، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان ، مالا يحتاج معه إلى دليل أو برهان • ثم قال : لقد كاشفت السلطان عبد الحميد فى أكثر هذه المواضيع فى خلوات عديدة فكان يسمع بكل إصغاء ولكنه فى النتيجة كان قليل الاختفاء بكل ما قلته له وفهمت من أوضاعه ، وأساريره وجهه أنه لا يعتقد أن قبول اللسان العربى ، وفكرة الفاتح والسلطان سليم بذلك صوابياً ، وكذلك لا يجب أن يعترف أن توغلهم فى أوروبا وفتح شبه جزيرة البلقان كان خطأ ، نعم إن زمن العمل قد مضى وانقضى ، وكان الحزم فى إخراج تلك التصورات لحيز العمل ، والدولة العثمانية إبان عزها واستكمال قوتها وبأسها أما اليوم فالأمر للقوة والطاعة على الضعيف ، وليس باستطاعة عبد الحميد أن يفعل ما كان بإمكان السلطان الفاتح ، أو السلطان سليمان ، أو السلطان سليم أن يفعله • قال : فحولت وجهى عن ما لايمكن ، إلى ما يمكن وفيه وقاية ما تقى من أملاك السلطنة العثمانية فى غير أوروبا •

رأيه مختصراً فى الدول الاسلامية ، وأسباب ما تراه فيها من التقهقر والانحطاط :

قال : لا تتكون الدول ، ولا يخلص لها السلطان ، إلا بقوتين : قوة الجنس التي تدعو للاتحاد لمغالبة من سواهم ، ويكن فيه النعرة والعصبية والانتصار

لجنسه • وقوة الدين ، الذى يقوم مقام الجنسية فى جمع الكلمة ، وتوحيد الوجهة، وطلب الغلب بتلك القوة لمن خالفهم فيها •

فإذا أخذنا العرب قبل الاسلام ، وجدناهم أمةً فيها النجدة والبأس والقوة الجنسية ، ولكن ما تيسر لها تكوين دولة ، ولا قام لها سلطان يجمع الكل • ذلك لأن قوة الجنس توزعت فى القبائل ، فكانت كل قبيلة تجمع فى نفسها من قوة الجنس كتلة صغيرة ، تغالب فيها غيرها من القبائل •

وعلى هذه الصورة ، لم ينتفع العرب كأمة من قوتها الجنسية ، بل خسرت لأنها وزعتها ، بدلاً من أن تجمعها ، ووجهتها لنفسها ، عوضاً من أن تغالب بها غيرها فكانت قوة الجنس فى العرب على هذه الحال ، أشبه شئ بسلاح المنتحر ؛ جاء الاسلام ، والأمة العربية على هذا الوضع ، من شتات قبائل مختلفة الأهواء، بأسهم بينهم ، كل قبيلة تتعصب لقبيلتها ، يغيرون ويقتلون ، ويسبون حلة بعضهم بعضاً • فدعاهم إلى دين يجمع الاهواء ، ويوحد الكلمة ، ويمنع الدعوة إلى عصبية ، وأقام قواعده مقام القوة الجنسية ، مع حفظ ما ألفوه ورضعوه من الحرية بكل معناها ، ومساواة بأصبح مبناها ، وعدل شامل ، وبالإجمال بكل ما يطر الأنفس ، ويلطف الشعور •

فالعرب بذكائهم ، وحدة ذهنهم لم يطل عليهم الزمن حتى وجدوا من أنفسهم ارتياحاً للدعوة ومن قلوبهم ملبياً ، ومجيباً للداعى ، فدخلوا فى دين اللّه أفواجاً ، وازداد العرب بالاسلام إقداماً ، وبأساً ، وقوةً • تلك القوى آلتي كانوا قبل الاسلام ، يضعونها بينهم • قد وجههم بها الاسلام – بعد أن اتحدت قلوبهم – إلى الممالك ، والامصار ، فدانت لدعوة دينهم الأمم ، ودخلت فى طاعتهم الملوك ، وذلّت لهم الاكاسرة ، فملؤوا أكثر معمور الأرض عدلاً وفتحاً من بجال بيرينى الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا إلى جدران الصين ، فى أقل من ثمانين سنة •

وهكذا دام مجد الاسم فى تعالٍ ، وملكهم فى اتساع ، فى دور الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين ، إلى عصر الرشيد والمأمون ، وهناك بلغ مجد

الدولة الاسلامية الأوج ، وأخذ من بعدها زمناً فى التوقف ، ثم بدأ فى التقهقر والانحطاط إلى دركة لم يبق معها من تلك العظمة والإجلال ، إلاّ رسوم وألقاب ، فقد مسماها وانعكس معناه .

فهل تم هذا الانحطاط والتقهقر ، بدون سبب ؟ كلاّ !!

هل حصل لقلة فى عدد المسلمين ؟ لا- بل إن عدد المسلمين فى دور انحطاط دولهم كان أكثر من يوم مجدهم وإبان عزهم .

إذاً فالسبب الأعظم ، والفاعل الأكبر فى السقوط ، هو إهمال ما كان سبباً فى النهوض والمجد وعزة الملك ، وهو ترك حكمة الدين ، والعمل بها ، وهى التي جمعت الأهواء المختلفة ، والكلمة المتفرقة ، وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس وقوته .

نعم لما فشى الجهل فى الخلفاء ، وبعدوا عن العلم بحقيقة الدين وحكمته ، وهن وضعف أساس الملك ، وتزلزل أقوى دعامة له . فرجعت القواد والرؤساء، إلى توزيع قوى الجنسية ، ومتفرق عصبيات القبائل ، من وائلى ومضرى ويمنى، ولم يعد لسلطان الدين تلك القوة الجامعة المانعة من عصبية .

وقد زاد فى ضعف الخلفاء بلية ، الإكثار من الأعراب ، وجعلهم قوة استعاضوا بهم عن قوة عصبيتهم وجنسهم ، فارتقى كثير من المماليك إلى أعلى مراتب القواد ، وترأسوا الدواوين ، ومدوا أيديهم إلى الأموال ، واستبدلوا بالقرى والسواد ، وتصرفوا بأموال الدولة حسب الهوى .

فوقع الخلفاء بين فقدان قوة الدين وقلة الجنس ، ولا يكون مع هذا إلاّ الانحطاط ، وبالتالى الانقراض - كما حصل وأسفاه - ! (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

وهكذا ترى الممالك فى دور تأسيسها معززة الجانب بأهل عصبيتها أولى الغيرة على الملك ، وصونه ، لا يدخل فى مناصب الدولة الرئيسية غريب عن

الجنسية ، ولا تبدو لذلك أقل ضرورة بعكس دور التقهقر ، فأول ما تبدو لاتعه في استخدام الغريب وهو بخلق التملقّ والتزلفّ والمسكنة ، وبالاجمال كلما تأباه نفوس أهل عصبية الملك من الأخلاق ، يتمكن من التقرب ، ويتدرج في المراتب، ويقرّب من كان على شاكلته من أهل جنسه وقبيله ، حتى يسقط بآخر الأمر ، الملك والمملكة بأيديهم ٠

وما أكثر الأمثلة على ذلك في بطون التواريخ ، كالقائد افشين ، والديلميين ، آل بويه وغيرهم ٠

ثم إن ما جرى لدول الاسلام العربية في دور تأسسها وانطاطها ، جرى للعثمانيين ويجرى على غيرهم من الدول ٠

ومتى رأيت الغريب المناوئ قد دبّ وتسنّم ذرى المراتب الهمامة في الدولة، فبشرها بسوء المصير ٠

هل يمكن لنا اليوم أن نرى مستشار خارجية انكلترا هندياً أو مصرياً ، أو هل يخطر ذلك ببال انكليزى ؟؟ كلاّ !! ثم كلاّ !!

ولكنك ترى ذلك في الدولة العثمانية اليوم ، وهي في دور الضعف والتقهقر، فمستشار نظارة الخارجية العثمانية ، أرتين باشا " أرمنى " ٠ وسفيرها لدى أنكى دول الارض لها ، وأشدها عداءً وهي " انكلترا " موزوروس باشا " رومي"٠ وحاكم جزيرة كريد ، قسكاكى باشا ٠٠٠ وهكذا مناسب الدولة العثمانية، مشحونة بيورغاكى ، وقسكاكى ، وآغوب ، وأوخانس الخ ٠٠

وكل فرد من هؤلاء الرجال ، له أمة محكومة من الدولة العثمانية ، باذلة جهدها للتخلص من الحكم العثمانى ، تعمل فيها دسائس الدول الغربية لتناهض الدولة ، سعياً وراء استقلالها ٠ فمع هذه الأمال والأماني ، هل يعقل أو ينتظر من أولئك الرجال إخلاص في خدمة الدولة ، أو تعزيز جانبها ، والعمل على صونها ، ونمائها ؟ ومصلحتهم القومية ، ومصلحة أممهم في خلاف ذلك ؟!

المراجـــع

أولا : المراجع العربيـــة

ثانيا : معاجم وموسو

ثالثا : الدوريـــــات

رابعا : المراجع الأجنبيـــة

أولا : المراجع العربية

١ - د. ابراهيم مدكور : فى الفلسفة الاسلامية . منهج وتطبيقه ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .

٢ - ابو خلدون ساطع الحصرى . ما هى القومية . ط١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٩ .

٣ - اجنتس جولد تسيهر : مذاهب التفسير الاسلامى ، ترجمة : د. عبد الحليم النجار ، مكتبة الخانجى ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٥٥ .

٤ - احمد امين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، ط ١ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٩ .

٥ - د. احمد عبد الرحيم مصطفى : حركة التجديد الاسلامى فى العالم العربى الحديث . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧١

٦ - ———————— : تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٧ - ———————— : افكار جمال الدين الافغانى السياسية . (دراسة فى : المجلة التاريخية المصرية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان التاسع والعاشر ، ١٩٦٠ - ١٩٦٢) .

٨ - د. احمد محمود صبحى : بعض جوانب التجديد فى الفكر الاسلامى.

٩ - اسماعيل مظهر : ملقى السبيل فى مذهب النشوء والارتقاء واثره فى الانقلاب الفكرى الحديث . المكتبة العصرية بالظاهرة القاهرة ١٩٢٦.

١٠-د. انور عبد الملك : الفكر العربى فى معكرة النهضة ، ترجمة : بدر الدين عرودكى (دار الآداب بيروت ١٩٧٤) .

١١-آلما وتلين : عبد الحميد ظل الله على الارض ، ترجمة : راسم رشدى (دار النيل للطباعة بمصر ، ١٩٥٠) .

١٢-الياس مرقص : نقد الفكر القومى ، جـ١ : ساطع الحصرى ، ط١ ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٦ .

١٣-د. بطرس بطرس غالى ، المدخل فى علم السياسة ، ط ٥ ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٦ .

١٤ -د. توفيق الطويل : الحرب والعلم فى عصر الاسلام الذهبى ، ط دار النهضة العربية ، القاهرة ، د.ت .

١٥-جرجى زيدان : بناء النهضة العربية ، دار المعارف ، القاهرة د . ت

١٦ - ———— : مشاهير الشرق ، دار الهلال ، القاهرة ، د . ت

١٧ - جمال الدين الافغانى : الرد على الدهريين ، ترجمة (الشيخ محمد عبده) ، القاهرة ، ١٩٠٣ .

١٨- ———— : العروة الوثقى ، بالاشتراك مع (الشيخ محمد عبده) ، دار البستانى ، القاهرة ١٩٥٧ .

١٩ - جورج بوليتزر : المادية المثالية فى الفلسفة ، ترجمة : اسماعيل المهدوى ،

٢٠ - د. حسن حنفى حسنين : قضايا معاصرة (١* فى فكرنا المعاصر ، ط١ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٢١ - د. حسن شحاته سعفان : علم الانسان ، مكتبة العرفان ، بيروت ، ١٩٦٦ .

٢٢- د. حسين فوزى النجار : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

٢٣ - د. خليل عبد الحميد عبد العال : دراسات فى تاريخ الدول الاسلامية الحديثة والمعاصرة ، الاسكندرية ، ١٩٥٧ .

٢٤ - رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ، الجزء الاول ، مطبعة المنار ، القاهرة ، ١٩٣١ .

٢٥ - د. زكى نجيب محمود : فلسفة وفن ، ط١ ، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٢٦ – د٠ زكي نجيب محمود: وجهة نظر ، ط١ ، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٧ ٠

٢٧ – ــــــــــــــــــ: هموم المثقفين ، ط١ ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨١ ٠

٢٨ – د٠ عادل العوا : الكلام والفلسفة ، مطبعة جامعة دمشق ، دمشق ، ١٩٦١ ٠

٢٩ – عباس محمود العقاد : على الاثير ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د ٠ ت ٠

٣٠ – د٠ عبد الحميد متولي : ازمة الفكر السياسي الاسلامي الحديث : مظاهرها – اسبابها – علاجها ٠ ط٢ ، منشأة المعارف بالاسكندرية،١٩٧٥ ٠

٣١ – عبد الرحمن الرافعي : جمال الدين الافغاني باعث نهضة الشرق ١٨٣٨– ١٨٩٧ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦١

٣٢ – عبد العظيم محمد رمضان : تطور الحركة الوطنية في مصر سنة ١٩١٨ الى ١٩٣٦ ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ٠

٣٣ – عبد القاهر المغربي : جمال الدين الافغاني ٠٠ ذكريات واحاديث ، ط٢ ، سلسلة أقرأ ، دار المعارف بمصر ، د ٠ ت ٠

٣٤ – عبد المتعال الصعيدي : المجددون في الاسلام من القرن الاول الى الرابع عشر الهجري ، ط٢ ، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ، القاهرة ، ١٩٦٢ ٠

٣٥ – د٠ عبد النعيم محمد حسنين : جمال الدين الاسد ابادي ، " المقدمة " ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٣ ٠

٣٦ – د٠ عبد الملك عوده : الكتلة الاسلامية (رسالة لنيل درجة الدكتوراة في العلوم السياسية من كلية التجارة ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٥ ٠

٣٧ – د. عبد اللطيف حمزة : ادب المقالة الصحفية فى مصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٣٨ – د. عبدالله العروى : الايدلوجية العربية المعاصرة ، ترجمة : محمد عيتانى ، دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٠ .

٣٩ – د. عثمان امين : رائد الفكر المصرى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

٤٠ – ———— : رواد الروعى الانسانى فى الشرق الاسلامى ، دار القلم بالقاهرة ، ١٩٦١ .

٤١ – ———— : تقديم وتعليق ، الرد على الدهريين لجمال الدين الافغانى ، مكتبة الخانجى بمصر والمثنى ببغداد ، ط٢ ، ١٩٥٥ .

٤٢ – د. عثمان نجاتى : الادراك الحسى عند ابن سينا ، ط ٣ ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٤٣ – د. عزت قرنى : العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية الحديثة ، سلسلة (عالم المعرفة) ، الكويت ، يونية (حزيران) ، ١٩٨٠

٤٤ – على حسب الله : اصول التشريع الاسلامى ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ١٩٢٦ .

٤٥ – د. على الدين هلال : التجديد فى الفكر السياسى المصرى الحديث ومعهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٤٦ – د. على المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة ١٧٩٨ – ١٩١٤ . الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية. (ط٢ ، الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٧٨) .

٤٧ – فتحى الرملى : البركان الثائر : جمال الدين الافغانى ، ط١ ، دار الثقافة العامة ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

٤٨ – فتحى الطوبجى : حركات الوحدة فى الوطن العربى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، دون تاريخ .

٤٩ – د٠ فهمي جدعان : اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩

٥٠ – فيليب حتي ، وآخرون : تاريخ العرب ، مطول ٠ دار العلم للملايين بيروت ، ١٩٦٣

٥١ – قدري حافظ طوقان : جمال الدين الافغاني ٠ آراؤه ، كفاحه واثره في نهضة الشرق ٠ مطبعة بيت المقدس ، القدس ، ١٩٤٧ ٠

٥٢ – ———— : مقام العقل عند العرب ٠ دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٠ ٠

٥٣ – قدري قلعجي : جمال الدين الافغاني ٠ حكيم الشرق ٠ ط٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٢ ٠

٥٤ – كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ٠ ترجمة : نبيه امين فارس ، ومنير البعلبكي ، ط٤ دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٥ ٠

٥٥ – مارون عبود : جدد وقدماء ، بيروت ، ١٩٦٢ ٠

٥٦ – مالك بن نبي : شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٠ ٠

٥٧ – مالك بن نبي : وجهة العالم الاسلامي ٠٠ ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٠

٥٨ – ———— : الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، ط٢ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٩ ٠

٥٩ – د٠ محمد اقبال : تجديد التفكير الديني في الاسلام ، ترجمة عباس محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٥ ٠

٦٠ – د٠ محمد البهي : الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط٦ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٣ ٠

٦١ – د٠ محمد جابر الانصاري : تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ، سلسلة عالم المعرفة العدد ٣٥ ، الكويت ، نوفمبر ، ١٩٨٠ ٠

٦٢ – محمد شفيق غربال : من زاوية القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢ ٠
٦٣ – الشيخ مصطفى مصطفى عبد الرازق : ترجمة جمال الدين الافغانى فى : العروة الوثقى ، دار الكتاب العربى ، لبنان ، ١٩٧٠ ٠
٦٤ – د٠ محمد ضياء الدين الريس : الشرق الاوسط فى التاريخ الحديث ، ط ٢ ، مكتبة الشباب بالقاهرة ، ١٩٦٥ ٠
٦٥ – محمد عبد الله عنان : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة ، دار الهلال بمصر ، ١٩٢٦ ٠
٦٦ – الشيخ محمد عبده : الثائر الاسلامى جمال الدين الافغانى ، كتاب الهلال ، اكتوبر ، ١٩٧٣ ٠
٦٧ – محمد عمارة : الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى ٠ ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ٠
٦٨ – ———— : جمال الدين الافغانى ، (الاعمال الكاملة) (دراسة وتحقيق) ، جـ١ : الله ٠٠ والعالم ٠٠ والانسان ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ ٠
٦٩ – ———— : العرب والتحدى ٠، عالم المعرفة عدد ٢٩ ، الكويت ، مايو ، ١٩٨٠ ٠
٧٠ – د٠ محمد على ابو ريان : المدخل الاسلامى للايديولوجية العربية ، جامعة بيروت العربية ، بيزوروت ، ١٩٧٩ ٠
٧١ – محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الافغانى ٠، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ٠
٧١ – محمد سلام مدكور : الحكيم الثائر : جمال الدين الافغانى ٠، المجلس للشئون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ٠
٧٣ – د٠ محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ط٣ جزأن فى مجلد واحد ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٢

٧٤ - د٠ محمد محمد حسين . الاسلام والحضارة العربية ، دار الارشاد ، بيروت ، ١٩٦٩ ٠

٧٥ - محمود ابو رية : جمال الدين الافغاني ، تاريخه ورسالته ، ط٢ ، دار الهنا للطباعة ، القاهرة ، ١٩٥٩ ٠

٧٦ - ——————: جمال الدين الافغاني ، نوابغ الفكر العربي ، ط٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ ٠

٧٧ - —————— : جمال الدين الافغاني : تاريخه ورسالته ومبادئه ، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، ١٩٦٦ ٠

٧٨ - د٠ محمود قاسم : جمال الدين الافغاني ٠ حياته وفلسفته ، الانجلو المصرية ، د٠ت ٠

٧٩ - د٠ محمود كامل : الاسلام والعروبة ٠٠ ط١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ ٠

٨٠- د٠ منير مشابك موس : الفكر العربي في العصر الحديث ٠٠ دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٣ ٠

٨١ - ميرزا لطف الله خان : جمال الدين الاسد ابادى المعروف بالافغاني ، ترجمة الدكتور محمد عبد النعيم حسنين ، ط١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٣ ٠

٨٢ - لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامي ٠٠ ترجمة عجاج نويهض، تعليقات وهوامش شكيب ارسلان ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٢٥ ٠

٨٣ - لويس غروبه ، والاب قنواتي : فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية الترجمة العربية ، جـ١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٦ ٠

٨٤ - د٠ يوسف عز الدين : الاشتراكية والقومية واثرهما في الادب الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ ٠

ثانيا : معاجم وموسوعـــات :

١ - الموسوعة الفلسفية المختصرة :

ترجمة باشراف د. زكي نجيب محمود ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٢ - المعجم الفلسفي :

مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٣ - دائرة المعارف الاسلامية :

اعداد احمد الشنتناوى وآخرون ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

ثالثا : الدوريـــات :

١ - الجنان . بيروت ١٨٧٠ - ١٨٨٥ .

٢ - المنار . القاهرة ١٨٩٨ - ١٩٣٦ .

٣ - جريدة مصر .

٤ - جريدة السياسة اليومية .

٥ - الجامعـــــة .

٦ - المقتطف .

٧ - المجلة التاريخية المصرية .

٨ - جريدة الاهرام .

٩ - مجلة الطليعة .

١٠ - مجلة الموقف العربي .

١١ - Orient

١٢ - J. des Debats .

رابعا : المراجع الاجنبية :

1 - Adams, C.C. Islam and Modernization in Egypt, London, 1933

2 - Al-Afghani, Jamal al-Din: L'Islamisme et la Science. J. des debats, 18 & 19 May 1883 (reprinted in frxtr. of al-Radd'ala'L-dahriyyin)

3 - ——————————: Philosophie de L'union Nationale, tr. M. Hendessi. Orient,, Vi (1958), 123-8 .

4 - Binder, Leonard : The Ideological Revolution in the Middle East, NewYork : John Wiley and son, Inc., 1964 .

5 - Browne, E.G. The Persian Revolution, Cambridge, 1910.

6 - Cromer, The Earl of : Modern Egypt. London, 1911

7 - Fakhry, Majid: A History of Islamic Phiosophy. Columbia University Press. NewYork and london, 1970.

8 - Gibb, H.A.R. : Modern Trends in Isalm, Chicago, 1947.

9 - Goichon, A.M : Jamal Al-Din Al-Afghani " Refutation des Matetialistes. Traduction sur La3 eEdition Arab Avec Introduction et Notes.

10 - Hourani, Albert: Arabic Thought in the Liberal age (london Oxford University Press, 1967) .

11 - Keddie, N.R; : An Islamic Response to Imperialism, Political and Religious writings of Sayyid Jamal Al-Din Al-Afghani., " Berkeley, 1968 .

12 - Khaddurie, Majid: Political trends in the Arab world (Baltimore: the Johns Hopkins Press, 1970).

13 - Kedourie, Elie : Afghani and Abduh (London : Frank cass Co. Ltd., 1966 .

14 - Nuselibeh, Hasem Zaki, : The Idea of Arab Nationalism, Published by cornell University Press, New York. 1956 .

15 - Renan, E., : L'Islamisme et la Science. Paris, 1883.

16 - Safran, Nadav., : Egypt in search of Political Community. (cambridge : Harvard university Press, 1961).

17 - Sharabi, Hisham, : Arab Intellectuals and the west the Frmative Years, 1875 - 1914, Baltimore, 1970.

18 - Sharif, M.M., : A History of Muslim Philosophy: Otto-Harroswitz-wiesbaden, 1963, (Volume Two), 1963 .

19 - Smith, Wilfred Cantwell: : Islam in Modern History (Princeton, Princeton University press, 1956).

20 - Thompson Jack, and Reischaure Robert: Modernization of Arab World (princeton: Van' Nostrand Company, Inc., 1966).

فهرس تحليلى للدراسة

رقم الصفحة

تقديم بقلم دكتور حسن حنفى ٧

مقدمـــــــة ... ١٥

فصل تمهيدى كمدخل لفكر جمال الدين الافغانى

(١) العصر .. وارهاصاته :

- حقيقة عصره : اوروبا - الدولة العثمانية -

حالة الشرق عامة كنتيجة لما سبق ٢٥

- الاطار العام لظهور جمال الدين ٢٨

(٢) السيرة : مشكلة .. وحل : ٣٣

- المشكلة على وجه التحديد ، واهميتها

- القائلين بأفغانية جمال الدين ، وحججهم .

- القائلين بايرانية جمال الدين ، وحججهم .

- رأى الباحث فى هذا الصدد .

فى الفلسفة السياسية لجمال الدين

الفصل الاول

فكرة الوحدة .. والجامعة الاسلامية

أ - الجامعة الاسلامية : ٤٧

- مدخل ، والسمات الفكرية المميزة لفكر جمال الدين ٤٧

- جمال الدين والوحدة الاسلامية (تحليل لآراء المفكرين

بصددها) . ٥٣

- الاتجاه الاول - الإتجاه الثانى - الاتجاه الثالث

- تعقيب الباحث على هذه الاتجاهات ٦٢

ب - آراء جمال الدين فى الوحدة الاسلامية ، وتمهيد للفكرة

المحورية لديه ٦٥

رقم الصفحـــة

هـ -الفكرة المحورية لدى جمال الدين (القومية) : ٨٠

- تمهيد ٨٠

- نص ينشر لاول مرة ٨٥

- العروة الوثقي ٩٠

- الرد على " إرنست رينان ٨٧

- الخاطرات ٩٦

- المقالة الفارسية

- خاتمة ١٠٥

الفصل الثانى

الحرية .. والديموقراطية

- مدخل ١١١

- معانى الحرية لدى جمال الدين ١١٧

- مفهوم السلطة .. والأمة ١٢٠

- مفهوم الدستور .. والحكم ١٢٣

- الحكم الجمهوري ١٢٧

- الحكم النيابى الدستورى ١٣٣

- رأيه فى الاحزاب السياسية ١٣٤

- مفهوم الحكم بين فكرة (المستبد العادل) ،
و(نظرية الحكم الالهى) .. ١٤١

ملحق النصوص ١٥٣

المراجـــــــع ٢٨٣

هذه السلسلة

هدفها العمل على خلع الأردية القديمة التي كنا - ولانزال - نرتديها حتى الآن،سواء بفعل المستعمر، أو المستشرق،أوحتى الجهل الذاتي الذي يدفعنا للإنسياق وراء مقولات جاهزة وترديدها دونما بحث أوتمعن، مما يغرقنا في متاهة انعدام الوعي .

ولتحقيق هذا الهدف سيقوم البحث في هذه السلسلة بمعارضة المعروف ومخالفة المألوف ، سعيا وراء هدف واحد هو : تجلي الحقيقة بوضوح .

ستقوم السلسلة بقراءة جديدة للعقل التجديدي الإسلامي كما تجلى في مشاريع التجديد لدى الأفغاني - محمد عبده - محمد اقبال.. الخ، قراءة تعتمد التحليل والفحص النقدي، كي تستند عملية اعادة بناء الذات على الوقع الفعلي أولا، قبل الوجود المأمول ثانيا .

هذا الكتاب

جمال الدين (الأفغاني) : الفكر والسياسة :الدين السياسي .

هذا هو الكتاب الأول من السلسلة يختص بالبحث في مشكلة سيرة جمال الدين هل هو أفغاني/ سني، أم إيراني / شيعي، وذلك ليس انصافا لإتجاه منهما على الأخر - فكلاهما ينتمي للإسلام الحنيف - وإنما توضيح للأسلوب الملتوي الذي بدأ به الرجل حياته وتعامل به مع الناس.

ويتطرق الكتاب بعد ذلك بتفصيل دقيق لأفكاره واتجاهاته السياسية بخصوص : الحرية، الديمقراطية، الحكم، المستبد العادل .

كما يبرز الكتاب للمرة الأولى الإتجاه القومي لديه بخصوص فكرة : الوحدة/ الجامعة الإسلامية، وذلك لإثبات أن السياسة -وليس الدين- هي لحمة فكر الرجل وسداه، فهي الأساسي للبناء، وهي الوسيلة والهدف، هي الغاية النهائية قبل كل شيء، وبعد كل شيء .

الناشر